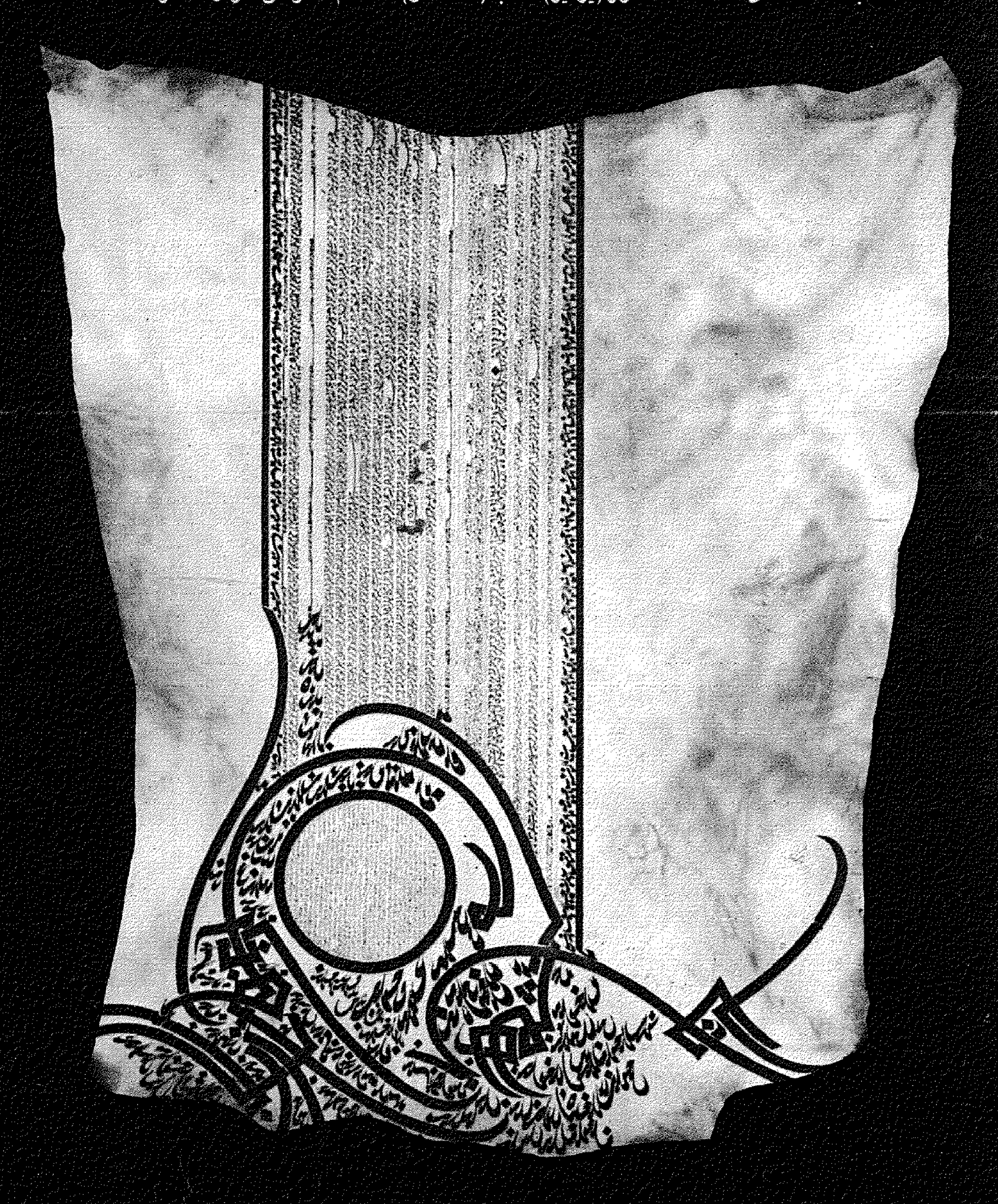
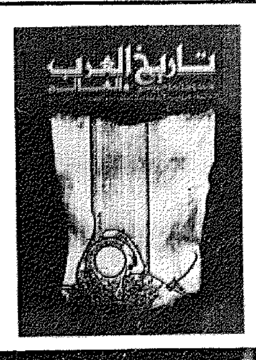
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السابعة • العددان ٨١ ـ ٨٢ • تموز (يوليو) ـ آب (أغسطس) ١٩٨٥م • الموافق شوال ـ ذو القعدة ١٤٠٥هـ



□ مخطوطة عربية في علم النبات.



الغلاف الأول

□ خط على الرق الأصيل
نجا المهداوي.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٨١/٨٢ ــ تموز ــ آب ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٨ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 7 — No. 81/82 — July — August 1985

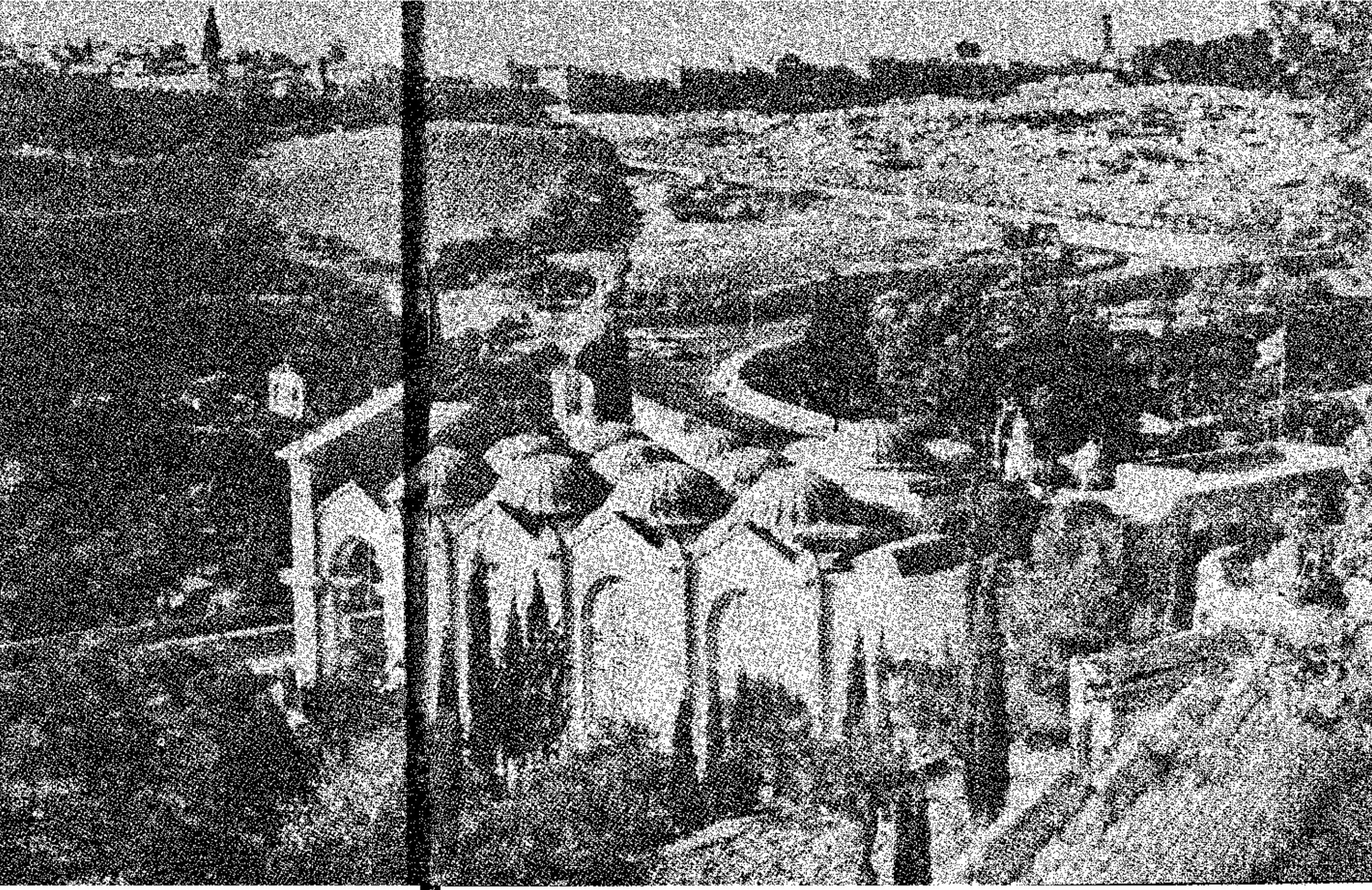
ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FO
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

الدور التاريخي للمسيحيين العرب في فلسطين

ستيفن رانسمان



☐ كنيسة جميع الملل ـــ القدس.

☐ محاضرة عربية ألقيت في جامعة اسكس مؤخراً.

انا لست من علماء اللغة العربية او الباحثين فيها، وهذا ما يجعلني ابذل جهداً كبيراً في تفهم النصوص العربية التي يجب علي الاطلاع عليها. فمن الناس من هم متشددون في المحافظة على الدقة وعدم الخروج عن الصحيح، فيرون في عبارة «مسيحي عربي» تناقضاً غير مسوغ ولا مشروع. ويقولون إن العربي الصحيح هو العربي من جزيرة العرب، وخاصة العربي الذي نزح أجداده من الجزيرة ونشروا دعوة الاسلام؛ وعلى هذا فإن هؤلاء المسيحيين ليسوا من نسل عربي من الجزيرة العربية ولا هم يشاركون العرب في دينهم. ولكن من الذي يستطيع أن يدّعي نقاوة الأصل والعرق وصراحة النسب؟ فإن مثل هذه النقاوة أو الصراحة لا توجد إلا في مجتمعات قليلة بدائية منعزلة ومنقطعة عن الاتصال بالعالم الخارجي. وإذا تكلمنا عن القومية فقوميتنا هي ما نعتقد أنها قوميتنا، ولا يوجد معيار صحيح غير ذلك. والمسيحيون العرب في فلسطين كانوا وما زالوا يعتبرون أنفسهم من سنين عديدة بأنهم جزء من العالم العربي، وعلينا أن نحترم لهم هذا الشعور[1].

ولكن في الحقيقة من هم العرب؟ العرف المتبع في الاستعمال هو أن نطلق اسم العرب أو العربي على جميع الشعوب والبلاد التي تتكلم العربية من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، ويشمل ذلك المسيحيين من لبنان وأجناساً غير عربية أخرى كالنوبة في السودان والبربر في المغرب. هذه هي الشعوب التي ترى أن العالم العربي مؤلف منها، وهي الشعوب التي تجتمع كلمتها الآن على النقمة ضد دولة إسرائيل ـــ ومن شأن العداوة أن تكون أوثق رباطاً من المودة. واللغة لا تكون بحكم الضرورة قوة عاملة على التوحيد. ففي القرن الثامن عشر كان الفيلسوف الألماني كارل شليكل قد بعث في النفوس روح الثورات الوطنية في القرن التاسع عشر بالعقيدة التي كان ينادي بها وهي أن اللغة هي التي تقرر هوية الأمة وشخصيتها؛ ولكن الحوادث التي عقبت ذلك لم تقره على عقيدته

تمام الاقرار. وكيف يصح ذلك والأمريكيون يتكلمون الانكليزية — أو لهجة من لهجات اللغة الانكليزية — وهم لا يتوافقون دائماً في نظرتهم مع انكلترا، ولا أن الاسكتلنديين يتوافقون مع الانكليز من هذه الجهة. ولكن اللغة العربية مع ذلك كانت ولا تزال في وضع مختلف، بسبب الدين. فالاسلام قائم بصورة ثابتة على القرآن الذي هو كلام الله المنزل، والذي هو لذلك لا يجوز أن يترجم إلى لسان آخر. ولئن كان بين المسلمين ملايين من غير العرب فالاسلام في جوهره دين عربي، وهذا من شأنه أن يضفي على العالم الاسلامي العربي وحدة معنوية. ولكن هذا لا يفسر لنا السبب في شعور العرب المسيحيين بأنهم جزء من العالم العربي. وكان المسيحيون من أهل فلسطين لا يشعرون بهذا الشعور في الماضي. فما الذي جرى لهم حتى اندمجوا في هذا العالم في هذه الأيام؟

للكشف عن أصول العرب المسيحيين من فلسطين من ناحية العرق لا بد أولاً من أن نتحسس سبيلنا في الظلام المخيم على تاريخ الأعراق البشرية قبل بزوغ فجر التاريخ، وأن نقدر ثانياً النسبة العددية للقبائل المختلفة التي كان يتألف منها سكان فلسطين في أيام العهد القديم من الكتاب المقدس، ولموجات التسرب والغزوات التي عقبت ذلك من الصحراء. فالسكان كانوا على الدوام مزيجاً، ولم تكن جميع العناصر سامية. فالفلسطينيون الذين سميت البلاد باسمهم جاؤوا على وجه التحقيق من الشمال، وكان للحثيين عدد من المستوطنات وزوج أم سليمان هو أوريا الحثي. ولم يحتل الاسرائيليون البلاد بأكملها قط، ولو أن داوود وسليمان كانت لهما سيطرة على عدة قبائل مختلفة. وبعد السبي الآشوري ثم السبي البابلي انخفضت حتماً نسبة الاسرائيليين في هذا المزيج، ولم تعد النسبة بكاملها إلى سابق عهدها حتى ولا بعد عودتهم من مياه بابل. والفتوحات الاسكندرية وحكم البطالسة والسلوقيين أضافت مزاجاً آخر من الأجناس ازداد فيما بعد في أيام الامبراطورية الرومانية. ثم بعث المكابيون من جديد تفوق العنصر اليهودي. وجرى في أثناء القرن الأخير قبل المسيح موجة جديدة أخرى من التسرب من الصحراء. وأشد هؤلاء الأقوام الصحراويون، وهم النبطيون ثم التدمريون من بعدهم، ظلوا على أطراف فلسطين[٢]. ولكن نفذ غيرهم إلى داخل البلاد وتوغلوا فيها؛ وكثير منهم، وعلى رأسهم أسرة هيرودس، ألحقوا أنفسهم باليهود وائتلفوا معهم[٣]. وجلب هؤلاء المتسربون لغة معهم، تسمى اللغة الآرامية، وليس لهذه التسمية سبب وجيه جداً يعرف. ولم يأت عهد المسيح حتى أصبحت هذه اللغة لغة عامة الشعب في البلاد. وكان المتعلمون من طبقات السكان يتكلمون اليونانية ويكتبونها. واقتصرت اللغة العبرانية حينئذ على كونها لغة للأدب وللصلوات والأذكار الدينية[٤].

ونشأت الديانة المسيحية في أول عهدها بين اليهود، ولو أن دعوة المسيح كانت موجهة إلى جميع الشعوب في فلسطين، وسعى القديس بولس إلى نشر الانجيل إلى أبعد من ذلك. وكانت الكنيسة في القدس، تحت زعامة القديس يعقوب أخي ربنا، في مدة جيل بعد موت المسيح، ترى نفسها أنها فرقة يهودية إصلاحية. وكتب أعمال الرسل تخبرنا بعبارات متحفظة عن المشقة التي عاناها القديس بولس بسبب آرائه المتسامحة وكيف أنه لاقى الزجر والكبت بسبب أعماله التبشيرية بين الأقوام غير اليهودية. ولم يتبدل مصير المسيحية إلا بسبب الثورة اليهودية وتخريب تيطس للقدس. ويظهر أن المسيحيين اليهود وقفوا بمعزل عن هذه الثورة نفسها؛ ولكن المنظمة التي كانت تضمهم لم يكن في إمكانها البقاء بعد تخريب القدس. والتشتت اليهودي الذي عقب ذلك لم يخفف نسبة اليهود بين سكان فلسطين فحسب بل إنه زاد من العنصر غير اليهودي في الكنيسة المسيحية. ونقل المقر الرئيسي للكنيسة المسيحية من القدس إلى قيسارية عاصمة المقاطعة الرومانية حيث الجو أقرب إلى أن يكون شعوبياً مختلطاً من أقوام مختلفة، وتحولت زعامة الكنيسة إلى المقدمين من رجال الدين في المدن المركزية الكبيرة خارج فلسطين، وخاصة أنطاكية والاسكندرية وروما. ومع ذلك فإن الجماعات المسيحية في فلسطين نمت بسرعة؛ وكان بين جماعات المصلين في الكنائس عدد كانوا كما كان الرسل الأولون من

أصل يهودي ولكن كان يجري حينئذ بسهولة تزاوج بين أسر من هؤلاء وأسر من أجناس أخرى(٥).

ولا يتوافر لدينا إلا النزر القليل من المعلومات والتفاصيل عن نمو المسيحية في فلسطين. وكل ما يمكننا أن نقوله هو إن فلسطين عند اعتناق الامبراطور قسطنطين المسيحية كانت في أكثرها بلداً مسيحياً؛ ولم يكن من السكان غير المسيحيين بعد قرن في البلاد إلا جماعات يهودية مختلفة ومنتشرة في أماكن محدودة وجماعة صغيرة من السامريين.

ولم يمض زمن طويل مع ذلك حتى ظهرت الانقسامات والفرق في الديانة المسيحية. فقد شهد القرن الرابع الخلاف الأريوسي. وبانقضاء القرن الخامس كانت البدعة الأريوسية قد اختفت من الشرق؛ ولكن كان يوجد في غضون ذلك القرن خلافان عظيمان أديا إلى تأسس كنائس منشقة بصورة دائمة، وهي الكنيسة النسطورية والكنائس المختلفة التي كانت تدين بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح. وليس المقام هنا مقام بحث في التفاصيل اللاهوتية؛ ولكن يجب أن نتذكر أن ذلك العهد كان عهداً تجلى فيه عمق التمسك والايمان بالدين. وكان كل واحد يعتقد أن هذه الدنيا إنما هي في مآسيها توطئة لحياة أخرى تالية، حيث النعيم الأبدي والسعادة السرمدية لكل من يؤمن إيماناً صريحاً صادقاً. ولذلك كانت صراحة هذا الايمان وصفاؤه، أي كون الايمان صحيحاً سليماً من ناحية لاهوتية، من الأهمية الضرورية بمكان. وكان الأشخاص الذين لهم تأثير في الناس في هذا الشأن هم القديسون والكهنة والرهبان والنساك. وكانوا يختلطون بالناس ويعيشون بين ظهرانيهم وكان الناس يستشيرونهم. وكانوا يعرفون ظروف الناس وأحوالهم وشكاويهم فكانوا يرشدونهم فيما يفكرون به. ولم تكن جميع الشكاوى دينية؛ ولكن المقاومة السياسية وعدم الاستقرار الاقتصادي كان التعبير عنهما يكون عن طريق الانشقاق الديني.

وكان مذهب النسطورية ومذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح من ناحية دينية، كل بحسب طريقته، يمثلان عقيدة وطقوساً دينية أبسط مما هي في الديانة القويمة (الأرثوذكسية)؛ وكانا أنسب للنفسية السامية من الحذلقات الفلسفية عند الكنيسة القويمة (الأرثوذكسية) ومن مراسمها واحتفالاتها الدينية التي كانت تزداد فخامة وبهاء. وكانت البدع الدينية من ناحية سياسية إعراباً عن رغبة الانفصال طلباً للمزيد من الاستقلال في الحكم المحلي. وكانت مصر وسوريا، وهما المقران الرئيسيان للبدع الدينية، ناقمتين منذ عهد بعيد على الحكم الروماني. وازدادت نقمتهما عليه حينما أقام الامبراطور قسطنطين عاصمة جديدة، باسم روما الجديدة، وهي القسطنطينية أو بوزنطية القديمة، وحينما حاول أباطرة روما الجديدة، ونسميهم هنا تسهيلاً علينا باسم الأباطرة البوزنطيين، أن يزيدوا من ربط أقاليمهم وممتلكاتهم وتوثيق أواصر الحكم بقاعدة الامبراطورية ومركزها، وعلى الخصوص حينما أصلحوا من النشاط في جبي الضرائب. ونقمت المدينتان المركزيتان القديمتان، الاسكندرية وأنطاكية، لازدياد عدد السكان والثروة وارتفاع المقام لمدينة القسطنطينية وهي الحديثة العهد بالتاريخ والمجد، ولا سيما حينما ارتفع مقام أسقف القسطنطينية إلى مقام البطركية وأعطي له التقدم والسبق على بطركيهما ولهما ما لهما من عراقة العهد في كرسيهما الكهنوتي(٦). ولم ينته القرن الخامس حتى أسس النسطوريون لأنفسهم كنيسة منفصلة في شمال سوريا، ولكنهم لما رأوا أنهم لم يلاقوا تأييداً كبيراً هناك، ارتحلوا بأجمعهم تقريباً إلى الشرق في أراضي ملوك الفرس، وبذلك لا يبقى لهم مكان في حديثنا. ولكن أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ما زالوا يأملون في تولي شؤون الكنيسة بأجمعها، ولو أن الأرمن قد انفصلوا. وكان الأباطرة على علم بالمعضلة وبذلوا جهوداً عديدة للوصول إلى حل وسط، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتسامحوا بأمور عديدة خوفاً من أن يفقدوا عطف رعاياهم في أوروبا وفي أوروبا الغربية التي كانت خالية من البدعة والتي كان الأباطرة لا يزالون يأملون في استردادها إليهم. وفي القرن السادس فقد زعماء الدين في سوريا ومصر معظم رعويتهم الكنسية وإن ظلوا

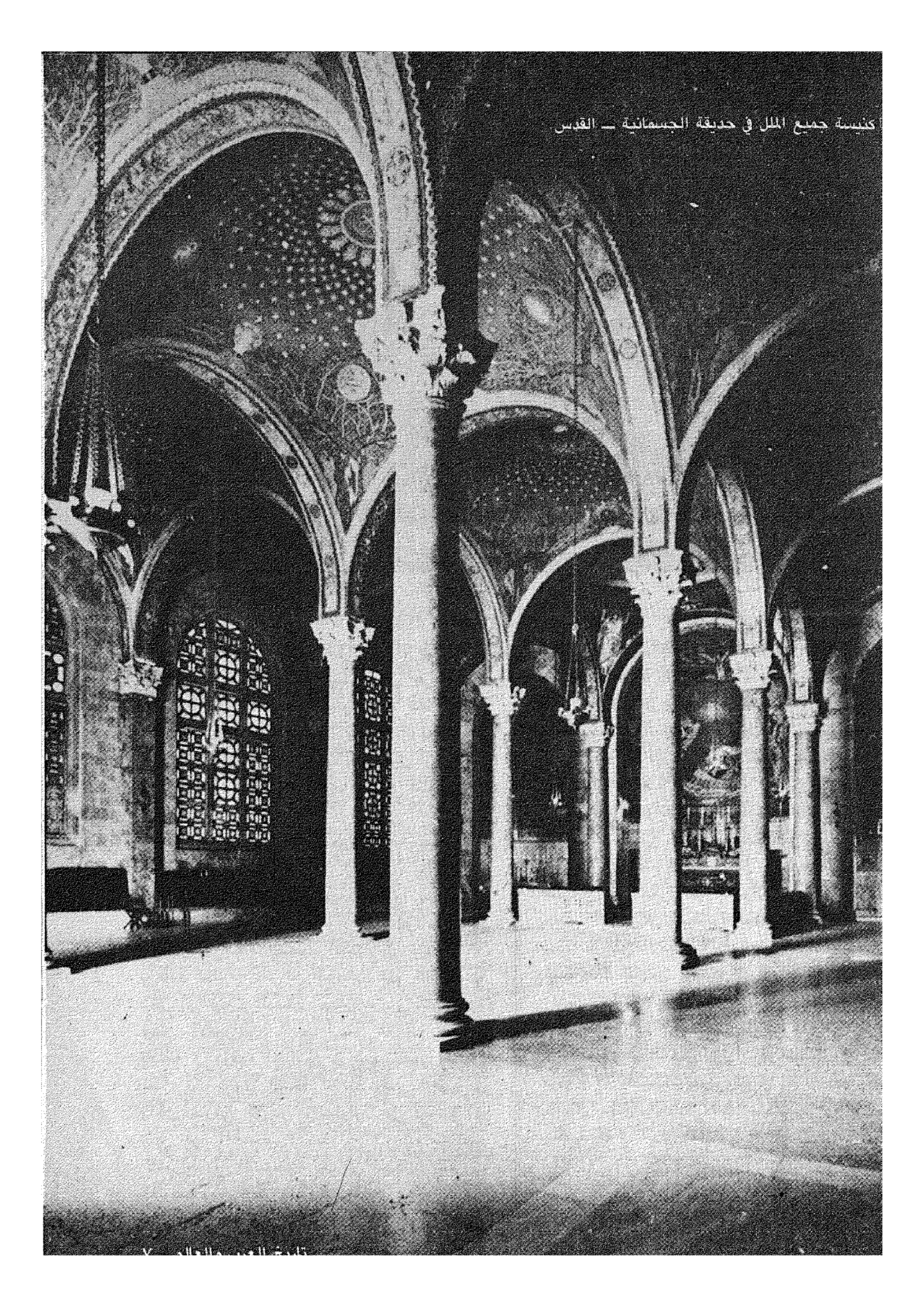
على ولائهم للديانة القويمة (الأرثوذكسية). ونظم المنشقون لأنفسهم في مصر الكنيسة القبطية، وفي سوريا انتظم المؤمنون بالطبيعة الواحدة، بمساعي رجل يقال له يعقوب البردعي، في كنيسة منفصلة تعرف عادة باسم الكنيسة اليعقوبية على اسم يعقوب المذكور[٧].

غير أن التقدم الذي أحرزته البدع في فلسطين كان أقل مما أحرزته في مكان آخر في الشرق. فإن الأباطرة، غيرة منهم وحرصاً على الدين، آثروا فلسطين بعطف خاص. فالقديسة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين كانت قد زارت البلاد لتعيين الأماكن المقدسة ــ وكانت هي بالفعل أعظم علماء الآثار القديمة قاطبة شهرة ونجاحاً ــ وكانت هي وابنها قد أقاما مؤسسات فاخرة عديدة هناك وأوقفا لهما الأوقاف للانفاق عليها[٨]. وكانت الامبراطورة أودوكيا، بعد زواجها المنكود بالامبراطور ثيودوسيوس الثاني، قد اعتكفت في القدس وأنفقت من أموالها الضخمة التي كانت تجرى عليها برسم النفقة الزوجية مبالغ كبيرة على أعمال الخير والاحسان في تلك الأنحاء[٩]. وفي القرن السادس أمر الامبراطور جستنيان بإقامة عدد من الكنائس والأديرة والأبنية العامة في الاقليم[١٠]. وطبقاً للأوامر الامبراطورية ارتفع مقام أسقف القدس إلى مرتبة البطركية[١١]. ولم يكن من موجب يبعث على الظن بأن فلسطين كانت مهملة أو مستغلة، خلافاً لأجزاء أخرى من سوريا. ثم إن كنيسة القدس كان يحكمها سلسلة من البطارقة الذين كانوا على جانب غير معهود من المقدرة وعلى جانب عظيم من الاستقامة في الدين، وكان خاتمتهم البطريرك سفرونيوس «حامي الايمان المعسول اللسان» الذي جار عليه القدر وحتم عليه بأن يسلم مدينته إلى المسلمين[١٢].

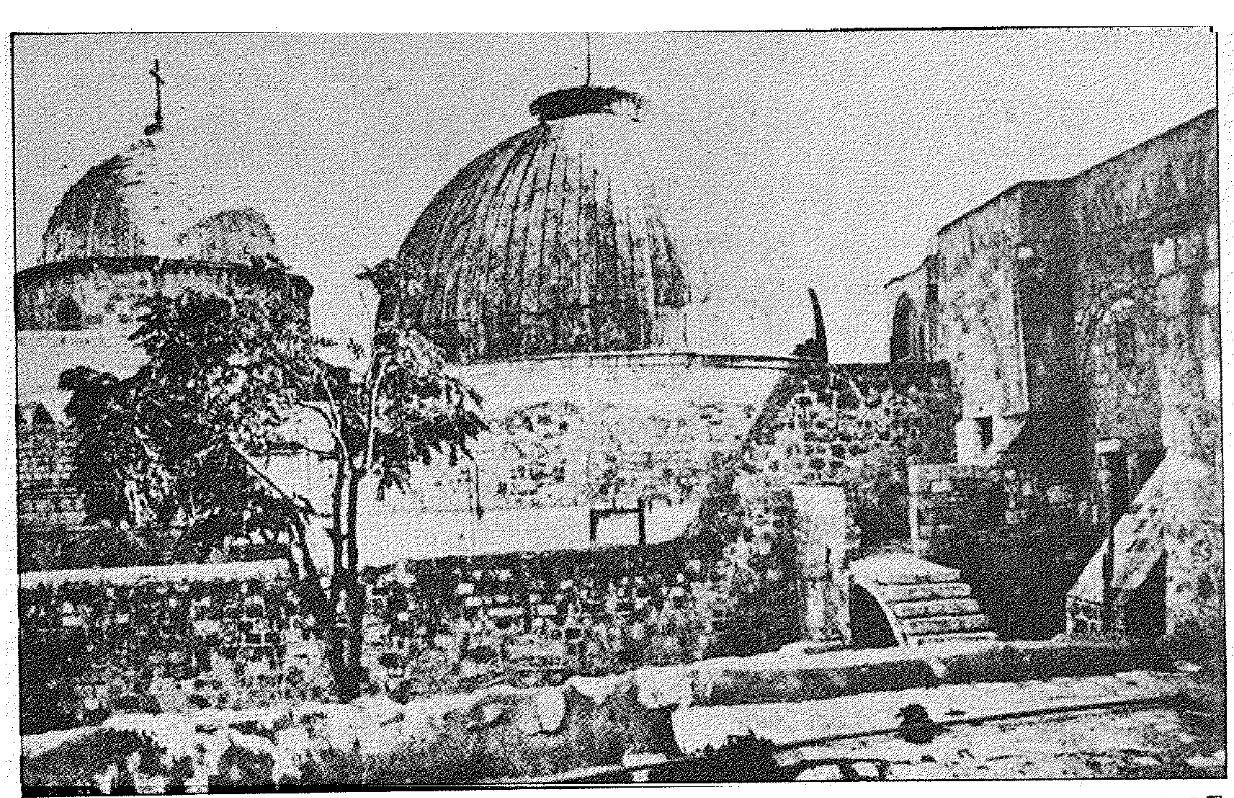
وكانت إحدى الشكاوى للمنشقين في سوريا ومصر تدور حول اللغة. فالكنيسة القويمة (الأرثوذكسية) لم تكن تستنكر في زمن من الأزمان استعمال اللغة الدارجة في الصلوات، بينما أصبحت الكنيسة في الشرق كنيسة تتكلم اليونانية وأصبحت صلواتها باللغة اليونانية. وحالما قطع الأقباط في مصر أنفسهم وانفصلوا عن الكنيسة الأصلية أدخلوا صلوات لهم باللغة المصرية القبطية كما أدخل اليعاقبة والنساطرة صلوات بالآرامية، أو السريانية كما كانت عادة تسمى اللغة الآرامية المتأخرة. ولا نستطيع أن نقول إلى أي حد كانت هذه الشكوى لها ما يبررها، غير أننا نعلم مما ذكرته سيدة حاجة من الغرب في نهاية القرن الرابع أنه كان في القدس على الأقل كاهن يتكلم السريانية يقف بجانب الأسقف وهو يقوم بالخدمة الدينية، ولو أن الصلاة كانت باليونانية، ليترجم الانجيل والوعظة الدينية إلى اللغة السريانية من أجل أولئك المتعبدين في الكنيسة الذين لا يعرفون اليونانية[١٣].

وفي هذه القرون انتشرت الديانة المسيحية حتى امتدت إلى الجزيرة العربية نفسها. وكانت توجد كنائس تدين بمذهب الطبيعة الواحدة متوغلة في الجنوب حتى اليمن: والنبي كما يظهر كان على علم بعقائد أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة. ثم إن كثيراً من القبائل العربية التي ارتحلت إلى الشمال حتى مشارف الهلال الخصيب اعتنقت الديانة المسيحية، ونخص بالذكر منها قبيلة تغلب على حدود ما بين النهرين وقبيلة الغساسنة على الحدود السورية، وكلتاهما كانت متنصرة بأجمعها وتابعت أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة على بدعتهم. وكان أيضاً عدد من الأفراد العرب من الصحراء قد استقروا في داخل الأراضي الزراعية واعتنقوا بحكم الطبيعة والعادة ديانة مجاوريهم هناك، وبذلك زادوا من نسبة الدم العربي في المسيحيين من أهل البلاد. ومن السائغ أن نفترض أن المسيحيين الساكنين فيما وراء الأردن كانوا ولا يزالون من أصل عربي ليس فيه مزيج يذكر من أصل غريب[١٤].

واحتلال الفرس لفلسطين في السنين الأولى من القرن السابع أنزل بالإقليم ضرراً مادياً عظيماً. فقد وقعت في المسيحيين مذبحة كبيرة عقب استيلاء الفرس على القدس سنة ٦١٤. وقيل إن الذين هلكوا بلغوا خمسين ألفاً، وهو عدد تظهر فيه جلياً المبالغة الفاحشة، لأن من المشكوك فيه في ذلك الزمن أن يكون في القدس خمسون ألفاً جمعاً وعدّاً. ولا شك أن المسيحيين عانوا مشقات عظيمة أثناء حكم الفرس الذي دام خمس عشرة سنة، بينما كان اليهود يشجعون على المجيء إلى



كنيسة جميع الملل في حديقة الجسمانية ـ القدس



□ قبتان لكنيسة القيامة ــ القدس.

المدينة المقدسة والاستقرار فيها، بل إنهم اعتبروا بالفعل أنهم المسؤولون عن بعض المذابح. ولم يعد الحكم المسيحي إلا سنة ٦٢٩، وأصبح في الامكان حينئذ معاقبة اليهود على الجرائم التي عزيت إليهم. ولكن قبل أن يتمكن الاقليم من استعادة الرخاء فيه أتاه غزاة جديدون(١٥).

كانت توجد حتى قبل الحروب الفارسية علائم شؤم تنذر بأن العرب من الجنوب، بدافع من روح الدين الاسلامي الجديد، كانوا سينهالون على العالم المسيحي الشرقي وتتدفق جموعهم فيه. وكان بدء الهجوم الكبير في سنة ٦٣٤ بزعامة الخليفة عمر بن الخطاب. ففي تلك السنة دخل إلى جنوب فلسطين جيش عربي كبير وهزم جيش الامبراطور الذي أرسل لملاقاته هزيمة فادحة في موقعة اجنادين في شهر تموز (يوليو) سنة ٦٣٤. وفي السنة التالية تقدم العرب في داخل شرقي الأردن واستولوا على دمشق في شهر آب (أغسطس) سنة ٦٣٥. ولم تستطع الامبراطورية المسيحية، بعد أن أنهكتها الحروب الفارسية، أن تفعل شيئاً يذكر. وقد جمع من هنا وهنا جيش لمواجهة الغزاة، ولكنه هزم هزيمة منكرة في موقعة اليرموك في شهر آب (أغسطس) سنة ٦٣٦، ويعزى ذلك إلى حد بعيد إلى انتقاض الجنود المرتزقة العرب المسيحيين من الغساسنة ــ فإنهم بحكم كونهم من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، كانوا يكرهون الامبراطور، واتفق أن أعطياتهم كانت قد استحقت ومضى على استحقاقها زمن طويل. ومكن هذا النصر المسلمين من بسط سلطانهم على فلسطين، وتجمعوا أمام أسوار القدس في أوائل سنة ٦٣٧. وكان البطريرك سوفرونيوس، بعد أن خذله موظفو الامبراطورية العلمانيون، قد أصلح تحصينات القدس. وظلت القدس مستعصية على المسلمين اثني عشر شهراً. ولكن الأقوات والمؤن في داخل المدينة كانت قد نفدت، وانقطع الأمل من الغوث أو النجدة. وفي شهر شباط (فبراير) سنة ٦٣٨ استسلم سوفرونيوس إلى الخليفة، وفي خلال سنة واحدة كانت فلسطين وسوريا بأجمعهما في أيدي المسلمين(١٦).

ويقال إن عمر بن الخطاب عقد عهداً مع المسيحيين وغيرهم من الذميين أو أهل الكتاب

الذين أقرهم النبي على دينهم، وهم النصارى واليهود والسامريون والمجوس والصابئون. وليس لهذا العهد أصل موجود، ولكن يظهر أن الفقهاء المسلمين كانوا يحبون أن يذكروا ما كان يجب أن يتضمنه هذا العهد في رأيهم. ولذلك نجد لدينا صيغاً متغايرة له، وليست واحدة منها صحيحة، ولكنها جميعها متفقة على الأمور الأساسية. فكل جماعة تابعة لدين من الأديان اعتبرت «ملة» ــ باستعمال الكلمة الفارسية، لأن الفرس هم الذين ابتدأوا هذا النظام ــ تحت زعامة رئيس ديني يكون مسؤولاً أمام الخليفة عن حسن سلوك رعاياه. ولكل ملة أن تحتفظ بأماكن العبادة وبالشرائع الخاصة بها فيما يتعلق بأفرادها. أما المنازعات والخصومات مع المسلمين وحوادث الاجرام ضد الدولة فالفصل فيها يكون بحسب الشريعة الاسلامية. والجرائم التي تقترف ضد الدولة وتكون عقوبتها الاعدام هي: المسبة، من اي نوع كانت، للدين الاسلامي أو للنبي أو للقرآن، ومحاربة المسلمين أو التآمر عليهم من أجل دولة من الكفار، وقتل مسلم أو مسلمة، وسلب المسلم على الطريق العام، وإغواء امرأة مسلمة على الفجور، وحمل المسلم على اعتناق دين غير الاسلام أو محاولة ذلك. وسمح ببناء أماكن جديدة للعبادة ما دامت هذه الأماكن متواضعة ولا تعلو على أقرب مسجد منها. وكان لكل ملة لباس خاص بها يميزها عن غيرها، ويجب على كل فرد من أفراد الملة أن يلبسه. وفرض على كل ذمي بالغ أن يدفع الجزية وهي خراج الرأس. وقد حافظ أهل الصلاح من الحكام المسلمين على احكام هذا العهد؛ ولكن لو اختارت الدولة أن تتجاهل نصوصه لما كان للذمي سبيل لرفع هذا الحيف عن نفسه(١٧).

ونظام الملة هذا يوحد بين القومية والدين ويعتبرهما شيئاً واحداً كما هو واضح من الاسم. وظل هذا التوحيد متمادياً في الشرق إلى القرون الحديثة. وقد رحبت به الكنائس المسيحية الخارجة عن الاجماع، وكانت تؤثر حكم الخليفة على حكم الامبراطور. ولم تجر في ذلك الوقت أي محاولة للتدخل في عقائد المسيحيين أو عاداتهم الخاصة بهم، والضرائب التي كان يقتضيها الخليفة حتى مع الجزية كانت أقل بكثير من التي كان يقتضيها الامبراطور. واكتفى المسلمون بأن تركوا للرؤساء الدينيين المسيحيين، وهم البطريرك اليعقوبي في أنطاكية وبطريرك الأقباط في الاسكندرية وجاثليق الأرمن والنساطرة، أن يتولوا إدارة شؤون رعاياهم وأن يتفاوضوا مع الخليفة نيابة عنهم. ولكن المسيحيين القويمي الايمان (الأرثوذكس) كانوا في وضع غير ذلك؛ والمسيحيين في فلسطين كانوا جميعهم تقريباً من قويمي الايمان. وكان لهم رؤساء إداريون محليون، وهم بطاركة الاسكندرية وأنطاكية والقدس؛ ولكن رئيس الكنيسة عندهم هو الامبراطور المسيحي، ووريث قسطنطين الذي هو بمقام الرسل، ونائب الله على الأرض. وكانوا يعتبرون أنفسهم من مواطني الامبراطورية المسيحية في دار الكفار. وقد رضي الخليفة بذلك بعد أن قبل بمبدأ التوحيد بين القومية والدين، وسمح به ما دامت الكنيسة طائعة لشرائعه ولم تتآمر بالفعل من أجل الامبراطور. وكان هؤلاء يعرفون بالملكيين، وهم قوم الامبراطور (وهو اسم يطلق الآن على الكنيسة الشرقية المتوحدة مع الكنيسة الكاثوليكية). وهذا الوضع الخصوصي الذي كان لهم أعطاهم رفعة في المقام بين المسيحيين، وأتاح لهم حامياً قوياً يستطيع أن يتداخل نصرة لهم عند الحاجة(١٨).

غير أن الخليفة، إذا أراد أن يضغط على الامبراطور ضغطاً سياسياً، كان بإمكانه أن يشرع في اتخاذ إجراءات ضد المسيحيين القويمي الايمان (أرثوذكسية) في بلاده. والمثال على الحالة التي كانت عليها الأمور هو سيرة القديس يوحنا الدمشقي. فقد كان هذا القديس سورياً من أسرة دمشقية عظيمة تعرف بآل منصور، وعمل في حداثته في بيت مال الخليفة الأموي قبل أن يعتكف في دير وينصرف إلى الخلاف حول كسر الصور والتماثيل، ذلك الخلاف الذي كان محتدماً في الامبراطورية المسيحية آنذاك. ومع أنه كان ينكر الامبراطور إنكاراً شديداً لأن الامبراطور كان من دعاة كسر الصور والتماثيل، فإنه كان إذا خاطبه كان يخاطبه بعبارة مولاي وسيدي، في حين أنه كان يقتصر في إشارته إلى الخليفة، وهو في خدمته، على كلمة «الأمير»(١٩). ثم إن الخليفة لم يعترض

حينما طلب الامبراطور التعويض في القرن الحادي عشر عن هدم الخليفة الحاكم بأمر الله كنيسة القيامة في القدس ولا حينما أصر على إرسال عمال من عنده لإعادة بناء المكان المقدس وإرسال موظفين من موظفيه لجبي «الرسوم» من الحجاج في سبيل البناء[٢٠].

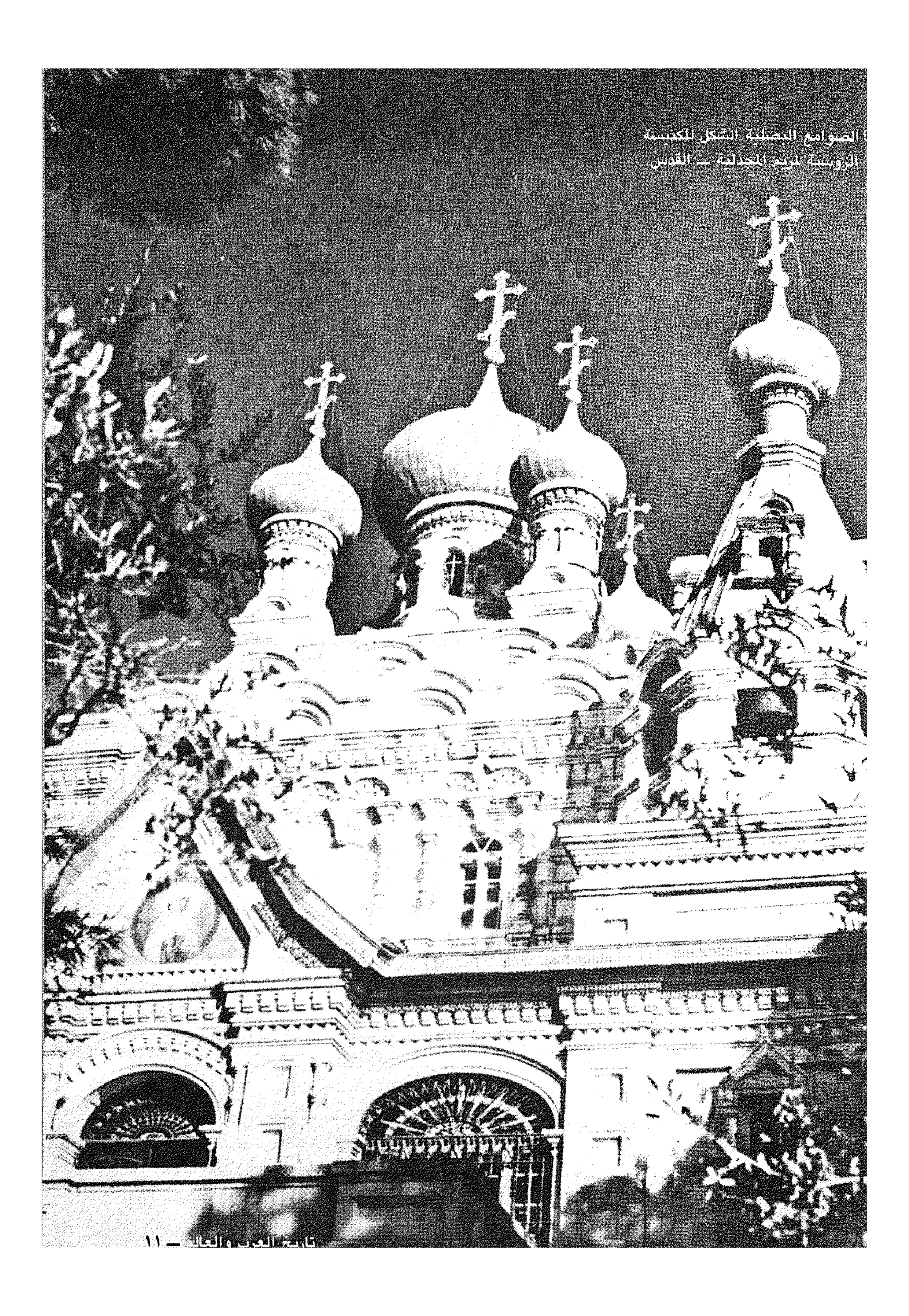
وعلى العموم فإن اضطهاد السلطات الاسلامية لهم كان ضئيلاً جداً. ولم يصب هؤلاء بأي أذى جسماني أو مادي إلا حينما كان جمهور من المسلمين، على إثر استثارة حقيقية أو مزعومة، يقوم بأعمال الشغب ضد المسيحيين، مع العلم بأن هذه السلطات كانت من زمن إلى آخر ولسبب من الأسباب تأمر بهدم الكنائس (كما فعل هارون الرشيد في نهاية القرن الثامن للميلاد والمتوكل بعده بنحو خمسين سنة). ولكن الاضطهاد على يدي الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي كان أبعد أثراً من ذلك، وقد أجبرعدداً من المسيحيين على اعتناق الاسلام. ولكن الحاكم هذا نفسه اضطهد المسلمين أيضاً لأنهم لم يقبلوا به إلاهاً، ثم عاد وسمح للذين أجبروا على الاسلام أن يعودوا إلى ديانتهم، مع التعويض.

ولا نستطيع على وجه الدقة أن نقول متى اتخذ المسيحيون في فلسطين اللغة العربية وتحولوا عن السريانية. وكان هذا التحول بطيئاً بين اليعاقبة في سوريا الذين كانت لهم صلوات بالسريانية — ولا تزال بعض الجماعات المنعزلة تتكلم السريانية. ولكن الملكيين لم يكن لديهم سبب ديني يدعوهم إلى التمسك بالسريانية. وكان أنسب لهم أن يتكلموا لغة الطبقات الحاكمة، وكان في إمكان المترجم للصلوات أن يترجم إلى اللغة العربية بالاضافة إلى السريانية. ولعل التحول كان قد تم في خلال قرن واحد بعد الفتح العربي[٢١].

وكانت فلسطين حتى القرن الحادي عشر لا تزال بلداً مسيحياً على الأكثر. وكان المسلمون متكتلين في الغالب في الجنوب حول مدينة الخليل وفي السهل الساحلي، وكانت العاصمة الادارية في الرملة، لا في القدس. ولا شك أن عدداً من السكان اعتنقوا الاسلام واندمجوا بالعرب. ولكن المسيحيين أو اليهود في القدس، كما ذكر الرحالة ناصري خسرو متأسفاً، كانوا على السواء أكثر عدداً من المسلمين. وكانت الناصرة وبيت لحم نصرانيتين بأجمعهما، وكانت صفد وطبريا يهوديتين بأجمعهما تقريباً. وكان الحجاج المسيحيون القادمون من الغرب لا يكادون يشعرون في مرورهم في فلسطين بوجود المسلمين؛ وكان العديد من الدعاة والمبشرين للحرب الصليبية الأولى يعتقدون عن إخلاص أن الذي أحال البلاد إلى أيدي المسلمين إنما هو الغزوات التركية من عهد قريب[٢٢].

وكانت الغزوات التركية في أواخر القرن الحادي عشر قد بدأت عهداً جديداً. واتصلت الحروب نحو عشرين سنة بين الأتراك والفاطميين وتبادلت الأيدي مدينة القدس عدة مرات. ولم يصب المسيحيون في هذه الحروب بأكثر مما أصيب به غيرهم، وبقي الحي المسيحي المسور سليماً لم يمسه أحد بأذى. ثم جاءت الحروب الصليبية. وأخرج الأهالي المسيحيون من القدس، ولم يخرجوا إلا حينما تقدم الجيش المسيحي الصليبي نحو القدس في سنة ١٠٩٩ — ولعل ذلك كان من حسن حظهم، لأنهم لو بقوا في المدينة لكان نصيبهم كنصيب المسلمين واليهود من المذابح التي قام بها الصليبيون احتفالاً بدخولهم المدينة المقدسة[٢٣].

ومال الأهالي المسيحيون إلى الترحيب بالغزاة على اعتبار أنهم إخوانهم في الدين. ونزح معظم الأهالي من المسلمين من البلاد، ولا سيما من المدن، وبقي خارج المدن عدد من القرى الاسلامية. وكان افتتاح الأراضي الساحلية بطيئاً، فلم يخلق طرد السكان مشكلة عاجلة للاجئين. ولكن ما أفاده الأهالي من المسيحيين من ذلك كان قليلاً جداً، فإن الوافدين الذين طرأوا حديثاً جاؤوا ومعهم أتباعهم يريدون الاستقرار في الضياع والأراضي التي كسبوها. ولم يلبث هؤلاء الوافدون حتى أبانوا عن رغبتهم في التحكم بالديانة المسيحية التي كان يمارسها أهل البلاد المسيحيون تحكماً أشد مما كان المسلمون يحملون أنفسهم عليه. ويظهر أنه كان يوجد حينئذ في كنائس القرى صلوات باللغة العربية. وكثير من هذه الكنائس أخذت من أصحابها وتحولت إلى الغزاة، وأصحاب المراتب العليا من

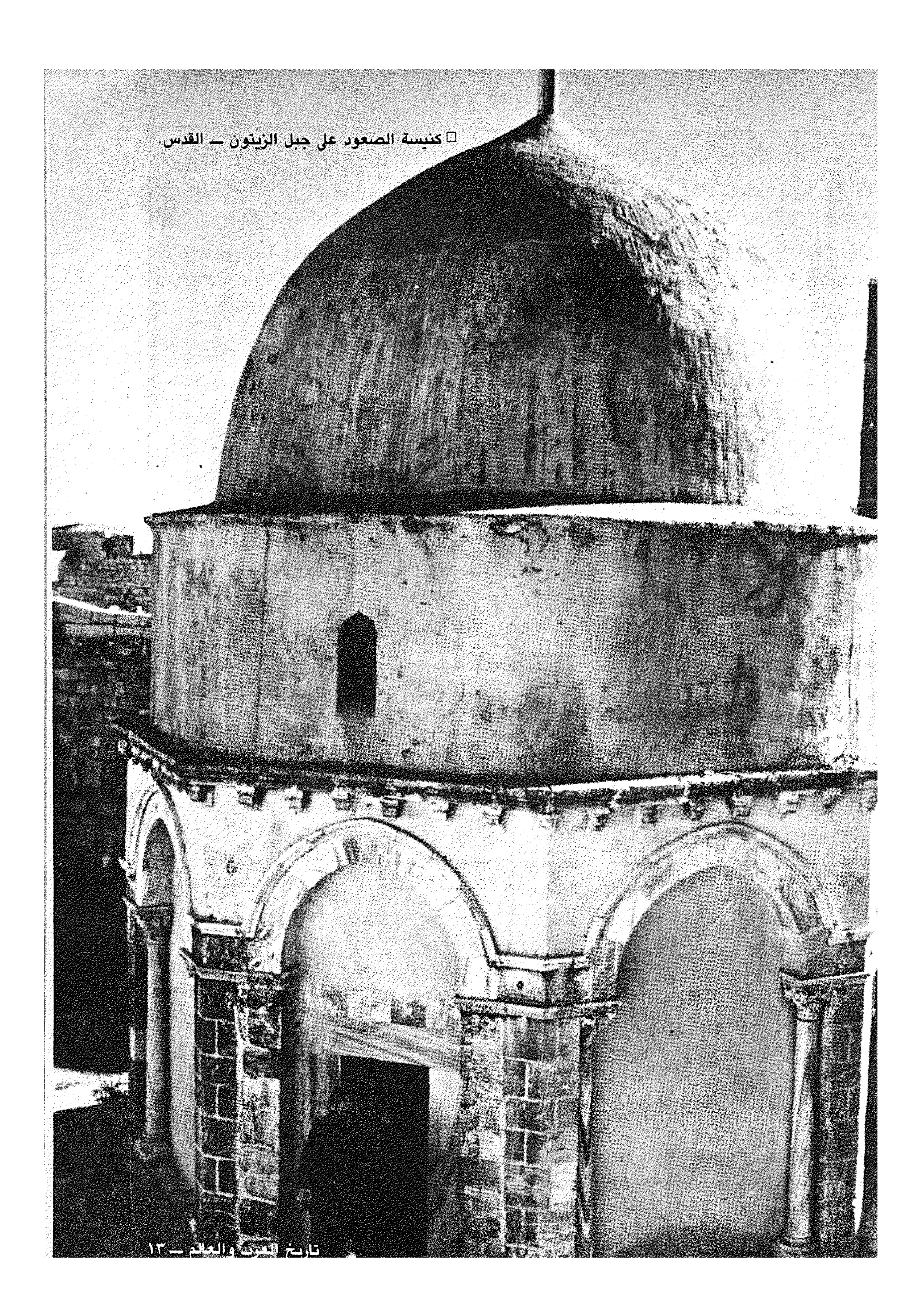


الصوامع البصلية الشكل للكنيسة الروسية لمريم المجدلية — القدس

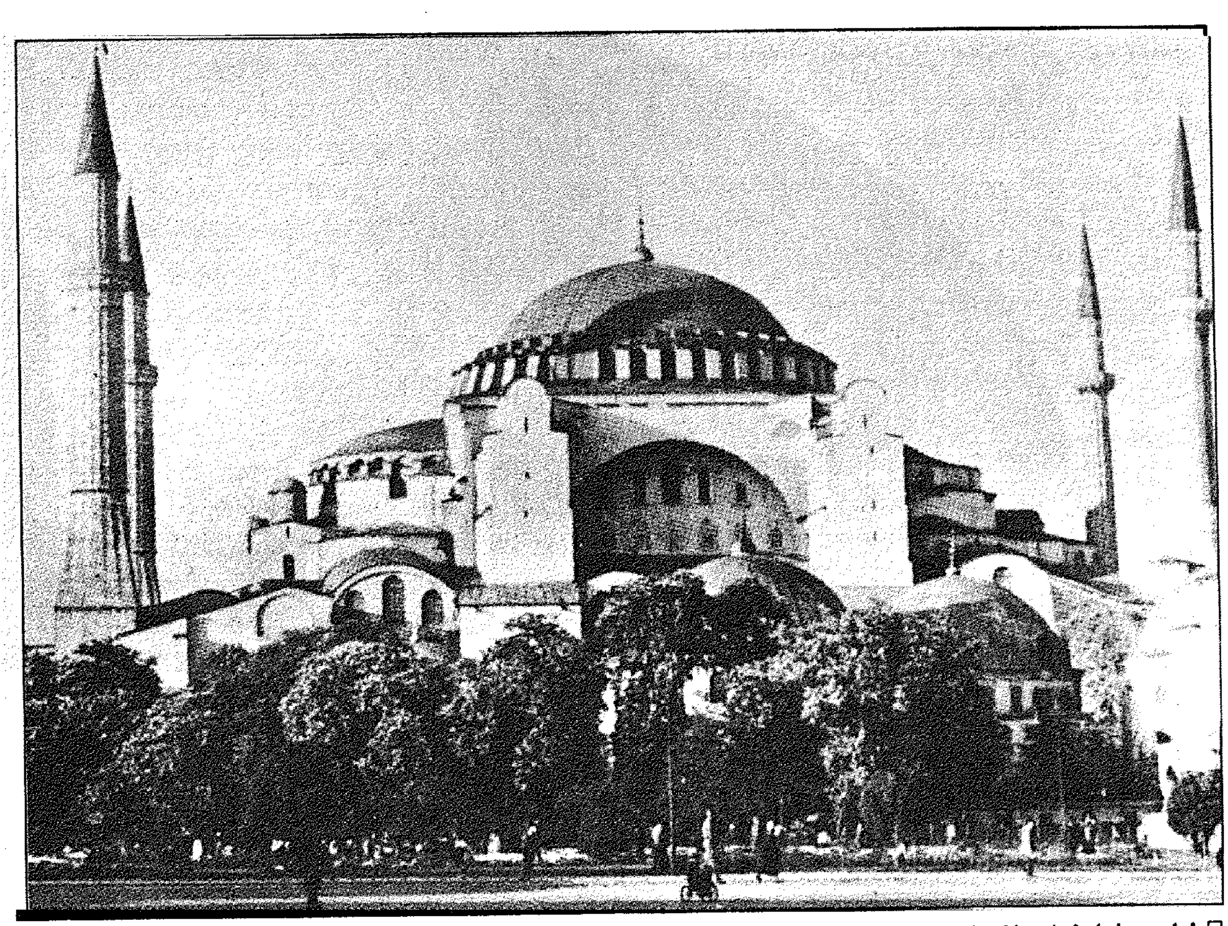
الأهالي في الكنيسة، الذين كانوا يفخرون بعلاقتهم بالامبراطورية البوزنطية وكانوا لا يزالون يجرون خدماتهم الدينية وصلواتهم باللغة اليونانية، استبدلوا بغيرهم من اللاتين، وأصر هؤلاء على ضرورة التمشي تبعاً للعقائد والمتعارفات اللاتينية. وكان لسخط الأساقفة المعزولين من مراكزهم صدى تردد في جميع الكنيسة.

ولكن العصبية القومية كانت في الوقت نفسه آخذة في النمو بين العرب. وكانت هذه العصبية عند المسلمين موجهة ضد الحكم التركي، وموجهة عند المسيحيين ضد اليونانيين. والذي ينظر من القدس من هذه المسافة يخيل إليه أن الأتراك واليونانيين كانوا في التعاون يداً واحدة، ولو أن أحداً في القسطنطينية لم يكن يرى هذا الرأي. ولذلك فإن المسيحيين من أهالي البلاد كانوا يميلون إلى التعاون مع جيرانهم العرب. وكانت الحكومة الروسية في تلك الأثناء، بحكم حرصها على إحراج الأتراك والقبض على زمام السيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية على السواء، تعمل على تشجيع هذا السخط وعدم الارتياح. فالحجاج الروس منذ قرون مضت كانوا يفدون زرافات إلى فلسطين. وكان من المعقول إذاً أن تقوم الكنيسة الروسية بتأسيس بعثة في القدس في سنة ١٨٤٢ ترأسها كاهن اسمه پروفيريوس أوسبنسكي وكان هذا، إذا تفرغ من سرقة الصحف من المخطوطات المحفوظة في مكتبة البطركية، يكون منهمكاً في تحريض المسيحيين الناطقين باللغة العربية على اليونانيين(٢٤). ومؤازرة الروس للأرثوذكس في خصومتهم مع اللاتين بشأن الأماكن المقدسة، وهي التي عملت على اندلاع حرب القرم، ساعدت على رفع هيبة الروس ومقامهم في أعين الناس(٢٥). وأثمرت ثمار ذلك كله في سنة ١٨٧٢ حينما رفض البطرك سيريل، وهو يوناني يؤمن بالفكرة الاتحادية المسكونية، أن ينضم إلى البطاركة الآخرين في استنكار ما تطالب به الكنيسة البلغارية من حقها في الحكم الذاتي. وأقيل البطرك سيريل بأمر من أخوة القبر المقدس؛ فقام الأهالي من المسيحيين وشغبوا على ذلك، ورفضوا حضور الخدمات والصلوات الدينية باللغة اليونانية واحتلوا عدة أديرة للرهبان. واضطرت الحكومة العثمانية إلى التدخل لاخماد الشغب وإلى تثبيت عزل البطرك سيريل(٢٦). وظلت العلاقات مضطربة قلقة حتى الحرب العالمية الأولى وبعدها. وفي سنة ١٩٢٥ أقامت بريطانيا، بحكم كونها الدولة المنتدبة، لجنة وضعت تواصي لها وأدرجت هذه التواصي في مسودة قانون في سنة ١٩٣٨، وأصرت هذه اللجنة على أن جميع الأساقفة وأعضاء أخوة القبر المقدس ينبغي أن يكونوا من المواطنين الفلسطينيين الذين يتكلمون اللغة العربية، وعلى وجوب إقامة مجلس يكون للعلمانيين فيه نصيب وافر من التمثيل ويكون مستشاراً للمجمع المقدس ويتولى السيطرة على جميع الأموال المخصصة للمدارس والأبرشيات الفقيرة(٢٧). وكان من الصعب إبرام هذا القانون في ذلك الوقت، وأبرمته الحكومة الأردنية في آخر الأمر سنة ١٩٥٧؛ ولكن بالنظر إلى اضطراب الأحوال في تاريخ فلسطين منذ ذلك العهد فإن الوضع في الوقت الحاضر من الناحية القضائية غير واضح(٢٨). وترينا هذه القصة أن الكنيسة الأرثوذكسية الفلسطينية هي الآن كنيسة عربية في قوامها بالرغم من الغشاء اليوناني.

والعامل الثاني الذي يجعل المسيحيين في فلسطين يشعرون بأنهم عرب هو الصهيونية. ففي تقرير قنصلي سنة ١٨٧٢ أن عدد اليهود الموجودين في القدس يقدر بضعف عدد المسيحيين (أي تقريباً ١٠ آلاف في مقابل ٥ آلاف مسيحي معظمهم من الأرثوذكس) وأن المسيحيين مستاؤون من هذا الوضع(٢٩). وفي أوائل القرن العشرين يتبين من مراسلات الزعماء الصهيونيين أن أشد ما يلقونه من معارضة هو من جانب المسيحيين المحليين. وعزوا ذلك إلى أن المسيحيين كانوا هم التجار وأصحاب المصارف والبنوك في البلاد فكانوا يخافون مزاحمة اليهود لهم. ويجب أن يتذكر المرء أيضاً أن الصلات بين المسيحيين واليهود كانت على الدوام حتى ذلك الوقت أسوأ منها بين المسلمين واليهود(٣٠). ولذلك فإنه حينما صدر وعد بلفور واتحد المسلمون في معاكسة الصهيونية كان المسيحيون يداً واحدة معهم في ذلك؛ وتوحدوا قلباً وقالباً مع العالم العربي. ونكبوا في هذا



□ كنيسة الصعود على جبل الزيتون ــ القدس.



□ ايا صوفيا في اسطنبول، جدد عمارتها الامبراطور جستنيان.

السبيل. ولعل ما أصيبوا به في سنة ١٩٤٨ في القدس كان نسبياً أعظم مما أصيب به المسلمون لأنهم كانوا طائفة أغنى من المسلمين إذا وزعت الثروة على الأفراد. وما أصابهم في سنة ١٩٦٧ ليس في مقدوري أن أقول عنه شيئاً. وكان يقدر عدد المسيحيين الأرثوذكس في فلسطين سنة ١٩٣١ بـ ٤٠ ألف نسمة، مع بضعة آلاف من الطوائف المسيحية الأخرى، وعددهم في شرقي الأردن بـ (٣٠) ألفاً. أما عددهم الآن فلا أعرفه. وكثير من المسيحيين الفلسطينيين وجدوا لهم ملجأ في لبنان. وانضم آخرون إلى سيل اللاجئين المفجع ووجهتهم إلى الشرق. وما حل بهم يدعو إلى الأسى. والعرب المسلمون يرون فيهم إخواناً وأحلافاً؛ ولو أن احتقار المسلم للمسيحي من قديم العهد طويل البقاء لا يزول بسرعة. والقوميون العرب يعترفون مخلصين بالجميل للمسيحيين من أمثال جورج أنطونيوس الذي كان من أقدر الدعاة لهم . وفي البلد السوري المجاور أعضاء مسيحيون في حكومة البعث. ولكن الدين لا يزال عائقاً، ولا يمكن أن يكون، حتى ولا الآن، اندماج بين المسلمين والمسيحيين لعدم وجود تزاوج بينهم بعد.

لقد قصصت عليكم قصة طويلة. حدثتكم عن شعب تحدر من سكان فلسطين القدماء اليهود والكنعانيين والموآبيين والفلسطينيين، وصلح حاله بمزاج من دم العرب الذين تسربوا من الصحراء في أيام ما قبل الاسلام ومن دم الصليبيين في القرون المتأخرة بعد ذلك، وحافظ باعتزاز على شخصيته أولاً بكونه طلائع للعالم الروماني الشرقي العظيم في بوزنطية ثم بكونه طلائع لملة الروم التي عقبت ذلك. ولكنه، رغماً عن الغشاء اليوناني، يعتبر نفسه منتمياً إلى الأرض التي يعيش فيها والتي يتكلم لغتها؛ وبما أنه يعتبر تلك الأرض أرضاً عربية فإنه يعتبر نفسه عربياً. لقد كان لهذا الشعب نصيب جائر في التاريخ يستحق منا عليه العطف والاحترام. ●

المراجع

(1) For the Arab Christians' identification of themselves as forming part of the Arab world see G. Antonius, *The Arab Awakening,* (London, 1938) passim. George Antonius was himself a Christian.
(2) See F. Cumont, «The Frontier Province of the East», Chap. XV in *Cambridge Ancient History,* Vol. XI, (Cambridge, 1936) esp. pp. 613 ff.
(3) See A. H. M. Jones, *The Herods of Judaea,* (new edition, Oxford, 1967) pp. 15-61.
(4) See article «Aramaeans», by R.D.B. (Barnett), in *Encyclopediá Britannica,* 1963 edition, Vol. II, p. 208.
(5) The story of the early Church of Jerusalem and of the effects of the Jewish War is discussed at length in S. Brandon, *The Fall of Jerusalem and the Christian Church,* (London, 1961).
(6) The best account of the causes and spread of the heresies of the fifth century is given in A. Fliche and E.V. Martin, *L'Histoire de l'Eglise,* (Paris, 1934: in progress) Vols. IV and V, esp. Chàpters by A. Bardy and L. Bréhier.
(7) See E. Amann, article «Nestorius», and M. Jugie, article «Monophysitisme» in A. Vacant and E. Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique,* (Paris, 1899-19): N. Zernov, *Eastern Christendom,* (London, 1961) pp. 58-71: A.S. Atiya, *A History of Eastern Christianity,* pp. 175-184, 249-252.
(8) Eusebius of Caesarea, *Vita Constantini,* extracts ed. and trans. J.H. Bernard in *palestine pilgrims' Text Society,* Vol. I, pp. 1 ff. (London, 1896).
(9) J.B. Bury, *A History of the Later Roman Empire,* (London, 1923). Vol. II, pp. 225-231.
(10) Procopius of Caesarea, *De Aedificiis,* (The Buildings of Justinian) ed. and trans. A Stewart,in *Palestine Pilgrims' Text Society,* Vol. II (London, 1896) pp. 138ff.
(11) S. Vailhé, «L' Erection du Patriarche de Jérusalem en 451»: *Revue de l'Orient Chrétien.* Vol. IV, (Paris, 1896).
(12) See article «Sophronius» by G. Bardy in *Dictionnaire de Théologie Catholique,* (ed. A. Vacant, E. Mangenot and others), Vol. XIV, ii, cols. 2379-83.
(13) «Pilgrimage of St. Silvia of Aquitaine», ed. and trans. J.H. Bernard, *Palestine Pilgrims' Text Society,* Vol. I, (London, 1896) p. 134. The lady pilgrim was in fact quite certainly not St. Silvia of Aquitaine but was probably called Aetheria.
(14) See H. Lammens, *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire,* (Beirut, 1928) pp. 1-50: E. Nau; *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIe, au VIIIe, Siècle,* (Paris, 1933) pp. 91-4.
(15) S. Runciman, *A History of the Crusades,* Vol. I, (Cambridge, 1951) pp. 10-12, giving sources.
(16) *Ibid.,* pp. 13-17.
(17) A. S. Tritton, *The Caliphs and their Non-Muslim Subjects,* (Oxford, 1930) pp. 5-17: L. E. Browne, *The Eclipse of Christianity in Asia,* (Cambridge, 1933) pp. 28-47.
(18) S. Runciman, »The Byzantine «Protectorate» in the Holy land», *Byzantion,* Vol. XVIII, (Brussels, 1948) pp. 207-213.
(19) *Ibid.,* p. 213.
(20) *Ibid.,* Loc. cit.
(21) It is impossible to give an exact date for the adoption of Arabic in place of Aramaic (Syriac) by the Orthodox Christians of the East. The change-over was certainly complete by the time of St. John of Damascus, a century after the Arab conquest.
(22) Nasir-i-Khusrau, «Diary of a Journey through Syria and Palestine», trans. G. Le Strange, *Palestine pilgrims' Text Society,* Vol. IV, (London, 1896) p. 59. The Arab Mukaddasi, writing about the same time, says that the scribes and physicians in Palestine were all Christians, while the tanners, dyers and bankers were Jews. Mukaddasi, «Description of Syria», trans. G. Le Strange, *op.cit.,* p. 137. See also G. Le Strange, *Palestine under the Moslems,* (London, 1890) p. 86.
(23) Runciman, *A History of the Crusades,* Vol. I, pp. 75-6, 279-280.
(24) Bertram and Young, *op.cit.,* pp. 25-6.
(25) For the Crimean dispute see Moschopoulos, *op.cit.,* pp. 215ff. The Orthodox had been given complete charge of the rebuilding of the Church of Holy Sepulchre after the fire in 1808. See Bertram and Young, *op.cit.,* p. 68.
(26) Bertram and Young, *op.cit.,* pp. 26-7. For the Organic Statute of 1875, which resulted from these events, see Moschopoulos, *op.cit.,* pp. 315-6.
(27) Bertram and Young, *op.cit.,* Introduction, pp. 1-24.
(28) Moschopoulos, *op.cit.,* p. 343. See also A. Deardon, *Jordan,* (London, 1958), pp. 192-3.
(29) Consular report cited in *Encyclopedia Britannica,* 9th edition, (London, 1875-89) article «Jerusalem».
(30) Yaacov Ro'i «The Zionist Attitude to the Arabs», *Middle Eastern Studies,* Vol. IV, No. 3, (London, 1968) pp. 198ff. esp. pp. 206, 212-3, 224.

المدرسة عبر التاريخ

د. نقولا زيادة

يتابع الدكتور نقولا زياده في هذا المقال تاريخه لتطور المدرسة كمؤسسة تعليمية؛ فبعد أن وضع الأساس في المقال الأول ينتقل الآن إلى الحديث عن نوع من المدرسة المتخصصة وما يشبه ذلك. ومن هنا كان المقال يتناول المدرسة البلاغية عند الرومان وشبه الفلسفية في بيزنطية ومدرسة الحقوق في بيروت، التي كان لها شأن كبير في تطوير الفكر القانوني في الامبراطورية الرومانية. وقد كان لأساتذتها دور في تنظيم مدونة جستنيان القانونية.

٤ المدرسة عند الرومان

إن التجربةَ التاريخيةَ عند الرومان تختلفُ عن الذي عرفه اليونانُ في تاريخهم. فالرومان لم يكادوا يظهرون على مسرحِ السياسةِ العالميةِ حتى أخذوا بالتوسعِ في إيطاليةَ أوّلًا ثُمَّ خارجَها حتى انتشرت سيطرتُهم على حوض البحر المتوسط وتجاوزته في نقاطٍ متعددة. وهذه الامبراطورية التي بناها الرومانُ عبرَ قرون، أثَّرتْ في تطور مجتمعهم ونظرتِه إلى الحياة. وكأن ارتباطاً عضوياً قام بين الامبراطورية والمجتمع. فنظرةُ مجتمعِ روما في القرن الخامس قبل الميلاد كانت تختلفُ عن نظرةِ مجتمعِ روما الامبراطوريةِ في القرنِ الأولِ للميلاد. وإذا كانت المدرسةُ في الجماعاتِ المتحضرةِ ترتبطُ بالمجتمعِ وحاجاتِه، فمما لا شك فيه هُوَ أنَّ التحدثَ عن المدرسة عند الرومان يقضي منا إما أن نستعرضَ تاريخَ المدرسة أو أن نكتفيَ بعصرٍ واحدٍ للدلالة فقط. والأمر الأول لا يتسع له الوقتُ، فلا مناصَ لنا من الاكتفاء بفترةٍ واحدةٍ من التاريخِ الروماني ولنأخذْ العصرَ الامبراطوري الأول.

ولكن لا بد لنا من ان نذكِّرَ أنفسنا بأن فكرةَ المدرسةِ والتعليمِ المنظمِ استعارتْها روما من اليونان ومن هنا نجدُ آثارَ الثقافةِ والتربيةِ اليونانيةِ واضحاً في المدرسةِ الرومانيةِ. وما يصحُّ أن يسمَّى النظامَ التعليمي عند الرومان كان نتيجةَ أعمالٍ فرديةٍ أو إقليميةٍ دون أن تكونَ الدولةُ العاملَ الفعالَ في خلقِ هذا النظام.

ويبدو انه كان عند الرومان ثلاثُ درجاتٍ من المدارس: أوّلُها المدرسةُ الابتدائيةُ وهي التي سماها الرومانُ انفسَهم «لَوْدُوس». في هذه المدرسةِ كان الصغارُ يتعلمون القراءةَ والكتابةَ والحسابَ البسيطَ وشيئاً من التاريخِ والأدب، قصةً وشعراً. وكان الطلابُ يذهبون إلى هذه المدارسِ في السابعةِ من أعمارهم. ومع أن الأصلَ في تعلمِ القراءةِ والكتابةِ والأدبِ كان أعمالَ الكُتّابِ اللاتين أنفسِهم، فقد كان ثمةَ ترجمةٌ لاتينيةٌ للأوديسي الهوميريةِ شائعةَ الاستعمالِ في المدارسِ منذ القرن الأول قبل الميلاد.

والباحثون مجمعون على أنَّ التعليمَ في هذه المدارسِ كان ضعيفاً ولم يكن المعلمون أصحابَ ثقافةٍ حسنةٍ. وقد كان النظام شديداً والعقابُ قاسياً.

كان ثمة نوعان من المدارسِ يجيئان فوقَ اللودوس أي المدرسةِ الابتدائية، وهما المدرسة الغراماطيقية ومدرسة البلاغة. والأولى كانت يونانيةَ الأصل وكان التعليمُ فيها باليونانيةِ غالباً. أما الثانية — أي مدرسةُ البلاغة — فقد كان التعليمُ يتم فيها باللغتين اللاتينية واليونانية. وكانت امهات المؤلفات هي الكتب المدرسية. فكتبُ هوميروس وفرجيل لم تكن تدرَّسُ من حيثُ انها أدبٌ فحسب، ولكن كانت تعتبر مصادرَ لدراسةِ التاريخ والجغرافيا والدين والأخلاق والعادات التي تحتوي عليها هذه الكتب. كما أنها كانت تستعملُ أساساً لدراسةِ الأسلوب في اللغتين. وكان المدرسون ينتزعون من هذه الكتب موضوعات تعطى للطلاب للكتابة فيها في سبيل التمرين.

□ اقلام حديدية استعملت في القديم للكتابة.

وقد كان الطلابُ يدخلون المدرسةَ الغراماطيقية، أي مدرسةَ النحوِ في سنِّ الثانيةَ عشرة. ولم يكن هؤلاءُ إلا في القليل من الحالات ممن تعلَّم في اللودوس الابتدائية. إذ أنَّ أكثرَ الطلابِ الذين يذهبون إلى المدرسةِ النحويةِ كانوا يتلقَّون تعليماً خاصاً على أيدي المؤدبين في البيت. وقد لا يكتفي الواحدُ من هؤلاء الطلابِ بمدرسةٍ واحدةٍ من مدارسِ النحو، بل يلتحقُ باثنتين أو ثلاثٍ، الواحدةِ تلو الأخرى. وسببُ هذا، في الغالب، شهرةُ أستاذٍ معين.

ومدارسُ النحوِ هذه كانت مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بشخصيةِ المعلمِ الذي يقومُ بالتدريس فيها، وذلك سَواءً بالمادةِ أو الأسلوب. ولعل الطريقةَ الغالبةَ كانت طريقةَ إلقاءِ المحاضرة على الطلاب.

ومدرسةُ البلاغة كان يدخلُها الطلابُ في سن الرابعة عشرة أو بعدَها بقليل. وكانت موادُّ الدراسةِ فيها تشملُ الخطابةَ والمناظرةَ والقانونَ وأمهاتِ الكتبِ الأدبية في اللغتين الإغريقية واللاتينية. ففي هذه المدارسِ كان يتدرَّبُ ساسةُ روما ورجالُ القانون فيها. والخطابةُ والجدلُ والمناظرةُ كانت أموراً يحبُّها الرومان في رجالِهم العامين. وكان الطلابُ يدرَّبون على ذلك باختيارِ موضوعاتٍ مختلفةٍ هامةٍ وسخيفةٍ، جدّيةٍ وهزلية.

وكان التاريخُ والهندسةُ والموسيقى لها في مدارس البلاغةِ نصيب.

كان الطالبُ الروماني عندما يُتِمُّ دراستَه في مدرسةِ البلاغة ييمِّمُ شطرَ الجامعة إما في أثينا أو رودس حيث يدرس الفلسفة أو في روما لدراسة القانون. على أنه كان ثمةَ أماكنُ في الامبراطوريةِ الرومانيةِ يمكن أن تُدرَسَ فيها موضوعاتٌ أخرى، فالطب كان يدرس في إنطاكية والاسكندرية مثلاً.

والجامعة في الامبراطورية وصفها سمعان بقوله:

كانت مدارسُ البلاغةِ من أشهرِ المدارسِ العاليةِ الرومانيةِ التي أنشئت لاعدادِ الشبابِ



□ العالم بطليموس الذي عاش وعمل في الاسكندرية.

الروماني للأعمالِ المختلفةِ في السياسةِ والخدمةِ العامة.

ومن العجيبِ أن مدارسَ البلاغةِ لم تنتشر تماماً إلا بعدَ انتهاءِ فترةِ الحكم الجمهوري، وحينما قلت الحاجة إلى ما تقدمه هذه المدارس.

وقد نظمت هذه المدارس في أحسن عهودها ازدهاراً وفق المثل العليا لشيشيرون كما نشرها كوينتليان في القرن الأول بعد الميلاد. وكان مفهومُ مدرسةِ البلاغةِ عند هؤلاء القادةِ هو النظرُ إليها كنهايةِ مرحلةِ التربيةِ المتكاملةِ الشاملةِ للخطيب الذي كان ينتظر له أن يحتلَّ مكاناً في الحياة العامة للدولة. ولكن في الوقت الذي وطَّدَتْ فيه المدارسُ البلاغية أقدامَها تماماً كانت الحاجةُ إلى توجيهِ مصائرِ الدولةِ عن طريقِ الخطابةِ العامةِ قد اختفت بانتهاءِ الحكمِ الجمهوري. وعلى ذلك فإن الفائدةَ العمليةَ لمدارس البلاغةِ كانت قد زالت قبل أن تبدأ هي في عملِها الفعلي.

وقد أصبحت مدرسة البلاغة في يدي

كوينتليان أكثر من مجرد مدرسة لدراسة البلاغة وممارستها، فقد اشتمل منهجُها على كلِّ المجالاتِ الكبرى للمعرفةِ كوسيلة لتكوينِ فردٍ يتميزُ بالفَهْمِ الواسعِ والحكمِ العملي الصادق. وفي أيدي علماءِ البلاغةِ في العصرِ الامبراطوريِ المتأخِرِ أصبحت دراسةُ البلاغةِ غايةً في حدِّ ذاتها، تعيش في الماضي الميت ولا تتصل بالتيارات المعاصرة للحياة. كما أن دراسة الخطابة حولت اهتمامَها من دراسةِ الموضوعِ إلى دراسة التعبير الصحيح الفصيح.

وقد لعبت بعضُ المعاهدِ العليا دوراً فعالاً في الحياةِ الفكريةِ في خلالِ فترةِ الامبراطورية. فقد أصبح الاثنينومُ كما أصبحَ غيرهُ من المعاهدِ والمكتباتِ مراكزَ للبحثِ والدراسةِ في الطبِّ والعمارةِ والهندسةِ والقانونِ والبلاغةِ والأدبِ. أما في الشرق، فقد ظلت المدارسُ في الاسكندرية وبرجاموم وإنطاكية ورودس وغيرِها من الأماكن مراكزَ يجتمع فيها العلماءُ والطلابُ سوية، ويكتشفون فيها مجالاتٍ واسعةً من العلومِ تشملُ القانونَ والطبَّ والعمارةَ والهندسةَ والرياضياتِ واللغةَ والأدبَ والفلسفةَ والدين.

٥ المدرسة والتعليم في بيزنطية

كان الصبيُّ من أهلِ الطبقاتِ العليا في بيزنطية في القرن الرابع للميلاد يبدأ بتعلمِ القراءةِ والكتابةِ في الخامسةِ أو السادسةِ من عمره. ولم يكن الوعاظُ المسيحيون يَكُفُّون عن تذكيرِ الآباءِ بأن يدركوا واجبَهم الشخصي تجاهَ أبنائهم. وكان الناسُ يستسهلون إلقاءَ مهمةِ التربيةِ على عاتقِ المربي. ولم يكونوا مع ذلك ليبذلوا عنايةً كافيةً لاختيارِ شخصٍ كُفءٍ لتلك الوظيفةِ المهمة. وفي سنِّ العاشرةِ أو الثانيةَ عشرةَ كان الولدُ يلتفتُ إلى دراسةِ النحو. وكان لعلمِ النحوِ مدلولٌ أوسعُ مما له اليومَ عندنا، إذ لم يكن يقتصرُ على تصريفِ الأسماءِ والأفعالِ وقواعدِ تركيب الجملِ، بل كان يضمُّ إلى جانبِ ذلك دراسةَ الآداب القديمة. فحين كانت العبارةُ تقرأ، كانت تُعْرَبُ وتُحَلَّلُ، وتُفَسَّرُ كلماتُها الصعبةُ والغريبةُ، وتدرسُ اشتقاقاتُها الصرفيةُ، ويفهمُ معنى ما يرمي إليه الكاتب، وتُعَرَّفُ قيمتُه الأدبية. وكانت تستعملُ لهذا المعاجم والشروحُ والكتبُ وحواشيها. وكان الطالب يبدأ بهوميروس قبل أن يمضيَ إلى دراسةِ الشعراءِ الآخرين.

وكانت الرواياتُ ـــ من محزنةٍ ومضحكةٍ ـــ تقرأُ كذلك. وفي سنِّ الرابعةَ عشرةَ أو الخامسةَ عشرةَ كان الولدُ يهجرُ النحوَ إلى البلاغة. وكان المربي لا يزالُ يصحُبُ الصبيَ إلى المدرسةِ في هذه السنِّ، بينما يحملُ له عبدٌ حقيبتَه وكتبَه الضخمةَ الثقيلة. وحتى في القرنِ الرابعِ كان الآباءُ يتذمَّرون من غلاءِ أسعارِ الكتبِ المدرسيةِ، وكثيراً ما أشارَ ليبانيوس إلى أنها كانت شيئاً ضرورياً جداً. وفي دراسة البلاغة كان الطالب يدرسُ كتبَ عدةِ مؤلفين، وأكثرُهم من كتَّابِ النثرِ، مثل ديموستين وهيرودتس وثوكديدس وايسقراط وليسياس. وكانت مؤلفاتُ ايسقراط شائعةً كثيراً، كما كان كثيرٌ من كتاباتِ ديموستين وثوكديدس يُحْفَظُ عن ظهرِ قلب.

ولم يكن الطالبُ في ذلك العصرِ مادةً سهلةَ التكييفِ بالضبطِ كما هي الحالُ اليوم. فنحن نراه يدرسُ على ليبانيوس في إنطاكية وإلى جانبِه مربيه والعصا في متناوَلِ يدِه. فأما الأستاذُ فكان يجلسُ على كرسيٍّ عالٍ في حينِ كان الطلابُ يجلسون على مقاعد واطئة. وكان معظمُهم يجيءُ من آسية الصغرى وسوريةَ وفينيقية. وقد تتسربُ إلى التمرينِ كلماتٌ أتيكيةٌ، ولا تكاد عصا الأستاذِ وسوطُه يفيدان في إبعادِها.

كانت السنةُ المدرسيةُ تبدأ في الخريفِ وتدومُ دونَ انقطاعٍ حتى بداءةِ الصيف، ثم تتبعُ ذلكَ العطلةُ وتدومُ أربعةَ أشهرٍ في فصلِ الحر. وكانت الدروس تُدْرَسُ في الصباح. كما كان الطلاب الكبار يستمعون إلى المحاضراتِ بعدَ الظهر كذلك. وفي أيامِ الأعيادِ وميلادِ الملوكِ وغيرها كانت المدارسُ تقفلُ أبوابَها، وتُقامُ مصارعاتُ الوحوشِ والألعابُ والرواياتُ في دارِ التمثيل.

وكانت جامعةُ أثينا لا تزال في القرنِ الرابعِ أشهرَ مركزٍ لدراسة البلاغةِ، وإلى تلك الجامعةِ يعزى ما كان قد بقي للمدينة من الأهمية. وفيما خلا ذلك فإنها لم تكنْ أثينا يومئذٍ أكثرَ من مدينةٍ في ولاية. وقد تبيَّنَ لشيوخِ المدينةِ أنَّ رخاءَ السكانِ يعتمدُ على وجودِ الطلابِ بهذه الجامعةِ، ولهذا كانت البلدية تدفعُ راتبَ أستاذين للفلسفة ونحويٍّ واحدٍ على الأقل، بينما كانت الحكومة تتعهد براتب أستاذ واحد للفلسفة. وكان أساتذةُ الفلسفةِ غرباء. وكان الطلابُ القادمون من نواحي الامبراطوريةِ المختلفةِ يميلون بالطبيعة إلى أن يدرسوا على أساتذةٍ من بني جِلدتِهم. وكان الأساتذةُ أعداء بعضُهم للبعض الآخرِ في كل مكان. حتى أن ليبانيوس كان يرى واجباً على طلابه أن يجعلوا عيشَ زملائه منغصاً ما أمكنَهم ذلك. وكان تلامذةُ كلِّ أستاذٍ للفلسفةِ في أثينا يكونون جماعةً متماسكة. وكانوا يرون أن الاستماع إلى أستاذٍ غيره إنما هو خيانةٌ كبيرة. وكان هدفُهم من ذلك أن يُكْثِرُوا عددَ هيئتِهم، فتزيد بذلك مواردُ أستاذِهم ويذيع صيتُه.

وكان الطلابُ يأخذون في دراسةِ الفلسفةِ في سن الثامنةَ عشرةَ أو العشرين. وكانت هذه الدراسةُ تاجَ التعليمِ في القرنِ الرابع. وكانت الحكومةُ هي التي تقومُ بالانفاقِ على المعلمين في المدنِ مثلِ الاسكندرية والقسطنطينية. أما في أثينا فقد كانت مواردُ الأكاديميةِ تزداد بما يقدِّمُه الطلابُ المتخرجون من هباتٍ، فتكفي لسدِّ حاجةِ الأساتذة. فكان هؤلاء يصبحون احراراً نتيجةً لذلك. وقد كان أرسطوطاليس يُدرسُ كمدخلٍ لدراسةِ أفلاطون. وكان فهمُ مؤلفاتِ أفلاطون يستلزمُ معرفةً عامةً بقواعدِ الرياضياتِ والهندسةِ والموسيقى والفلك. وكانت بعضُ الكتبِ الدراسيةِ التي ثبتت جودتُها بالتجربة لا تزالُ تستعمل — ومنها ما كان يرجع في تاريخِه إلى القرنِ الثاني. وهكذا فإن بروكلوس كان في القرن الخامس يحاضر عن اقليدس، مع أن كثيرين كانوا يرون أنَّ كتابَ بطليموس أوفى وأكثرَ كفاية. وكانت كتابات أرسطوطاليس وأفلاطون تقرأ على ترتيب معين.

٦ مدرسة الحقوق في بيروت

عرف الرومانُ ما تستحقهُ بيروت من الرعاية وأنها قابلةٌ للرقي فوجهوا إليها نظرَهم وأخذوا يزينونها بالبناياتِ الفخمةِ المتنوعة.

ولما صار الأمر لأغسطس قيصر خَصَّ بيروتَ بألطافٍ وهباتٍ لم يُنْعِمْ بها على غيرِها. فولى القائدَ أغريباً عليها بعد أن أزوَّجه بإبنتِه جوليا. وكان صهرُه مولعاً بالأبنية الفخمة، فلما تقلد ولايةَ بيروت شملها بسوابغِ النعم وجعلها من المدنِ الراقية، واستدعى إليها فرقتين من الجيوش الرومانية أقامتا فيها. فأضحى لها ذلكَ ميزةً على بقيةِ المدنِ الساحلية. ثم منحها اغسطس امتيازاتِ المستعمراتِ الرومانيةِ، وخوَّلَ أهلَها حقوقَ الوطنية وكان ذلك سنة ١٥ ق. م. وسماها باسمِ ابنتِه جوليا. وضرب باسمِها نقوداً بيروتية.

وجرى الحكامُ الرومانُ على ذلك في تزيينِ مدينةِ بيروت بالآثارِ الجميلة. فنصبت فيها التماثيل ونقلت إليها صورُ مشاهيرِ القدماء من

IMP
AVG
TRIB
PLEPS

□ نقوش رومانية للأبجدية بأحرف كبيرة، تعود للقرن الأول ميلادي

□ نموذجان للكتابة بالأحرف اللاتينية الدائرية، عرفت في القرن السادس ميلادي بالأحرف الأنشية.

أنحاء المملكة وشُيِّدَ فيها ٦٤ (أربعة وستون) بناء جديداً منها بنايةُ المجلس البلدي. وأقيمت في مسرحِها المشاهدُ السنويةُ فصارت الملاعبُ والأعيادُ تحاكي في بيروت مواسمَ رومة ذاتِها. وكان يُوَزَّعُ على البيروتيين القمحُ والزيتُ بسخاء حتى أُسْرِفَ في ذلك.

ومما لا شك فيه أن بيروت كانت مزدانةً في عهد الرومان بأروقةٍ مشيدةٍ على سوارٍ ضخمةٍ كانت تمتدُّ على طولِ المدينةِ وتبلغُ إلى نهرِها، فيتجولُ الناسُ في ظلِّها صيفاً وشتاء.

ومما لفت أنظارَ العالمِ الروماني إلى بيروت مدرستُها الفقهيةُ التي أحرزت لها مجداً أثيلاً يفوق مجدَ رومة والقسطنطينية عينها. قيل إنَّ اغسطس قيصر، بعد انتصارِه على أنطونيوس خصمِه في اكتيوم، اجتاز بلادَ الشامِ وأعجَبه موقعُ بيروت فأنعمَ عليها بفتحِ هذه المدرسةِ الفقهيـة. وليس لنا على ذلك بـرهان قـاطع. والمرجح أن هذه المدرسةَ أنشئت في أواخرِ القرنِ الثاني للمسيح لما صارت الدولةُ الرومانيةُ في عُهدةِ سلالةٍ تعرف بالسفيرية وكـان أول ملوكها سبتيموس سفيروس (١٩٣ ــ ٢١١م).

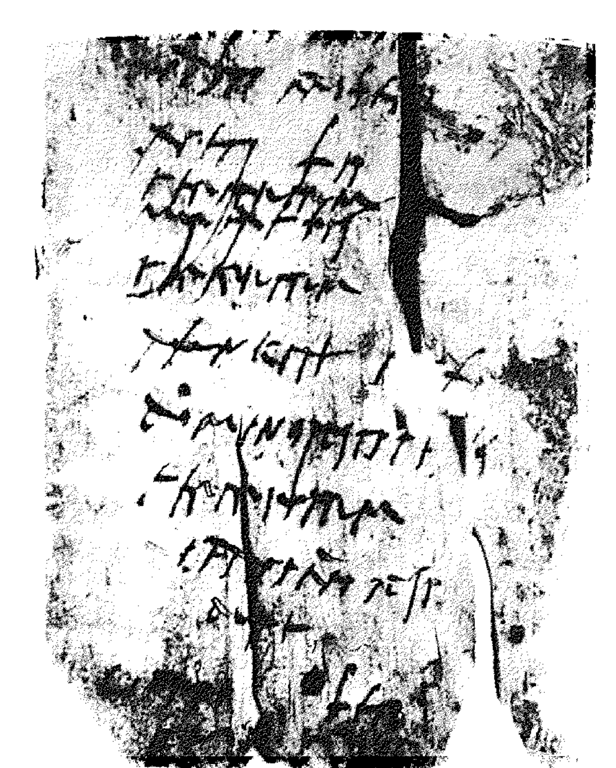
ومما لا شبهة فيه أن مدرسة بيروت الفقهيةَ كانت عامرةً في أوائل القرن الثالث. وقد شهد على وجودها أحد الجغرافيين اليونان في سنة ٢٣٩ للمسيح فقال: «**إن بيروتَ جامعةٌ لتعليمِ كلِّ الشرائعِ الرومانية**».

وقد أنشأ الرومانُ مدارسَ غيرَها في رومة والاسكندرية وفي قيسارية فلسطين وفي أثينا ثم (في القرن الرابع) في القسطنطينيـة نفسها. وإنما بيروت امتازت وبرزت وفـاقت على تلك المدارس حتى مدرستي رومة والقسطنطينية.

ولعل بعضَ فقهاءِ السوريين الذين امتازوا في المئةِ الثانيةِ والمئةِ الثالثةِ للمسيح هم الذين استوقفوا أنظارَ معاصريهم ومنهم بابنيـانوس وأولبيان وبولس الحمصي. فهؤلاء قد بلغوا ذروةَ المجد بعِظَمِ فضلِهم وسعةِ مداركهم، تشهدُ لهم بقايا عديدةٌ من مآثِرِهم صبرت على آفاتِ الدهر.

وكان ديوكلتيان أعفى دارسي الفقهِ في بيروت من الضرائبِ العموميةِ تنشيطاً لهم فراجت فيها سوقُ الآدابِ أيَّ رواج.

وممن أطنبـوا في وصفِ مدرسـةِ بيـروتِ الفقهيةِ وأثنوا عليها ثناءً جميلاً كاتبٌ لاتينيٌ وضعَ في أواسطِ القرنِ الرابعِ تأليفاً وصفَ فيه خواصَ البلدانِ عُنوانُه «**معرضُ العالمِ كلِّه**».



□ لوح خشبي، ظهرت عليه آثار كتابة بالحبر بشكل واضح ويبدو أنها كتبت بالريشة أو عود قصب.

فلما أراد تعريفَ بيروت قال: إنها المدينةُ الوافيةُ الكمالِ موقعاً وحضارة. ومن جهة الآداب العلمية ذكر «إن فيها مدارسَ لدرس الحقوق حسب الدستور الروماني، وإليها يتواردُ الطلبةُ أفواجاً من كلِّ صقعٍ ومنها يخرجُ المحامون القانونيون لمحاكمِ العالمِ كلِّه».

ولما اعتلى جستنيان العرشَ في القسطنطينية أرادَ تهذيبَ الشرائعِ الرومانية وتنظيمَها وحصرَ أبوابها، فانتدبَ نخبةً من فقهاءِ ذلك العصر ليقوموا بهذا العمل الجليل. وكان من جملتهم ثلاثةُ أساتذةٍ من مدرسةِ بيروت فساعدوه في عملِه مساعدةً هامةً وهم أوكسيوس وأناطوليوس ودوروثاوس. فأنجزوا في سنين قليلة تلك المهمةَ المعتبرةَ كطرفة ذلك العهد. وأبرزوا الدستور الروماني في كلِّ أقسامِه وفروعِه فأخرجوه في كتبِ معلومةٍ عولوا عليها في درسِ الفقه منذ ذلكَ الحين. وأحدُ أقسامِ ذلك الدستورِ المعروفِ بالمنظَّم قام به أدكسيوس البيروتي وحدَه. فعد عمل جستنيان من أخصِّ نِعَمِ دولتِه وأضحى كأساسِ الدروسِ الفقهيةِ في كلِّ الدول التي جاءت بعده، وكَرُكنِ الشرائعِ المستحدثة. وفضل بيروت ظاهر في هذا المشروع العظيم.

ثم أرى جستنيان أن يصلحَ المدارس الفقهية فألغى منها مدارسَ قيسارية وأثينا والاسكندرية، ولم يُبْقِ منها إلا ثلاثاً: وهي رومة والقسطنطينية وبيروت. وكان الملك يختار لها معلميها ويُجْري عليهم الجرايات. وكان لبيروتَ خمسةُ أساتذةٍ على عدد السنين الخمسِ اللازمةِ لاحرازِ شهادةِ الدروسِ الفقهية: لكلِّ سنةٍ أستاذٌ ولكلِّ أستاذٍ مساعدون. فيخرج التلاميذُ بعدَ أن ينالوا الشهادةَ من أساتذتِهم مستعدين لكلِّ الأمور الشرعية متقنين لحقائقِها ودقائِقها أتمَّ الاتقان.

وإن سأل سائل كيف كانت معيشة الطلبة المتقاطرين إلى بيروت من أنحاء الدولة أجبنا أنهم كانوا أحرارا، فكانوا يتفقون في الغالب مع الأهلين فيسكنون في بيوتهم ويبيتون عندهم ليلاً ثم يترددون إلى المدارس في ساعات التعليم. ولا يخفى أن تزحم الشبان المطلقي الحرية في حركاتهم وسكناتهم كثيراً ما يقودهم إلى ردغات المآثم حتى ولو كانوا من أهل الصلاح. فما ظنك بهم إن كانوا مائلين إلى الأهواء الباطلة يسعون إلى إغواء رفاقهم ولا سيما في عهد الوثنية؟ فإن الكتبة المعاصرين يدعون بيروت «مصيدة النفوس البارة» لكثرة ما فيها من دواعي الفجور. فإن هواءها الطيب وحدائقها وحماماتها ومقاصفها وملاعبها كانت مدعاة إلى اللهو وارتكاب المحرمات. وقد شبهها غريغوريوس العجائبي بساحرة تفتن عقول الأحداث وتهوي بهم إلى الفساد.

ومما أفادنا كتبةُ ذلكَ العهدِ أنَّ مدارسَ بيروت لم تكن مقتصرة على علمِ الفقه، بل كان الأحداثُ يَعْكُفون فيها أيضاً على العلومِ الأدبيةِ بفروعِها كاللغةِ والأدبِ والفلسفة. إلا أن شهرَتها في الفقهِ كان يضربُ بها المثلُ في العالمِ الروماني بأجمعِه. وبقيت مدارسُ بيروت زاهيةً عامرةً إلى أواسطِ القرنِ السادسِ حيثُ نُكِبَتْ بالزلازلِ وكوارثِ الدهر. ●

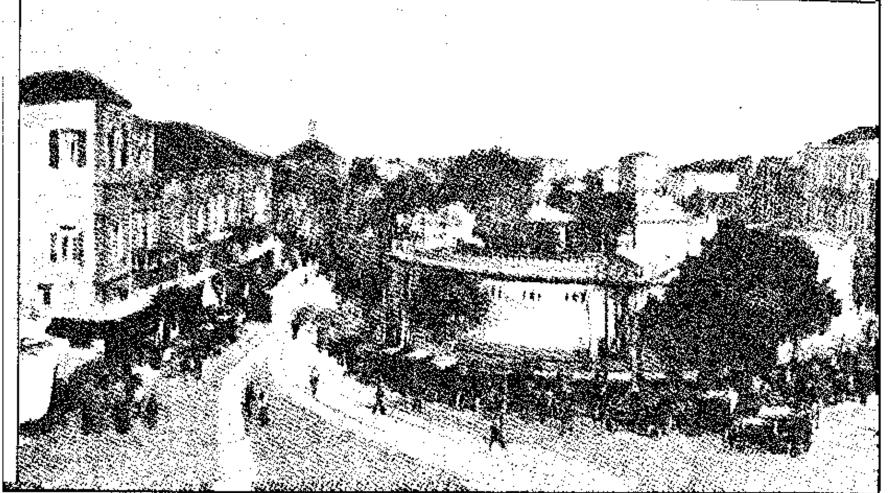
الملامح العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية في بيروت العثمانية

(في ضوء سجلات المحكمة الشرعية في بيروت)

د. حسان حلاق

تعتبر سجلات ومستندات المحكمة الشرعية في بيروت في العهد العثماني التاريخ الحقيقي للحياة الاجتماعية والاقتصادية والادارية بكافة جوانبها ونشاطاتها لمدينة بيروت ـ ولاية بيروت فيما بعد ـ ولمختلف الولايات الشامية ولمنطقة جبل لبنان، بل وجدت في هذه المحكمة مستندات عديدة تتعلق بمدن وولايات مصر واستانبول ودمشق وعكا ونابلس ومناطق عديدة أخرى.

وقد اهتمت هذه السجلات والمستندات بشؤون مختلف السكان والقضايا ولمختلف الأديان والجنسيات، ولمختلف الطوائف الاسلامية والنصرانية واليهودية، ذلك لأن المحاكم الشرعية كانت هي المحاكم الوحيدة للدولة العثمانية والتي كان يُبت فيها مختلف الأمور، وكانت هذه المحاكم تنقسم بدورها إلى محاكم منها: محكمة شرعية، محكمة استئناف، محكمة البداية، ومحكمة تمييز...



برج ساحة البرج في مطلع القرن العشرين.

على سبيل المثال لا الحصر، فإن هذه السجلات والوثائق تمدنا بمعلومات جديدة لم يسبق نشرها لا سيما وأن احداً من قبل لم يعمل عليها ـ ويعتبر الباحث أول من عمل على هذه السجلات ـ وهي تفيدنا عن أعداد وأنواع وأماكن الأوقاف الاسلامية والنصرانية مثال أوقاف الجوامع والزوايا الاسلامية وأوقاف جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت وأوقاف الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت حالياً) وأوقاف الروم والكاثوليك والموارنة وأوقاف الأمير بشير الشهابي وأولاده وأحفاده، وأوقاف آل ارسلان وجنبلاط وبيهم والحص وتويني وتيّان.

كما تمدنا السجلات بأسماء الأماكن والمناطق التي اندثرت في بيروت وسواها ولم يعد لها وجود الآن، حيث تحدد لنا: الأبراج، الآبار، أبواب بيروت وسورها، الأسواق، الأفران، البساتين والجنائن والمزارع، البحيرات والبرك، الجبانات والمقابر، الجوامع والأديرة والكنائس، والحارات والشوارع والمناطق، الحمامات والخانات، الزواريب والزوايا الدينية والتكايا، الساحات العامة والقناطر، القيساريات والمدارس والمعاصر لا سيما معاصر الزيتون، المقاهي والمرافىء والموانىء، ثم أسماء المفتين والقضاة والبطاركة والمطارنة والأئمة ورجال العلم والضباط العسكريين، وأسماء العائلات التي كانت تقطن في بيروت.

كما تمدنا سجلات المحكمة الشرعية في بيروت بأسماء المهن وشيوخ هذه المهن، وأنواع العملات المصرية والتركية والفرنسية والانجليزية، كما تصحح دراستنا للسجلات الكثير من الأخطاء الشائعة، كأن نقول اليوم منطقة ميناء الحصن وهو في الحقيقة ميناء الحسن، وكأن يقال منطقة الصور وهي منطقة السور، وكأن يقال منطقة المزرعة وهي مزرعة العرب ومزرعة قريطم ومزرعة القنطاري ومزرعة الأشرفية و...

وتمدنا السجلات بالفرمانات السلطانية وقوانين التكنات العسكرية وقوانين التجارة والجمارك والقوانين الخاصة بالأيتام، وكيفية تسجيل المعاملات الخاصة بالقناصل والأجانب في الدوائر العثمانية، وأسلوب المعاملات الاجتماعية والمالية بين التجار والمواطنين. كما تضم سجلات المحكمة المراسلات الرسمية بين الأستانة (استانبول ـ اسلامبول) وبين الولايات العثمانية، وتمدنا السجلات بأصول العائلات البيروتية واللبنانية وبجذورها وحقيقة أسمائها، فعائلة «سنو» هي في الأصل «سُنه» وعائلة «دبيبو» هي في الأصل «دبيبه» وعائلة «حنو» هي في الأصل «حنه» وعائلة «كنيعو» هي في الأصل «كنيعة»، و «عيدو» هي «عيد» و «محيو» هي «محيه» و «شبارو» هي «شباره» وعائلة بيهم هي في الأصل جزء من عائلة بيهم العيتاني الحص التي أصبحت ثلاث عائلات منفصلة، كما أن عائلة مسالخي هي ذاتها فرشوخ مسالخي، وعائلة الداعوق هي ذاتها عائلة اللبان الداعوق وعائلة مكنية هي في أصولها عائلة مكّنيها، وهناك أمثلة لا يمكن حصرها في هذا المجال.

إن سجلات المحكمة الشرعية في بيروت تعتبر من أهم الوثائق الأساسية لفترة العهد العثماني وان دراستها ونشرها وتحقيقها لن يؤدي إلى إحياء التراث العثماني واللبناني والبيروتي فحسب، بل سيؤدي إلى إعادة كتابة التاريخ وقلب المفاهيم التاريخية التقليدية، فهي وثائق ومستندات لا يمكن الطعن في صحتها مطلقاً، لأنها كانت تعبر عن واقع وحقيقة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمالية والادارية واستطراداً النواحي العسكرية العثمانية. وهي

على كل حال ليست وثائق وتقارير قنصلية أو دبلوماسية تطغي عليها الميول السياسية الخاصة، إنما هي سجل لواقع الحال ومستند يترجم أوجه الحياة العثمانية.

وفي هذا الاطار فإننا سنبدأ بدراسة الأماكن والملامح العامة ومعالم مدينة بيروت من خلال «سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة» في فترة القرن التاسع عشر، وهي على النحو التالي:

١ ـ الأبــراج

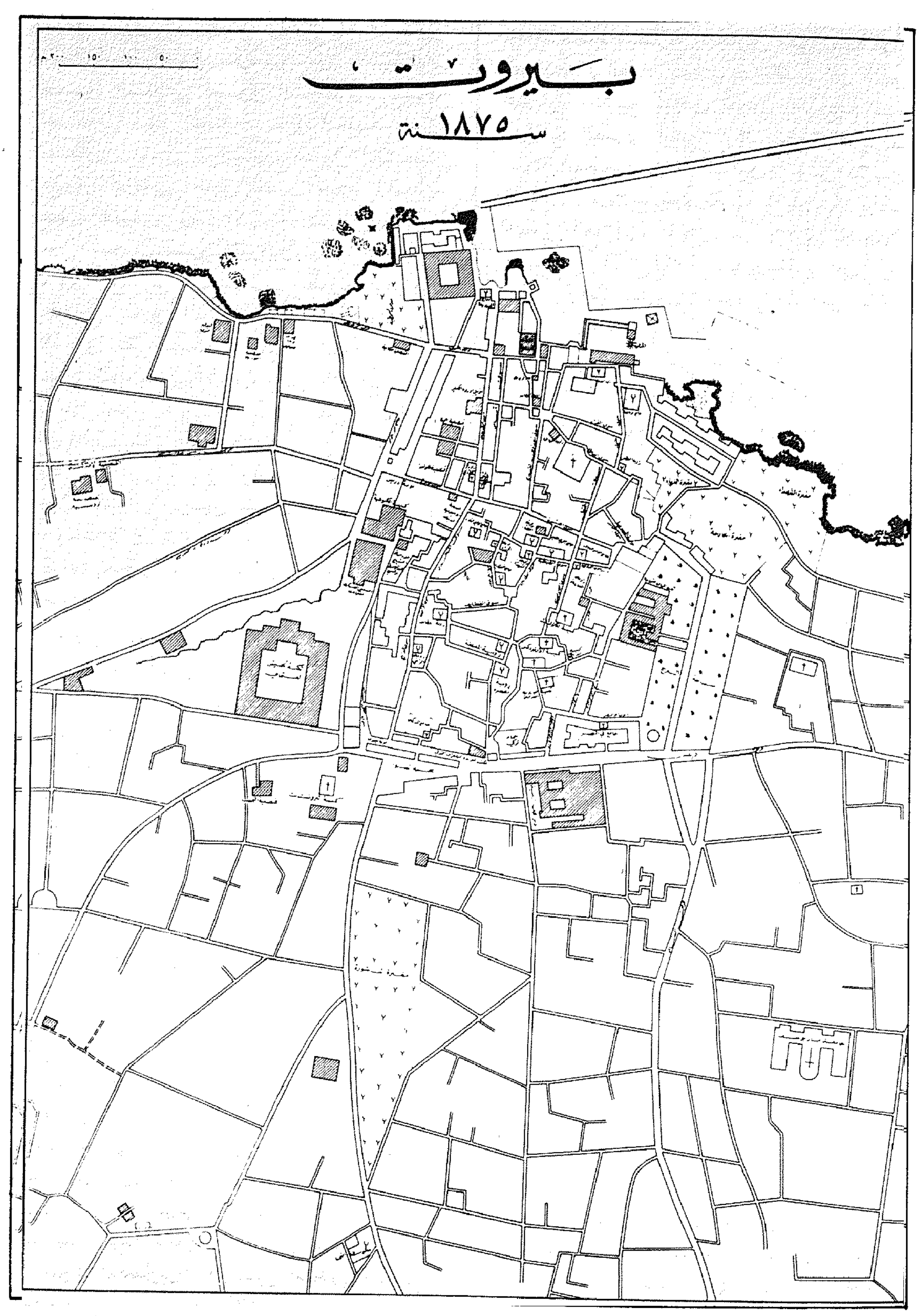
كان يتخلل جدران سور بيروت القديمة بعض الأبراج التي بنيت بهدف الاستطلاع والحماية، اهمها برج الأمير جمال الذي بني عام ١٦١٧م وبرج الفنار وبـرج السلسلة وبرج البعلبكية وبرج الكشاف. بالاضافة إلى برج الفلفول الذي وقعت عنده معركة بين القيسية واليمنية في عام ١٠٧٧هـ ـ ١٦٦٦م، وقد دعي هذا البرج فيما بعد باسم برج الشلفون بـاسم الأسرة التي تملكته في أوائل القرن الثامن عشر مع كافـة الأرض المقامة عليها بنايات العازارية في بيروت. ومن الأبراج الواقعة خارج بيروت القديمة برج الحمراء في منطقة رأس بيروت، وكـانت النار تشعل في قمته لأعلام دمشق بالتتابع بأن خطراً قادماً على ثغرها. ويرجح أن هذا البرج يعود إلى عهد الصليبيين. ومن الأبراج العاملة في حماية بيروت برج الباشوراء وهو المعروف أيضاً باسم برج العريس، ويذكر بأن هذا البرج كان يتصل بمغارة تنفذ إلى محلة المزرعة (مزرعة العرب) جنوباً. وفي عام ١٢٥٩هـ ـ ١٨٤٣م كان يوجد البـرج الجديـد في زقاق البـلاط بالقـرب من الخستة خانة الجديدة. ومن الأبراج في بيروت برج دندن الذي كان يقع غربـي كركول العبد في طريق الشـام. وهناك بـرج المصيطبـة وبـرج أبـي حيدر، بالاضافة إلى بعض الأبراج خارج بيروت منها برج البراجنة في جنوبـي بيروت وكان برجاً عاملاً ومساعداً للثغور من هجمات الأعداء، وبرج حمود شرقي بيروت وهو الذي اقامه أمراء بني حمود المغاربة الذين رابطوا للدفاع عن الثغور الشامية.

٢ ـ الأبــواب

كان لسور بيروت القديمة عدة أبواب كانت سبعة ثم أصبحت ثمانية أبواب مصفحة بالحديد تقفل عند المغرب باستثناء باب السراي الذي كان يقفل عادة عند العشاء، وهذه الأبواب هي: باب (بوابة) يعقوب، باب الدركاة، باب السراي (والمعروف بباب المصلى)، باب أبو النصر، باب الدباغة، باب السلسلة، باب السمـطية، بـاب ادريس. وكـان يمتد هـذا السور من شمـالي الساحة (ساحة رياض الصلح حاليـاً وحائـط سينما كابيتول) باتجاه الشرق حتى كنيسة مار جرجس المارونية التي تقع داخل السور، ويمتد نزولاً شمالاً إلى سوق أبـي النصر وهو سوق خارج السور (وكانت ساحة البرج ـ الشهداء هي أيضاً خارج السور) إلى أن يصل حائط السور إلى بناية دعبول تجاه جامـع السراي (جامع الأمير عساف). ثم يمتد غرباً باتجاه باب ادريس ومقبرة السمطية التي كانت خارج السور فكنيسـة الكبوشيـة التي كانت خـارج السور أيضاً، فمدرسة الشيخ عبدالباسط الأنسي فسوق المنجـدين (شـارع المصـارف حاليـاً) ويستمـر صعوداً جنوباً إلى أن يلتقي مع بدايته عند بوابة يعقوب فالساحة. وكان طول سور بيروت حوالي (٥٧٠) متراً ولا يزيد عرضه على كيلومترين. أما ارتفاع الجدران فتقـارب خمسة أمتـار، بينما سماكتها فهي حوالي أربعة أمتار. وكان يتخلل هذه الجدران بعض الأبراج بهدف الاستطلاع والحماية، كان أهمها برج الأمير جمال وبرج الفنار، وبرج السلسلة، وبرج البعلبكية وبرج الكشاف.

٣ ـ الأســواق

نشأ في بيروت القديمة العثمانية العديد من الأسواق التجارية والحرفية والصناعيـة نتيجة تطور المدينة وزيادة عدد سكانها ومن بين هذه الأسـواق: سوق أبـو النصر (اليـافي)، سـوق الأساكفة، سوق الأمير يونس، سوق البازركان، سوق البلد، سوق البوابجية، سوق بوابة يعقوب، سوق البياطرة، سوق الحدادين، سوق الخضرية (الخضار)، سوق الخمامير، سوق زاوية ومسجد



□ خريطة بيروت ١٨٨٥.

التوبة، سوق الزبيبة، سـوق الساحـة، سوق ساحة الخبز، سوق سرسق، سوق الشبقجية، السـوق الشـرعي، سـوق الشعـارين، سـوق الصاغة، السوق الصغير، سوق الطويلة، سوق العـطارين، سوق العقـادين، سـوق الفشخـة، السوق الفوقاني، سوق القزاز، سوق القـطن، سوق القهوة، سوق الكنيسة، سوق اللحامين، سوق المنجدين، سوق المغربلين، سوق النجارين، سـوق النجارين التحتـاني، سـوق النجـارين الفوقاني، سوق النورية. وبالاضافة إلى هـذه الأسواق فقد وجدت في باطن بيـروت أسواق أخرى منها: سوق الأرمن، سوق الافرنج، سوق أيـاس، سوق التجـار، سوق الجميـل، سـوق الخراطين، سوق الخياطين، سوق الدلالين، سوق الرصيف، سوق سيور (قرب سوق الافـرنج) سوق الصرامي، وسوق القطايف.

وسنعمل في هذه الدراسة على تحديد المواقع القديمة لبعض هذه الأسواق العاملة في العهد العثماني ومنها:

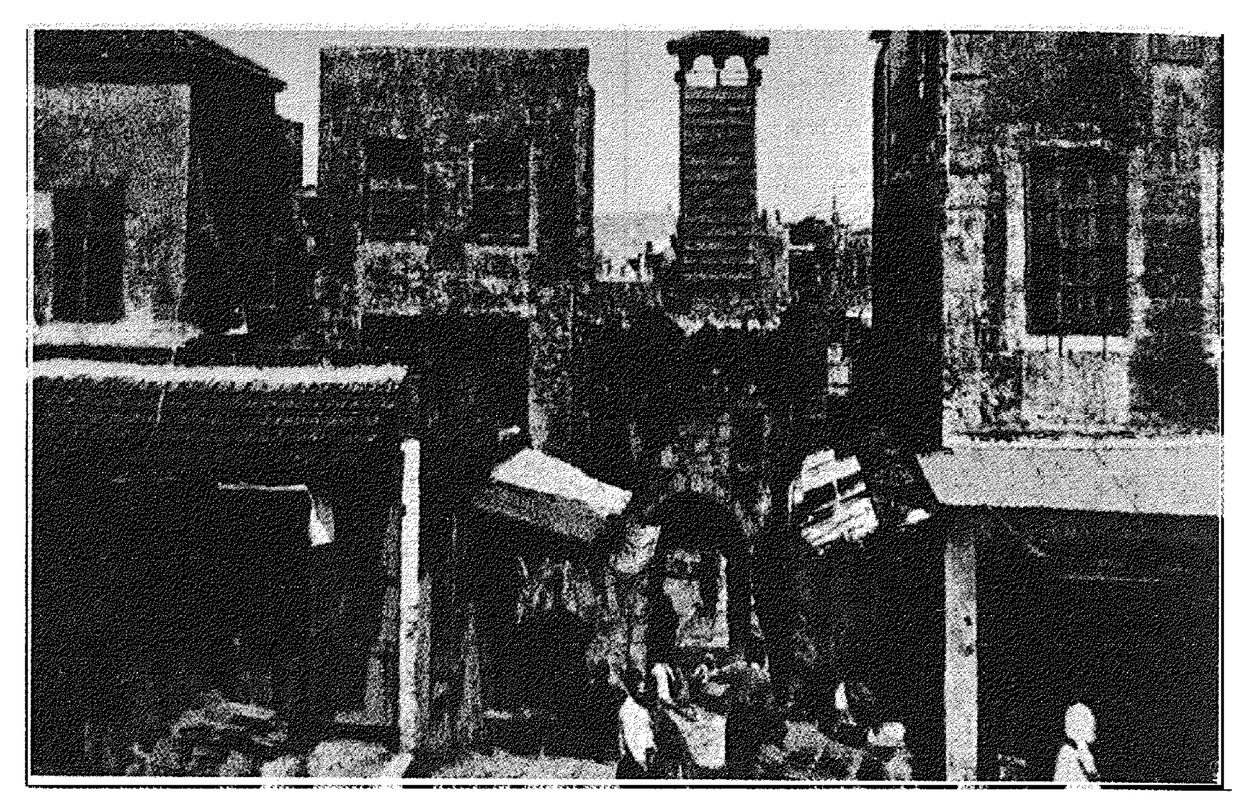
سوق الأساكفة: وكان يقع في باطن بيروت قرب الجامع العمري الكبير، بالقرب من دكان وقف «قفة الخبز» وكان يوجد في هذا السوق القهوة المعروفة باسم قهوة سوق الأساكفة. وكان هذا السوق قريباً من سوق النجارين. وكـان يتجمع فيه عمال وصنّاع الأحذية.

سوق الحدادين: كان يقع في باطن بيروت في الطريق إلى أسكلة (ميناء) بيروت، وكان مركزاً لعمل الحدادين ولوازم الحدادة، ومن ملامحه أيضاً أنه كان يوجد في آخره جرينة الحنـطة لطحن الحبوب. وكان أول سوق الحدادين من مدخل سوق البياطرة، ويلتقي سوق الحدادين بالباب الشرقي للجامع العمري الكبير حتى أول سوق اللحامين عند مدخل كاتدرائية مار جرجس للروم الأرثوذكس. كما كان يتصل بزاروب ضيق يدعى زاروب سوق النجارين الواقع بينه وبين سوق سرسق شمالاً بشرق. وكان يوجد في سوق الحدادين دور سكنية عديدة منها دار الشيخ فرح، ودور آل قباني، آل محفوظ، وآل ياسين، كما كانت توجد بالقرب منه حديقة حسين باشا.

سوق العطارين: يقع سوق العطارين غربـي الجامع العمري الكبير، وكان له قيسارية خاصة تعرف باسم قيسارية العطارين التي بناها الأمير عبدالسلام العماد. كما يوجد بالقرب من السوق قيسارية الشيخ شاهين تلحوق الموجودة قـرب الجامع العمري الكبير. وكان يقع بالقرب من سوق العطارين سوق البوابجية. وكان في سوق العطارين بركة شهيرة تعرف باسم بركة ونوفرة سـوق العطارين. أمـا رأس سـوق العـطارين الجنوبـي، فكان يقع تحديداً بالقرب من أرض بناية الوقف الماروني جنوبـي شـرقي مجلس النواب في باطن بيروت.

سوق القطن: كان يقع سوق القطن ابتداء من مخفر ميناء بيروت (الحالي) صعوداً على خط مستقيم بشارع فوش حتى بناية البلدية الثانية. وكان يتفرع من السوق ثلاثة ممرات: الأول عند مدخل جامع باب الدباغـة، والممران الآخـران يبتدئان من بناية البلدية الثانية واحد للشرق ويدعى سوق الخمامير وزاروب سابا، وواحـد للغرب يصل سوق القطن بسوق البياطرة. وكان لسوق القطن زاوية تعرف بزاوية القطن وقفها رجل من آل العريس لتكون مسجداً يـؤدي فيها تجار سوق القـطن صلواتهم. وكان يـوجد في السوق فرن سوق القطن ومعصرة سيف الدهان ومحلة تعرف باسم محلة النصارى في آخر سوق القطن. وكان أكثر مبيع القطن فيه بـالجملة، وهو يعتبر أهم أسواق بيروت القديمة.

سوق النجارين: كان موقع هذا السوق تجاه جامع السرايا (قرب سوق سرسق) وكان السوق المركزي للنجارين والأعمال المـرتبطة بمهنتهم. وكان لهذا السوق بعض الفروع منهـا سوق النجارين التحتاني وسوق النجارين الفوقاني. ومن ملامحه وجود معصرة بني السبليني في داخله وبركة سوق النجارين، وكان يقع بالقرب من هذا السوق سـوق الأساكفـة. ولا بد من الاشارة إلى أنه كان لكل سوق سيده أو شيخه وهو بمثابة نقيب لأصحاب المهنـة. ومن خلال بعض وثائق سجلات المحكمة الشرعية (السجل ١٢٨٣ ــ ١٢٨٤هـ) تبـين لي بـأن الحـاج أحمد بن محمد الحوري كان شيخ العقادين، بينما كان السيد عبداللطيف بن عباس السبليني شيخ النجارين وهكذا... في حين أشار السجل (١٢٥٩هـ ــ ١٨٤٣) إلى أنـه كـان لبيـروت



□ باب الدركة وجامع الدركة في مطلع القرن العشرين.

وأسواقها عمدة للتجار تولاها أشخاص من آل البربير وبيهم العيتاني والعريس، فقد كان الحاج أحمد بكري العريس عمدة للتجار، كما كان عمر والحاج عبدالله بيهم العيتاني عمدة للتجار في حين كان خليل وحسين جلبي البربير من افتخار التجار.

٤ ـ الأفـــران

نظراً لزيادة عدد سكان مدينة بيروت والقادمين إليها من الولايات الشامية والعثمانية عامة، فقد ازداد عدد الأفران في باطن بيروت في القرن التاسع عشر، وقد تمثلت في الأفران التالية: فرن التويني، فرن محمد حاسبيني، فرن الحشاش، فرن الحمام الفوقاني، فرن الحوت، فرن الزينية، فرن سوق القطن، الفرن القديم.

٥ ـ الأوقـــاف

اهتم المسلمون في بيروت بأعمال البر والخير وبالأعمال الاجتماعية والانسانية، وقد رأوا أن خير ترجمة لأهدافهم هي في وقف الأملاك والأموال والغلال وقفاً خيرياً عاماً على كافة المسلمين وفي مختلف المجالات. وتعتبر الأوقاف الاسلامية في بيروت وبقية المدن الشامية عريقة في القدم، ولقد رافق العمل الوقفي الفتح الاسلامي للبلاد واستمر ينمو عبر العصور الاسلامية المتعددة. وقد ساهمت ما تدره هذه الأوقاف مساهمة فعالة في تطوير البُنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية لمسلمي بيروت ولبنان. وتنقسم الأوقاف في بيروت ولبنان إلى قسمين أساسيين: الوقف الخيري العام والوقف الذري الخاص، والنوع الأول هو الأهم والأبرز والأجدى. وعلى سبيل المثال فيمكن ذكر بعض هذه الأوقاف ومنها:

وقف أكفان الموتى، وقف الامام الأوزاعي، وقف جامع الأمير منذر، وقف الجامع الجديد (وقف جامع شمس الدين) وقف جامع الدباغة، وقف جامع السرايا، وقف الجامع العمري الكبير، وقف جوامع صيدا، وقف الجبانات، وقف مصطفى محمد جبر، وقف بدرة وفاطمة عبدالقادر الجبيلي، وقف جل التين، وقف حسن آغا، وقف الحص، وقف الحاج مصطفى الحلواني، وقف الحليب، وقف يوسف حمود،

وقف الخانات، وقف محمد اللبان الداعوق، وقف رأس النبع، وقف أمين آغا رمضان، وقف زاوية البدوي، وقف زاوية التوبة، وقف زاوية الحمراء، وقف زاوية الخلع (البياطرة) وقف زاوية الدركاة (الدركة) وقف زاوية الشهداء، وقف زاوية القطن، وقف زاوية المجذوب، وقف زاوية المغاربة، وقف سبيل الجامع العمري الكبير، وقف سبيل السراج، وقف سبيل السمطية، وقف سبيل حسين الفاخوري، وقف سبيل محمود بك، وقف السكة الحديدية، وقف الشمع، وقف خديجة علي الصليب، وقف فاطمة حسين الصيداوي، وقف الحاجة طاهرة، وقف الشيخ صالح طبارة، وقف الحاج محمد آغا الطرابلسي، وقف طلبة العلم، وقف آل الطيارة، وقف عزالدين، وقف العلماء، وقف الفاخورة (وقف الابريق ــ الكاسورة) وقف الشيخ مصطفى محمد فتح‌الله الشيخ، وقف أحمد حسين القباني، وقف عائشة القباني، وقف الحاج مصطفى القباني، وقف عبدالسلام قرنفل، وقف الشيخ عبدالهادي أفندي قرنفل، وقف قريطم، وقف درويش القعار، وقف قفة الخبز، وقف الحاجة كاتبة، وقف حسين آغا الكردلي، وقف المتصوفين، وقف حمود بك، وقف المرابطون، وقف المستشفيات (الخستة خانة) وقف المقعدون، وقف المكتبات، وقف الشيخ عبدالرحيم مكوك، وقف الحاج حسن منيمنة، وقف نجا، وقف والدة بديع اليافي... كما وجدت أوقاف لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأوقاف لسيدنا سعدالدين الجيباوي والسيد محي‌الدين والسيد ركن‌الدين، بالاضافة إلى أوقاف الجلالية، والكداشية والكيلانية، والطائطاية، وبايرام بابا، وزين العابدين...

وسنشرح فيما يلي بعض أهداف وطبيعة الأوقاف في بيروت ومنها:

● وقف قفة الخبز: كان موقع «قفة الخبز» بالقرب من الجامع العمري الكبير وسوق الأساكفة في باطن بيروت المحروسة، ولها دكان خاص توضع فيه قفة مليئة بالخبز في كل يوم جمعة قبل الصلاة وبعده، حيث يقصدها المعوزون والفقراء والمساكين القاطنين في مدينة بيروت، فيوزع متولي الوقف الخبز عليهم دون منة ودون تمييز ودون إذلال ولمختلف الطوائف. وقد كان لهذه القفة أوقاف واحكار عديدة تتضمن مجموعة كبرى من الدكاكين والمخازن والبيوت، وما تدره هذه الأوقاف من أموال كانت تصرف في وجوه قفة الخبز.

● وقف الابريق: ويعرف أيضاً باسم وقف الفاخورة أو الكاسورة، وكان لهذا الوقف دكان خاص بتوزيع الأواني الفخارية في باطن بيروت، وكانت مهمة القيّم عليه إعطاء الصبي العامل في أحد المحال أو الدكاكين وعاء فخارياً سليماً مقابل الوعاء الذي يكون قد كسر معه خطأ. والحكمة من ذلك ان الصبي إذا أرسله معلمه لملء الابريق ماء، ولسبب من الأسباب كسر الابريق، فبدلاً من أن يتعرض الصبي للتوبيخ والضرب والاهانة أو الحسم من معاشه، فإن بإمكان هذا الصبي أخذ الابريق المكسور إلى وقف الابريق ــ الكاسورة والحصول على إبريق جديد، وهذا نوع من الضمانة الاجتماعية للأحداث.

● وقف سكة حديد الحجاز: وكانت أوقاف وأملاك وعقارات هذا الوقف عديدة ومتنوعة وبعضها يقع في ساحة البرج في بيروت، وهو أكبر عقار منفرد في الساحة. وكان الهدف من هذا العقار الوقفي تأمين أموال سنوية للانفاق على سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة وتسهيلاً للحجاج وطريق الحج. وهذه السكة هي التي خربها لورنس خلال الحرب العالمية الأولى.

● وقف الجوامع والزوايا: وهي كثيرة ومتعددة كما سبق أن أسلفنا وذكرنا أسماؤها ومواقعها وكانت أموال الأوقاف تصرف على تحسين هذه الجوامع والزوايا وترميمها وتنظيفها وطلائها وعلى مكافاءات الخطباء والأئمة والخدم وعلى شراء ما تحتاجه من سجاجيد وحصر وإنارة ومقتنيات متعددة. وهناك الأوقاف على المرابطين والمجاهدين والمدافعين عن الديار الاسلامية، وهناك وقف الحليب لاعطاء النساء المرضعات الفقيرات أو الأرامل الحليب كغذاء لأولادهن.

والحقيقة فإن الأوقاف الخيرية كانت تشكل ضمانة قانونية وشرعية وسياسية ــ ولا تزال ــ للجمعيات والمؤسسات، بل وهي تشكل



□ محلة باب إدريس في مطلع القرن العشرين.

الضمانات الاجتماعية الحقيقية للمجتمعات في إطار الدولة.

٦ ــ البساتين والجنائن والعود والمزارع

شهدت مدينة بيروت داخل السور أو في ضواحيها المتاخمة لها الكثير من الأراضي الزراعية ولا يزال قسماً منها إلى الآن في رأس بيروت والحمراء وساقية الجنزير وتلة الخياط والأشرفية وأحياء أخرى لا سيما قرب البيوت العتيقة التي لم تقرب إليها الحضارة والعمارة المعاصرة. وكانت البساتين عادة تسمى بأسماء أصحابها كما كانت تسمى المزارع بأسماء المناطق، ومن بين البساتين والملامح الزراعية لبيروت في القرن التاسع عشر على سبيل المثال:

بستان البحباح، بستان البشناتي، بستان البلحة، بستان الحاج بكري البواب، بستان الحاج حسن، بستان طنوس الحداد، بستان حيدر آغا، بستان خليل خطاب، بستان رزق الله. بستان زعزوع، بستان مصطفى سعادة، بستان الحاج يحيى شاتيلا، بستان الشيخ يوسف عبدالملك، بستان الغلغول، بستان الغلاييني، بستان الغول، بستان فرج الله، بستان الحاج مصطفى القباني، بستان القنطاري، بستان المغربي، بستان منيمنة، بستان الموراني، بستان الناعورة، جنينة الأنطوش، جنينة الجامع، جنينة الحداد، جنينة حسين باشا، جنينة الدنا، جنينة شماسية، جنينة محمد ياسين، عودة (وهي بمثابة مزرعة تضم أشجار مغروسة بالتوت الوبري والفواكه والزيتون) عودة محمد تلحوق، عودة مصطفى جبر، عودة درويش، عودة ديبو، عودة الرمال، عودة سليم، عودة العضامي، عودة المدور، عودة المكوك، مزرعة العرب (نسبة لآل العرب) مزرعة الأشرفية، مزرعة رأس بيروت، مزرعة الصيفي، مزرعة قريطم، مزرعة القنطاري، مزرعة المصيطبة...

٧ ــ البحيرات والبرك

لم توجد في باطن بيروت بحيرات بالمعنى الصحيح للكلمة إنما هي عبارة عن تجمعات مائية مع وجود بعض البرك ومن بينها: بحيرة بيت الحوت، بحيرة الكاويك، بركة الزينية (قرب الحمام الفوقاني) بركة السوق (قرب سوق

النجارين) بركة (نوفرة) سوق العطارين، بركة سوق النجارين، بركة المطران (قرب سوق البلد)...

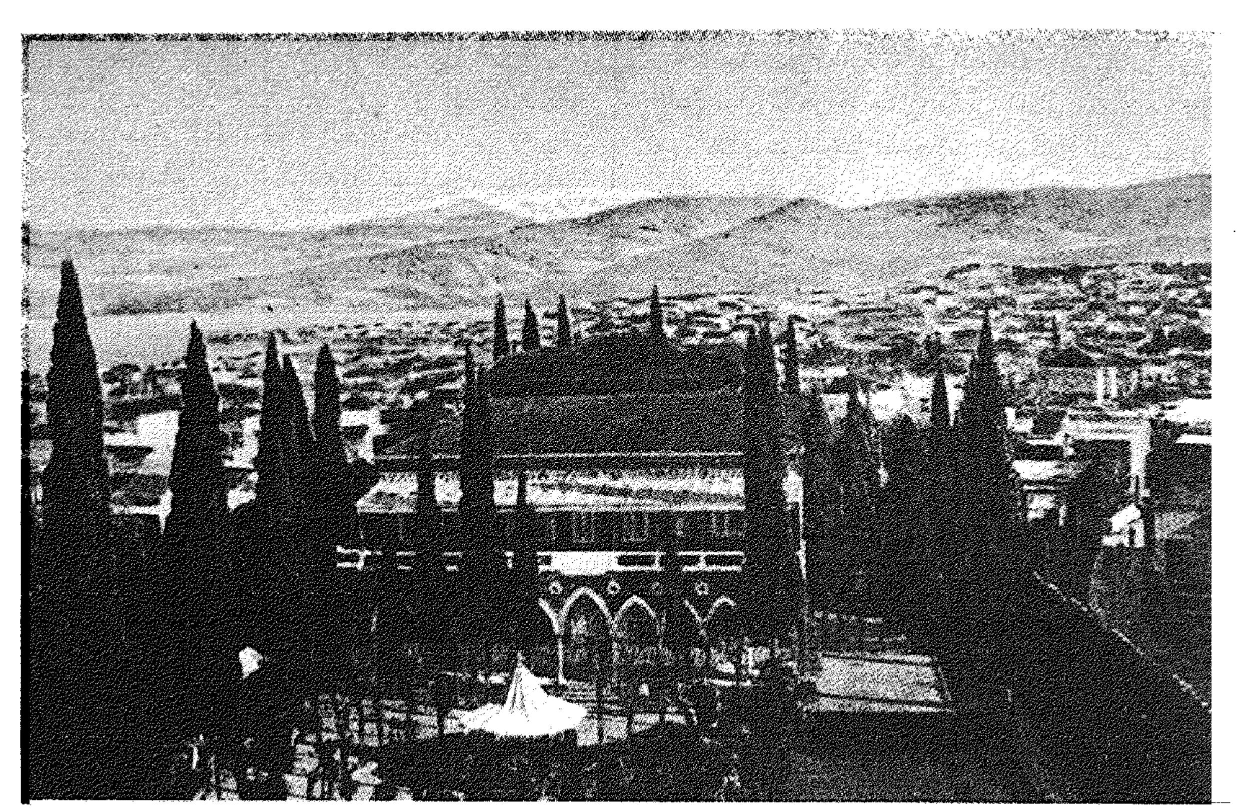
٨ ـ الثكن (الثكنات) العسكرية

التكنات (وهي غير الثكنات) وكانت تقع غربي مدينة بيروت القديمة على ربوة مرتفعة فوق سوق المنجدين (شارع المصارف حالياً) إزاء شارع طلعة الأميركان قريباً من بوابة يعقوب. وقد اتخذت هذه القشلة من قبل المفوض السامي الفرنسي مركزاً له في عهد الانتداب الفرنسي، كما اتخذتها الحكومة اللبنانية مركزاً لها في الفترة الممتدة بين (١٩٤٣ ـ ١٩٨١) وذلك قبل انتقال مركز الحكومة الرسمي (السراي) إلى مركزها الجديد في الصنائع. وقد وصف تقويم الاقبال موقع الثكنة العسكرية العثمانية بالقول بأنها «غربي المدينة وفي أحسن مواقعها اللطيفة». وكان لها في أوائل القرن العشرين عدة مسؤولين عسكريين ومدنيين وإمام وهم على التوالي: قومندان الموقع: سعادتلو علي باشا، كاتب القومندان: الملازم عبدالوهاب أفندي، بينباشي التابور (الطابور): رفعتلو شكري أفندي، قول آغاسي: رفعتلو زكريا أفندي، أمين آلاي: رفعتلو لطفي أفندي، كاتب آلاي: رفعتلو عثمان رائف أفندي، الكاتب: رفعتلو أحمد حمدي أفندي. أما الامام فقد كان فضيلتلو كمال أفندي. وكان يقع إلى شمالي الثكنة المستشفى العسكري العثماني (الخستة خانة) وهي غير المستشفى العثماني الذي بني في أواسط القرن الثامن عشر في جانب السور وقد كان في المحلة المعروفة بالتكنات بجوار بوابة يعقوب. أما هذه (الخستة خانة) فقد أنشئت في أواسط القرن التاسع عشر مع القشلة (الثكنة) وكان هذا المستشفى قد اتخذ كمقر للقضاء اللبناني (العدلية) المحازي لكنيسة الكبوشية (قبل نقلها إلى مقرها الجديد قرب منطقة المتحف الوطني).

٩ ـ الجبانات والمقابر

أنشىء في بيروت وفي ضواحيها بعض الجبانات والمقابر والترب لمختلف الطوائف، والملاحظ أنها كانت خارج السور ومن بين هذه الجبانات الاسلامية: جبانة الباشوراء التي تقع جنوبي السور قريباً من منطقتي البسطة التحتا والخندق الغميق، وهي لا تزال قائمة إلى الآن، وقد أحيطت حوالي العام ١٣١٠هـ ـ ١٨٩٢م بسور سعى ببنائه الشيخ عبدالرحمن الحوت (١٨٤٦ ـ ١٩١٦) وقد هدم هذا السور قبيل الحرب العالمية الأولى بأمر من والي بيروت لتوسيع الطريق المعروف حالياً والمؤدي إلى داخل البلد، ثم أقيم للجبانة سور جديد منذ ذاك التاريخ. وكان يوجد في الجهة الغربية الجنوبية للباشوراء (الباشورة) مصلى الشيخ محمد المجذوب كان يختلي فيه للتعبد والذكر، وقد دفن فيه. وكان يوجد غربها زاوية تؤدى فيها الصلوات والاذكار. وتتميز هذه الجبانة باحتواء الكثير من المتوفين من وجوه وزعامات وولاة بيروت ولا يزال إلى الآن فيها المدفن الشهير باسم «قبر الوالي». ويعتقد البعض بأن الباشوراء قديمة يعود عهدها إلى الخليفة عمر بن الخطاب، والبعض يعيدها إلى عصر خلافة المنصور. وقد زارها الشيخ عبدالغني النابلسي المتوفي (١١٤٣هـ، ١٧٣٠ ـ ١٧٣١م).

أما جبانة (مقبرة) الخارجة ومقبرة الغربا ومقبرة المغاربة ومقبرة الشهداء فقد كانت تقع كلها خارج السور بالقرب من جبانة المصلى، وكل هذه المقابر كانت مواقعها ما بين منطقة الصيفي وسينما ريفولي وسينما بيبلوس وسوق الخضار القديم بازاء البحر شمالاً (أي شمالي ساحة البرج). ومن المقابر المشهورة خارج سور بيروت مقبرة السمطية، وهي مقبرة قديمة العهد تقع بالقرب مما يعرف اليوم بمقهى الحاج داوود قريباً من البحر وفي الطريق المؤدية إلى مرفأ بيروت وإلى داخل البلد وبإزاء أحد أبواب سور بيروت القديمة المعروف باسم باب السمطية. ومن بين الذين دفنوا فيها مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد أفندي الغر (الأغر) (١٧٨٣ ـ ١٨٥٨م) وكان له مأتم عظيم أثناء تشييعه من باطن بيروت من منزله الكائن بالقرب من الجامع العمري الكبير إلى جبانة السمطية. وهذه الجبانة لا تزال قائمة إلى الآن ولكن توقف الدفن فيها بسبب الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٥). والمقابر الاسلامية كلها تحولت فيما بعد



□ منطقة المصيطبة في مطلع القرن العشرين.

باعتبارها أوقاف تحت إدارة جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت بما فيها المقابر المستحدثة كمقبرة الشهداء التي تقع في أحد أنحاء حرج بيروت والتي أخطر المسلمون عام ١٩٥٨ لدفن موتاهم في ذاك الحرج بسبب الأوضاع الأمنية التي كانت قائمة في تلك السنة، وقد دفن فيها في البدء بعض شهداء ثورة ١٩٥٨، لذا اتخذت هذا الاسم.

وكان يوجد بالقرب من جبانة السمطية باتجاه الطريق المؤدي إلى الغرب وبمحاذاة البحر (منطقة الزيتونة) مقابر للطوائف المسيحية تضررت كثيراً إثر الحرب اللبنانية، ووجدت مقابر لهذه الطوائف في رأس النبع ومار الياس والأشرفية. كما وجدت مقابر لليهود قريباً من منطقة رأس النبع في ظاهر بيروت القديمة.

١٠ ــ الجوامع والزوايا والمعالم الدينية

انشىء في باطن بيروت في داخل سورها وخارجه وفي ضواحي المدينة العديد من الجوامع والمساجد والزوايا الدينية طبعت بيروت بالطابع الاسلامي نظراً لكثرة هذه المعالم الدينية الاسلامية، والتي أنشأها المسلمون عبر مختلف العهود الاسلامية، علماً أن الكثير منها هدم في عهد الانتداب الفرنسي لا سيما الزوايا ــ المساجد التي لم يبق منها في باطن بيروت سوى زاوية الامام الأوزاعي في سوق الطويلة. وكان يوجد إلى جانب هذه المعالم الاسلامية بعض المعالم المسيحية لا سيما الكنائس والأديرة وكنيس لليهود. ويمكن ذكر هذه المعالم الدينية التي كانت لا تزال قائمة في العهد العثماني أو التي أنشئت قبله أو خلاله وهي على النحو التالي:

الجامع العمري الكبير، الجامع الجديد (جامع شمس الدين)، جامع الدباغة (أبو بكر الصديق)، جامع السرايا (الأمير منصور عساف)، جامع المجيدية، جامع النوفرة (الأمير منذر) جامع زقاق البلاط، جامع البسطة التحتا، جامع البسطة الفوقا، جامع الحرج (الحلبوني والحوري)، جامع رأس النبع (وهو غير جامع الصيداني في رأس النبع أيضاً) جامع برج أبي حيدر، جامع المصيطبة، جامع الزيدانية، جامع الحمراء، جامع قريطم، جامع عين المريسة، جامع الداعوق، جامع

القنطاري، جامع الكرنتينا (خالد بن الوليد)، جامع الخضر، جامع الامام الأوزاعي. وقد أنشىء مساجد أخرى بعد انتهاء الحكم العثماني وهي: جامع الامام علي، جامع الحسنين، جامع الأشرفية (علم الشرق)، جامع الصيداني، جامع عائشة بكار، جامع القصار، جامع خليل شهاب، جامع شاتيلا، جامع محمد الأمين (مكان زاوية أبو النصر — المشروع الكبير للجامع لم ينفذ بسبب الأحداث) جامع الخلية السعودية، جامع حسين مكاوي، جامع الشهداء، جامع البرجاوي، وقد أنشىء في السنوات الأخيرة بعض المساجد منها: مسجد الحوري (جامعة بيروت العربية) مسجد الخاشقجي (قرب جامع الشهداء) مسجد الدنا، مسجد جمال عبدالناصر، مسجد عماش، جامع العاملية...

أما الزوايا — المساجد والتي كانت غالبيتها في باطن بيروت فهي: زاوية الامام الأوزاعي، زاوية باب المصلى، زاوية التوبة (الشيخ عبدالقادر الجيلاني) زاوية الخلع (البياطرة) زاوية باب الدركاة (الزاوية العمرية) زاوية الشيخ حسن الراعي، زاوية الشهداء، زاوية الشيخ محمد خضر العراقي، زاوية القطن، زاوية الشيخ محمد المجذوب، زاوية المغاربة، وكان يقع بجانب السور شرقاً زاوية أبو النصر، كما وجد في منطقة رأس النبع (الحمراء) زاوية الحمراء. ووجدت زاوية سيدنا البدوي بالقرب من جمرك ميناء بيروت بجانب خان البربير.

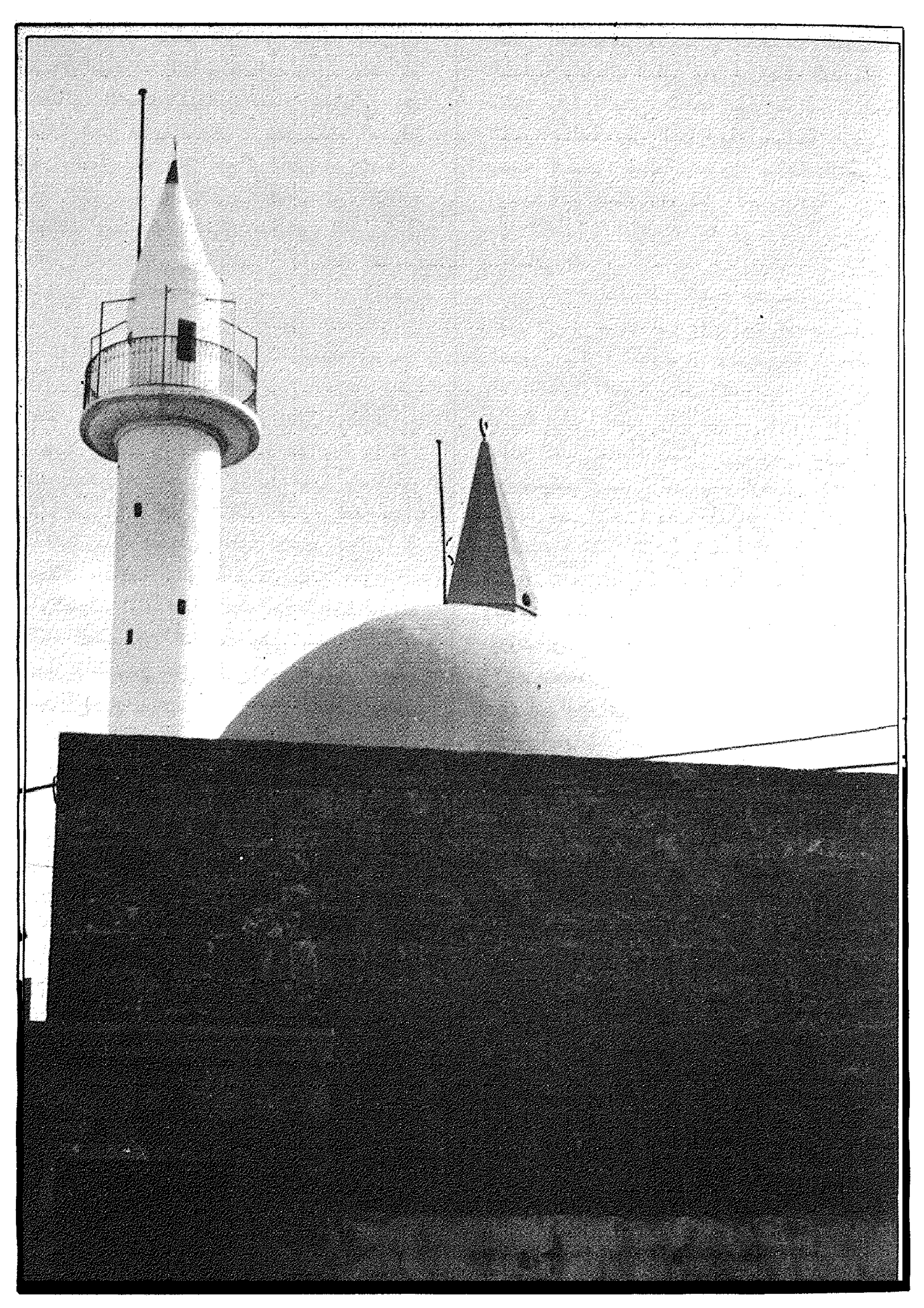
أما الملامح الدينية المسيحية فقد تمثلت ببعض الأديرة والكنائس منها: دير الأرمن، دير البادرية (الآباء الكبوشيين) دير العازارية، دير مار متر (الأشرفية)، كنيسة الروم (كاتدرائية القديس جاورجيوس)، كنيسة الكبوشية، كنيسة مار الياس للروم الارثوذكس، كنيسة مار الياس للكاثوليك، كنيسة مار جرجس للموارنة، كنيسة مار مخايل، الكنيسة المسكوبية، بالاضافة إلى كنيس واحد لليهود.

١١ — الحارات والشوارع والمحلات والزواريب

تميزت أسماء الحارات (البيوت) والشوارع والمحلات (المناطق) والزواريب في بيروت بأسماء ساكنيها من العائلات أو الطوائف أو باسم أحد القادة أو الأمراء، وعلى سبيل المثال فقد تبين لنا من خلال دراستنا لسجلات المحكمة الشرعية في بيروت بعض هذه الملامح العمرانية ومنها: حارة بيت البربير (ولكلمة حارة في بيروت معنيين: الأول ويعني محلة — منطقة صغرى، والثاني ويعني البناية المؤلفة من طابقين أو ثلاث)، حارة بيت الشناتي، حارة الحاج محمد الدح، حارة درويش، حارة الرصيف، حارة شرنق، حارة شويربات (قرب البرلمان في باطن بيروت) حارة العقاد، حارة عبدالقادر قرنفل، حارة المصبني، حارة اليهود، حي الدحداح، حي الرمال (الصنائع) حي الصيفي، حي العرب، حي عين الباشورة، حي الغلغول، حي كرم الزيتون، حي المصيطبة، حي الميدان، شارع طلعة الأميركان، شارع فخرالدين، محلة الجناح، محلة الزيدانية، محلة الصنائع، محلة الظريف، محلة المدور، محلة النصارى... أما الزواريب فهي على سبيل المثال: زاروب بني سعادة، زاروب بني عمران، زاروب البواب، زاروب الدهان، زاروب الرشيدي، زاروب سابا، زاروب سوق النجارين، زاروب شيخ الاسلام، زاروب الشيخ رسلان، زاروب الشيخ مصطفى شرنقة، زاروب الشيخ ناصر، زاروب الطمليس (في باطن بيروت وهو غير زاروب الطمليس الكائن قرب دار الأيتام الاسلامية قرب كورنيش المزرعة)، زاروب العجان، زاروب العراوي، زاروب المجذوب، زاروب الحاج يوسف المكاري، زاروب النقيب، زاروب واكد، زاروب اليهود... كما وجدت بعض الدروب المشهورة في باطن بيروت منها: درب الطويلة (نسبة لآل الطويلة الذي سمي السوق الشهير باسمهم: سوق الطويلة) وهذا الدرب يقع بالقرب من ساحة السمك.

١٢ — الحمامات والخانات

لأسباب تتعلق بالطهارة والنظافة وبالمعتقدات الاسلامية شهدت المدن الاسلامية ومنها بيروت إنشاء الكثير من الحمامات لا سيما في باطن بيروت أو بالقرب من المساجد والزوايا، لأن التطهر يسبق عادة الصلاة. ومن بين هذه الحمامات: حمام الأمير فخرالدين الشهير



□ جامع الامام الأوزاعي من جهة البحر.

بالحمام الكبير، حمام الأوزاعي، حمام السرايا، حمـام الشفـاء، الحمـام العمـومي، الحمـام التحتاني، الحمام الفوقاني، حمام القيشاني. وفي وصف أحد هذه الحمامات وهو حمام السرايا يمكن القول بأنه كان يقع في باطن بيروت قرب بـاب السرايـا (السراي) بـالقرب من جـامع السرايا. وقد ذكر الشيخ عبدالغني النابلسي في رحلته (التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية) عندما زار بيروت في القرن السابع عشر الميلادي حمام الأمير فخرالدين وسواه من الحمامات في بيروت ومما قاله: «... وأما حماماتها فأربعة: الأول حمام الأمير فخرالدين بن معن، الثاني حمام القيشاني، الثالث حمام الأوزاعي، الرابع قديم لا يعرف له اسم. وكلها مهجورة ما عدا حمام الأمير فخرالدين». وكانت أجرة واستثمار حمام السرايا في القرن التاسع عشر مرتفعة جداً، وهذا ما أكدته معاملات عقود الايجار الواردة في سجلات المحكمة الشرعية في بيروت.

ولأسباب اقتصادية واجتماعية شهدت بيروت إنشاء الكثير من الخانات وهي بمثابة فنـادق للتجار والقادمين من خارج المدينة مع دوابهم وحيواناتهم ومن بين هذه الخانات: خان أنطون بك، خان البربير، خان البيض، خان الحرير، خان حمزة وسلوم، خان الدركاة (الدركة) خان سعيد آغا، خان الصاغة، الخان القديم، خان الملاحة، وخان الوحوش. وقد تحول بعض هذه الخانات في عهد الانتداب الفرنسي إلى دور للسينما مثـل سينمـا «أمبير» فيمـا كـانت سينمـا «أوبـرا» اسطبلات للأمير فخرالدين المعني في فترة حكمه، كمـا تحولت بعض الخـانات إلى مستـودعات أو هدمت وأقيم مكانها مـؤسسات وأبنية تجارية. وكان التجار والقادمين من خارج بيروت يبيتون ليلة أو أكثر في هذه الخانات لقاء أجر معين، كما كان النازل في الخان يدفع عن دابته في حال اصطحابه لها، مقابل إقـامتها وغـذائها. كمـا وجدت بعض الخانات الراقية للتجار الأجانب.

١٣ ــ الساحات والسرايات والبنوك

تميـزت بيروت العثمـانيـة بـوجـود بعض الساحات الكبيرة والصغرى، كـانت تخصص عادة لبيع منتجات أو سلع معينة، في حين كانت بعض السـاحات الأخـرى تخصص للعربـات التجارية وعربات النقل، ومن بين هذه السـاحات: ساحة باب المصلى، ساحة بيت طراد، سـاحة الخبز، ساحة دير العـازارية، سـاحة الزبيب، ساحة السمك، ساحة السور، ساحة الشهداء (واسم هذه الساحة هو قبل الاسم المستحدث في عهد الانتداب الفرنسي، كما أن موقعها في العهد العثماني كان في آخر شارع المعرض قرب زاوية الشهداء، في حين أن ساحة الشهداء المعروفة اليوم هي في ساحة البرج) ساحة القمح، وساحة النجمة (شارع المعرض)، وساحة باب يعقوب، بالاضافة إلى ميدان هام كان يـوجد في إطار مزرعة رأس النبع وهو ميدان البلشة (ميدان سباق الخيل حالياً) حيث كان يمارس البيروتيون هواية ركوب الخيل والهوايات الأخرى.

أما السرايات فأهمها سراي الأمير عساف أو المسماة «دار الولاية» نسبة إلى القصر الذي أنشأه الأمير فخرالدين الثاني أمير جبل لبنان وبيروت، وكانت هذه السراي مركزاً للحكم في بيروت. وكان يوجد أمامها جامع السرايا (جامع الأمير منصور عساف) الذي لا يزال موجوداً في حين أن السراي هدمت، كما كان يوجد أمامها حمام السرايا. أما السرايات الأخرى فهي كانت في الأصل ثكنات عسكرية أو مستشفيات (كما سبق وأشرنا) فحولها المندوب السامي إلى سراي للمفـوضية الفـرنسية، ثم اتخـذتها الحكـومة اللبنانية منذ العام ١٩٤٣ مركزاً رسمياً لها قبل أن تنتقل في العام ١٩٨١ إلى سراي الصنائع. كما أقيمت مـؤسسات مصرفية أجنبية ويهودية وعثمانية كان أهمها «البنك العثماني» الذي تميز بضخامة مبناه وبنمط معماري خاص، وقد كان مركزه في منطقة المرفأ.

١٤ ــ القيساريـات

ارتبط إنشاء القيساريات بـإقامـة الأسواق التجارية والحرفية والأسواق المختلفة، وهي عبارة عن أسـواق مسقوفـة لاتقـاء الحـر والشمس والأمطار، وهي شبيهة بسوق الحميدية في دمشق (الذي لا يـزال مـوجـوداً) ومن بـين هـذه القيساريات: قيسارية الأمير سليمان أبو اللمع، قيسارية الشيخ الأمير شاهين تلحوق، قيسارية



□ مرفأ الشامية في مطلع القرن العشرين.

الحرير، قيسارية الأمير سلمان الشهابي، قيسارية الأمير منصور الشهابي، قيسارية الصاغة، قيسارية العطارين، (قيسارية الأمير عبدالسلام العماد) وكانت قيسارية الأمير منصور الشهابي تقع في سوق البازركان في باطن بيروت بالقرب من قيسارية الصاغة، وكانت تضم في أحد جوانبها دكاكين للخياطين العربي (الشروال، القنباز، الصداري...)، بينما كانت قيسارية الأمير عبدالسلام العماد وقيسارية الأمير شاهين تلحوق تقعان قرب بعضهما بين سوق البازركان والجامع العمري الكبير. وقد عرفت قيسارية عبدالسلام العماد باسم قيسارية العطارين.

١٥ ــ المدارس والمعاصر والمقاهي والموانىء

انتشرت في بيروت بعض المدارس أهمها مدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت، مدرسة الامام الأوزاعي، المدرسة الأزهرية، المدرسة الاسلامية الحديثة، مدرسة الشيخ عبدالباسط الأنسي، مدرسة الرشيدية، مدرسة زاوية الشهداء، مدرسة الصنائع، مدرسة المجذوب... بالاضافة إلى بعض المدارس التبشيرية التي انتشرت في بيروت وضواحيها وفي الجبل، وبعض الجامعات وهي: الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية) والجامعة اليسوعية.

وشهدت بيروت لا سيما في باطنها بعض المعاصر الخاصة بعصر الزيتون وبعض المواد الزراعية الصناعية، ومنها: معصرة بني دندن، معصرة بني السبليني، معصرة الحمراء، معصرة السقعان (أي آل السجعان) ومعصرة سيف الدهان، بالاضافة إلى وجود جرينة للحنطة والحبوب، وكانت تقع في آخر سوق الحدادين في باطن بيروت في الطريق إلى أسكلة (ميناء) بيروت.

أما مقاهي بيروت التي كانت مركزاً لتجمع البيروتيين والقادمين إلى بيروت، فكانت تشهد بعض حكايا البطولات العربية والاسلامية والبحث في أمور الساعة، وكانت صور الزعامات البيروتية والقبضايات تزين جدران هذه المقاهي (كان آخرها قهوة المتوكل على الله ــ الحاج سعيد حمد ــ في البسطة الفوقا) ومن بين هذه



□ مبنى البنك العثماني في نهاية العهد التركي.

المقاهي: قهوة السوق، قهوة سوق الأساكفة، قهوة الأمير علي الشهابي، قهوة الشهداء، قهوة العسس، قهوة المعلقة، وقهوة النوفرة. أما قهوة الحاج داوود الشهير، بيروتياً ولبنانياً ولدى العرب والأجانب فقد استمرت إلى فترة متأخرة تستقبل روادها لا سيما قبل أحداث العام ١٩٧٥.

ونظراً للأهمية الاقتصادية التي بدأت تتبوأها بيروت، فقد تطور مرفأها تطوراً هاماً، وانقسم بدوره إلى عدة موانىء صغرى متخصصة بإنزال أصناف معينة من أصناف التجارة، لهذا وجدنا عدة موانىء منها: ميناء الأرز، ميناء الخشب، ميناء القمح، ميناء البطيخ، ميناء البصل، ميناء الشامية بالاضافة إلى ميناء قديم غربي ميناء بيروت عرف باسم ميناء الحسن (الحصن)، ولا تزال المنطقة تعرف بهذا الاسم إلى الآن.

هذا ولا بد من الاشارة بأن باطن بيروت كان بمثابة واد كبير بشكل عام إذا ما قورن وقوبل بالمناطق القريبة المطلة على المدينة، فهي مناطق أعلى منه ومنها على سبيل المثال مناطق طلعة الأميركان والثكنات وزقاق البلاط والبسطة والمصيطبة وبرج أبي حيدر ورأس النبع والأشرفية. وهذا مما سهل جر المياه من المناطق إلى داخل البلد لا سيما من منطقة رأس النبع وبالذات من عين الكراوية التي جرت مياهها إلى باب الدركاة عبر قناة الدركاة المعروفة. وبالرغم من هذه الطبيعة لمستوى الأرض في داخل سور بيروت وخارجه، غير أن الأرض ذاتها في داخل البلد كانت بدورها غير مستوية، لهذا وجدنا أدراج عديدة في داخل البلد تصل الشوارع والأسواق بعضها بالبعض الآخر ومنها درج خان البيض، ودرج شيخ السربة ودرج سوق النحاسين ودرج سوق العطارين... بل وجدت في بيروت بعض الوديان الصغيرة ومنها وادي السبليني، وهناك منطقة برمتها خارج السور عرفت باسم وادي أبو جميل، ومنطقة أخرى عرفت باسم الخندق الغميق.

هذه هي أهم الملامح العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية في بيروت العثمانية، وهي بطبيعة الحال تشكل أكثر هذه المظاهر، علماً أن تطور مدينة بيروت عبر العهود كان يقضي على بعض هذه الملامح والمظاهر لتحل مكانها ملامح عمرانية جديدة. كما أن الاستفاضة في دراسة سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ستؤدي إلى استكشاف المظاهر العمرانية الأخرى التي اندثرت، وستؤدي إلى المزيد من الحقائق الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية والادارية. ●

مصادر البحث

ـ الوثائق التي تنشر للمرة الأولى:

سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة:

(أ) السجل الأول ١٢٥٩هـ ـ ١٨٤٣م (ويضم مئات من الوثائق والمستندات والقضايا).

(ب) مختارات وثائقية من سجلات المحكمة للفترة الممتدة ١٢٦٠ ـ ١٢٨٥هـ، ١٨٤٤ ـ ١٨٦٨م.

ـ المصادر والمراجع:

(١) أحمد أمين الحبال: ما لا يعلمه المسلمون عن جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت، (كراس) بيروت ١٩٨١.

(٢) د. أسد رستم: الشيخ أحمد الغر والقضاء في بيروت قبل مائة عام، المشرق، حزيران (يونيه) ١٩٣٣.

(٣) أنيس النصولي: الامام الأوزاعي، بيروت ١٩٥٠.

(٤) بيروت ١٨٧٥ ـ ١٩٧٥، خرائط وصور، جامعة بيروت العربية ١٩٧٧.

(٥) توفيق حوري: المؤسسات الوقفية. من منظار حديث ـ قديم، المركز الاسلامي للتربية، بيروت ١٩٨٠.

(٦) جون كارن: رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، تعريب رئيف خوري، منشورات دار المكشوف ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٤٨.

(٧) حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني (سجلات المحكمة الشرعية في بيروت) المركز الاسلامي للاعلام والانماء ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٨) الأمير حيدر الشهابي: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين (الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان) ج ١، ج ٣، تحقيق وتعليق د. أسد رستم، د. فؤاد افرام البستاني، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩.

(٩) داوود كنعان: بيروت في التاريخ، مطبعة عون، بيروت ١٩٦٣.

(١٠) زهدي يكن: المختصر في الوقف، المكتبة العربية ـ بيروت ١٩٦٦.

(١١) شفيق طبارة: بيروت: سورها وأبوابها، أوراق لبنانية، م ١، ج ٦، حزيران (يونيه) ١٩٥٥.

(١٢) شفيق طبارة: من معابد بيروت: الزوايا، أوراق لبنانية، م ١، ج ١١، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥.

(١٣) شفيق طبارة: معالم بيروت القديمة، أوراق لبنانية، م ٣، ج ١، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧.

(١٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت (أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت) تحقيق: فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧.

(١٥) د. صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٨.

(١٦) الشيخ طه الولي: تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، دار الكتب ـ بيروت ١٩٧٣.

(١٧) الشيخ طه الولي: أبواب بيروت، المقاصد، العدد ٢١، كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤.

(١٨) الشيخ عبدالباسط الانسي: دليل بيروت، تقويم الاقبال لسنة ١٣٢٧هـ، ١٣٢٤ ـ ١٣٢٥ شرقي، ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ غربي، مطبعة الاقبال ـ بيروت ١٣٢٧هـ.

(١٩) عبدالرحمن الحوت: الجوامع والمساجد الشريفة في بيروت، بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

(٢٠) عبدالرحمن سامي بك: القول الحق في بيروت ودمشق (رحلة في أواخر القرن التاسع عشر إلى بلاد الشام) (نسخة مصورة عن دار الرائد العربي) بيروت ١٩٨١.

(٢١) الشيخ عبدالغني النابلسي: التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق وتقديم: هربرت بوسه، المعهد الالماني للأبحاث الشرقية ـ بيروت ١٩٧١.

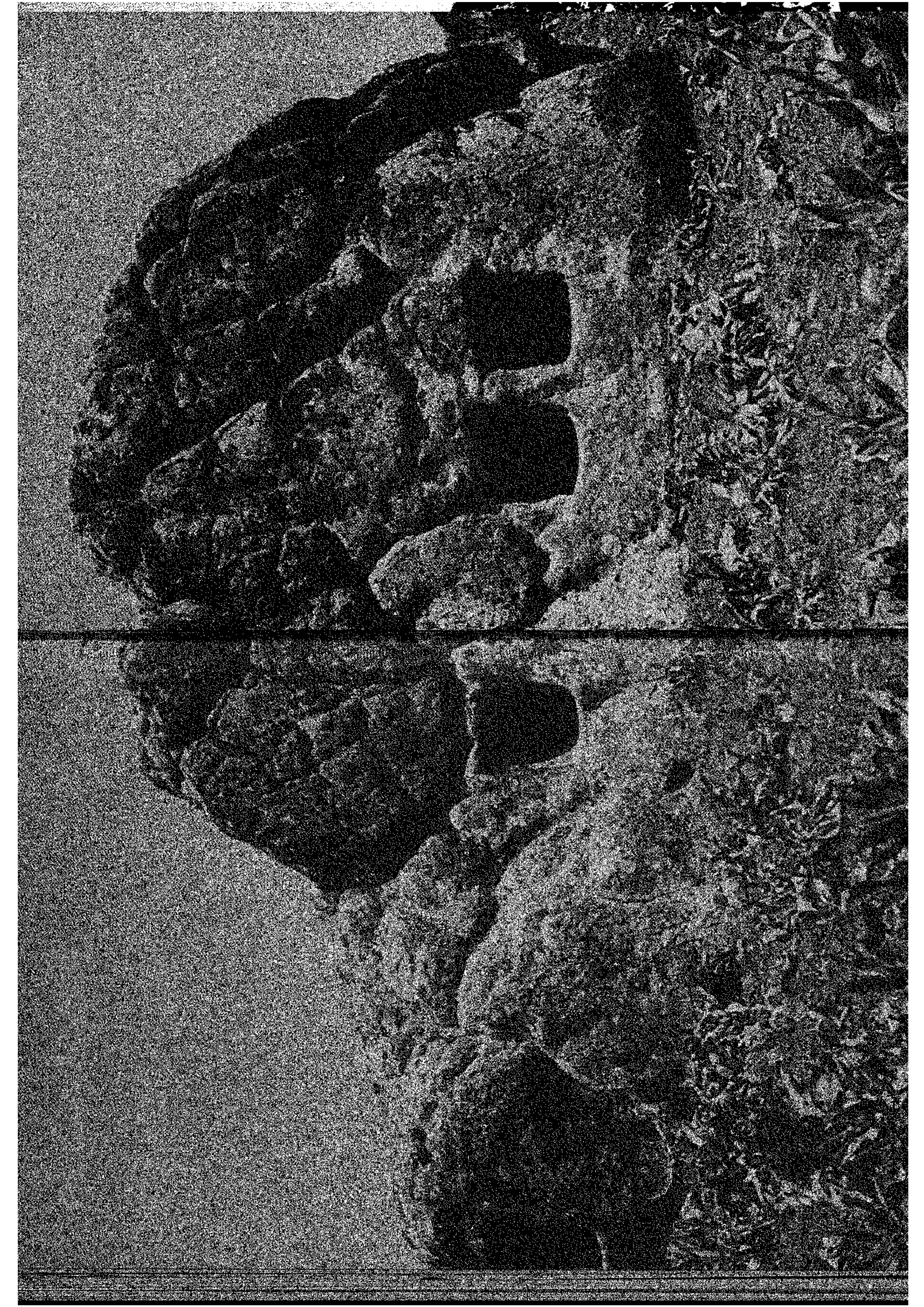
(٢٢) مجموعة قرارات واحكام تتعلق بالأوقاف الاسلامية ـ مديرية الأوقاف الاسلامية العامة ـ بيروت.

(٢٣) محمد شريف سكر: الوقف في الاسلام، المركز الاسلامي للتربية، بيروت ١٩٧٧.

(٢٤) الشيخ محمد عبدالجواد القاياتي: نفحة البشام في رحلة الشام (نسخة مصورة عن دار الرائد العربي)، بيروت ١٩٨١.

(٢٥) مؤلف مجهول: مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق وتقديم: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة ـ دمشق (بدون تاريخ).

(٢٦) نوفان رجا الحمود: العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨١.





غرف الموتى المنحوتة في الصخور، الموجودة في تونس، ترجع إلى تقليد ليبي. وقد ظل متبعا حتى العهد القرطاجي، بل وسعت وزينت برسوم جدرانية، رسمت باللون الصلصالي الأحمر، المستوحى من فنانين افارقة، من مرحلة ما قبل التاريخ. وتحمل الرسوم طابعا رمزيا سحريا أو دينيا قرطاجيا.

تطرح اليوم أسئلة حول اصل هذه القبور، التي يعتقد انها منقولة عن تقليد شرقي. والواقع أن السكن في المغاور معروف منذ اقدم العصور في إفريقيا، مما يحمل على الاعتقاد أن «غرف الموتى» (أو الحوانيت) كانت مساكن، كتلك التي اتخذها الافريقيون مساكن لهم.

لقد درج المؤرخون، منذ نهاية القرن التاسع عشر، على إطلاق كلمة «حوانيت» على تلك المغاور المحفورة في جدران الصخور، المتجاورة حينا، والمتراكبة فوق بعضها بعضا، حينا آخر، وفي عدة صفوف.

هندسة الحوانيت وتزيينها

تتصل الحوانيت بالعالم الخارجي بواسطة نوافذ مربعة عمودية، أعلى من مستوى الأرض. وهي صغيرة، عامة، فعلوها ثمانون سنتيمترا، أما عرضها فيتراوح بين ٥٠ سم و ٧٠ سم. وإذا كانت الحوانيت محفورة في صخر مائل، سبقها بهو غير مسقوف، أو غرفة صغيرة.

وللنوافذ إطار خارجي محفور، يسمح بإغلاقها بواسطة بلاطة، ركز أسفلها على خشبة أو قطعة حجرية، تتيح دفعها، أو سحبها لاغلاق النافذة.

ومهما كانت وسائل الاغلاق، فقد كان يتم من الخارج. وذلك برد البلاطة على النافذة، وتدعيمها من الخارج.

أما أبسط أشكال الحوانيت، وأكثرها شيوعا، فعبارة عن غرفة مربعة أو مستطيلة، بزوايا مدورة أحيانا. أما السقف فأحيانا أفقي، وأحيانا منحني نحو الداخل. وقد يكون السقف عبارة عن قبة، أو مدورا مستطيلا. ولكن هذين النوعين نادران. لذلك كان الاختلاف بين حانوت وآخر، مقصورا على نمط الاغلاق، ووجود مشاك مربعة [جمع مشكاة] أو مستطيلة، محفورة في هذا الجدار أو ذاك، بالاضافة إلى بعض النحوت.

يلاحظ كذلك وجود بعض الحفر في القاع، أو مسطبة على طول أطول الجدران.

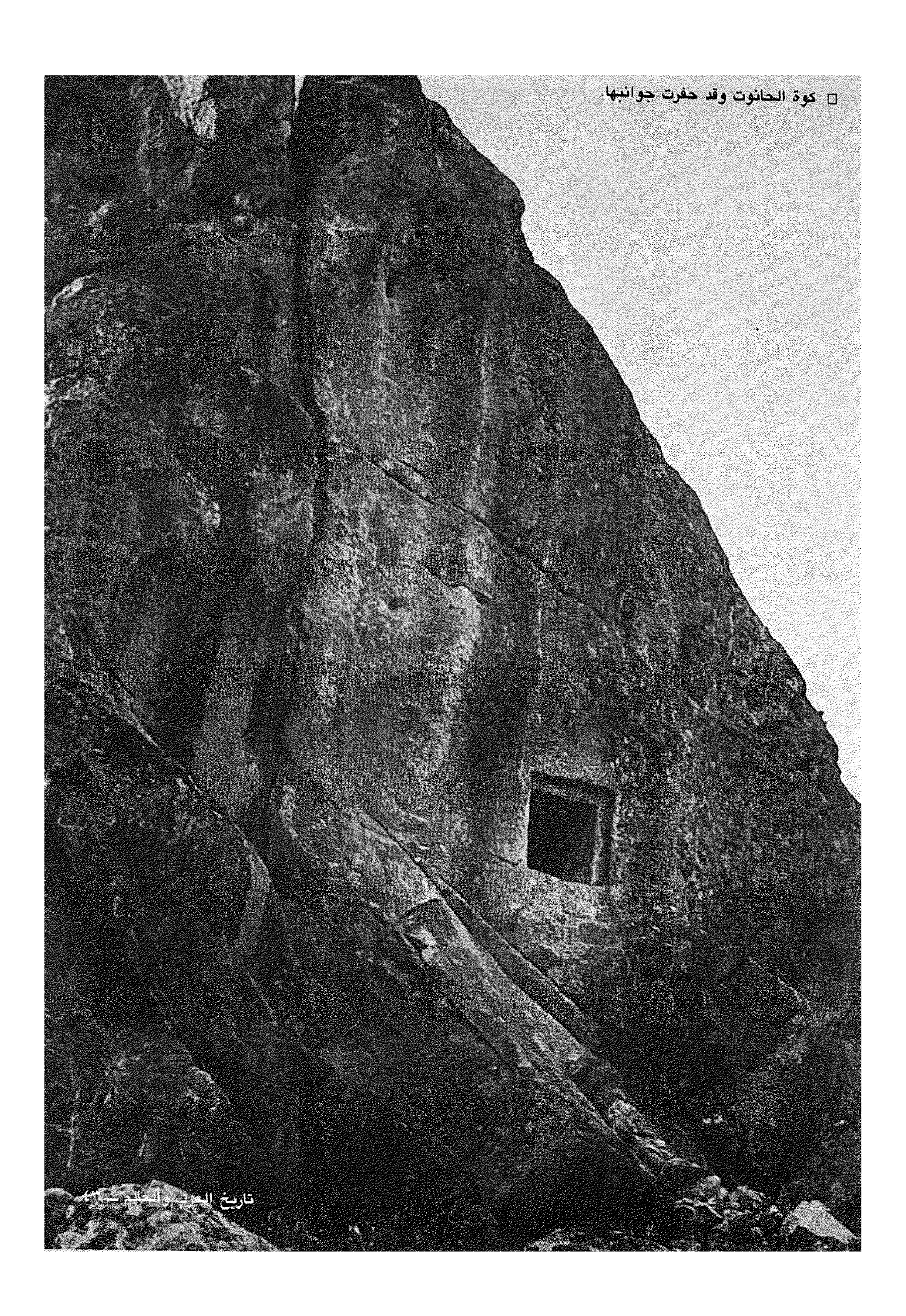
بعض الحوانيت معقدة أكثر. ففي الحروري، حوانيت مكونة من عدة غرف، حفر بعضهما فوق بعض، أو على صف واحد. وفي جزيرة الأربعين في منستير، يتطور المخطط أحيانا في اتجاهين: العمق، أو الصف الواحد. ويجمع معظم من وصفوا الحوانيت على أن طولها، في الغالب، ٢,١٠ م وعرضها ١,٩٠ م.

أما التزيين فهو عبارة عن نحت في الجدران، أو رسوم بالخضاب الحديدي. أما النحوت فهي: الأفاريز، والأعمدة، أو الأسطوانات. أما الرسوم فعبارة عن أشكال هندسية: معين، مربع، مستطيل، داما. مرثمة رسوم حيوانية: غزلان، وعول، أسماك، طيور.

وثمة حوانيت لم تكتمل، فهي عبارة عن بداية حفر في الصخر، مما يوحي بالطريقة التي كانت تنشأ بها.

طبيعة الحوانيت وأصلها

الحوانيت التي نقع عليها، لا في تونس وحدها، وإنما كذلك في الجزائر والمغرب، وسردينيا وصقلية ومالطة، وقبرص وإسبانيا وسواحل آسيا الوسطى والمتوسط، وحتى في فرنسا، هذه الحوانيت تعتبر قبورا. وهي جميعا تغلق من الخارج. وقد اكتشفت عام ١٨٦٠، في إحدى المغارات، جثة وبعض العظام البشرية، في حوانيت دوروش في الجزائر. كما اكتشفت في غاليت غرفة مغلقة تماما، تضم رفاتا ومجموعة من الأواني والحلى مما كان يدفن مع الأموات. وقد حدت هذه المكتشفات على عدة افتراضات. ذلك أن الكثير من الحوانيت لم يكن يضم آثارا بشرية أو أواني أو حلى. لذلك افترض بعضهم أنها مساكن، وافترض آخرون أنها قبور. مع العلم أن بعضها أجريت عليها تعديلات في العهد الروماني، وأن بعضها الآخر بقي على حاله كما كان في العصور القديمة. غير أنها جميعا متشابهة، سواء حفرت في الصخر أو في التراب،



□ كوة الحانوت وقد حفرت جوانبها.

شكلا وحجما وطريقة إغلاق، ورسوما ونحتا. مع ذلك لم توجد اية حوانيت في قرطاجنة أو في جوارها.

استثناء

تعتبر حوانيت كيج وبليدا استثناء، فقد وجد فيها رسم ملون بالخضاب الحديدي لموضوع بحري، فهو محفور في الصخر، قبل التكوين، وقد اكتشفه عام ١٩٠٠الملازم هوفار.

من خواص هذه الحوانيت أن أعلى الجوانب قد نحت، ثم خطط بخطوط متوازية، يبعد الخط منها عن الآخر مليمتران.

وثمة خاصة أخرى وهي أن الحانوت يتصل مباشرة بالخارج، لا عبر نفق. وليس الجدار الخارجي سميكا كما هي الحال في الحوانيت الأخرى.

أمـا الرسم فمـؤلف من سفينـة، ارتفعت مقدمتها، وزودت بمجذافين، وشراع على شكل شبه منحرف، ولهـا صاريـان، وحبال تصـل الصاريين بالمقدمة والمؤخرة. وثمة حبـال تشد الشـراع إلى جسم السفينـة الأسفـل. وعـلى السفينة سبعة محاربين، يعتمرون قبعة مروسة. وقد تسلح كل منهم برمح، رأسه مثلث، وترس مدور. وعلى المقدمة محارب عار، ذو شعر طويل، يمسك باليمنى فزّاعة ، وباليسرى ترسا مدورا. وعلى يمين المجموعة شخص آخر، يغطي رأسه غطاء مروس، يبدو وكأنه يسبح.

أما الأب فيرون فـرأى في المنقوشـة هذه، أشجـار بلح، وسلالم وأشخـاصا. ومن قـاع السفينة خطوط مائلة متوازية، يبعد الواحد عن الآخر مسافة مقدارها من خمسة سنتيمترات إلى ٦،٦ سم. بعض هذه الخطوط يبلغ قفة صيد

السمك. فهل هي شبك أو مجاذيف. الواقع أن إمحاء بعض الألوان لا يتيح التأكد.

على الجانب الأيمن للحانوت نفسه نقش آخر. هو عبارة عن معينات حمراء تشكل بينها مثلثات متسـاوية السـاقين، متعـاكسـة القمم. ويبـدو مـا يشبـه الأخـطبـوط، ولكن ثمـة شبكتـين واضحتين، وصور بعض أوراق شجر اللبلاب.

وعلى الجانب الأيسر نقش، يبدو وكأنه صورة قائمة حيوان، أو عجزه.

في الحانوت الثالث منقوشـة أخرى: فيهـا معينات متكىء بعضها على بعضها الآخر. فوق، على الجدار يبدو شخص يرفع يده اليسرى. ولعل للصورة تفسيرا آخر، وهو أنه يمثل راقصـين، يرقصون متماسكين بالأكتاف. إذ ترى بوضوح قدم، ورأس، وثوب مرتفع في الهواء.

□ تفصيل للموضوع البحري.



□ نقوش في كج وبليدا تمثل موضوعا بحريا. قفة الصيد.

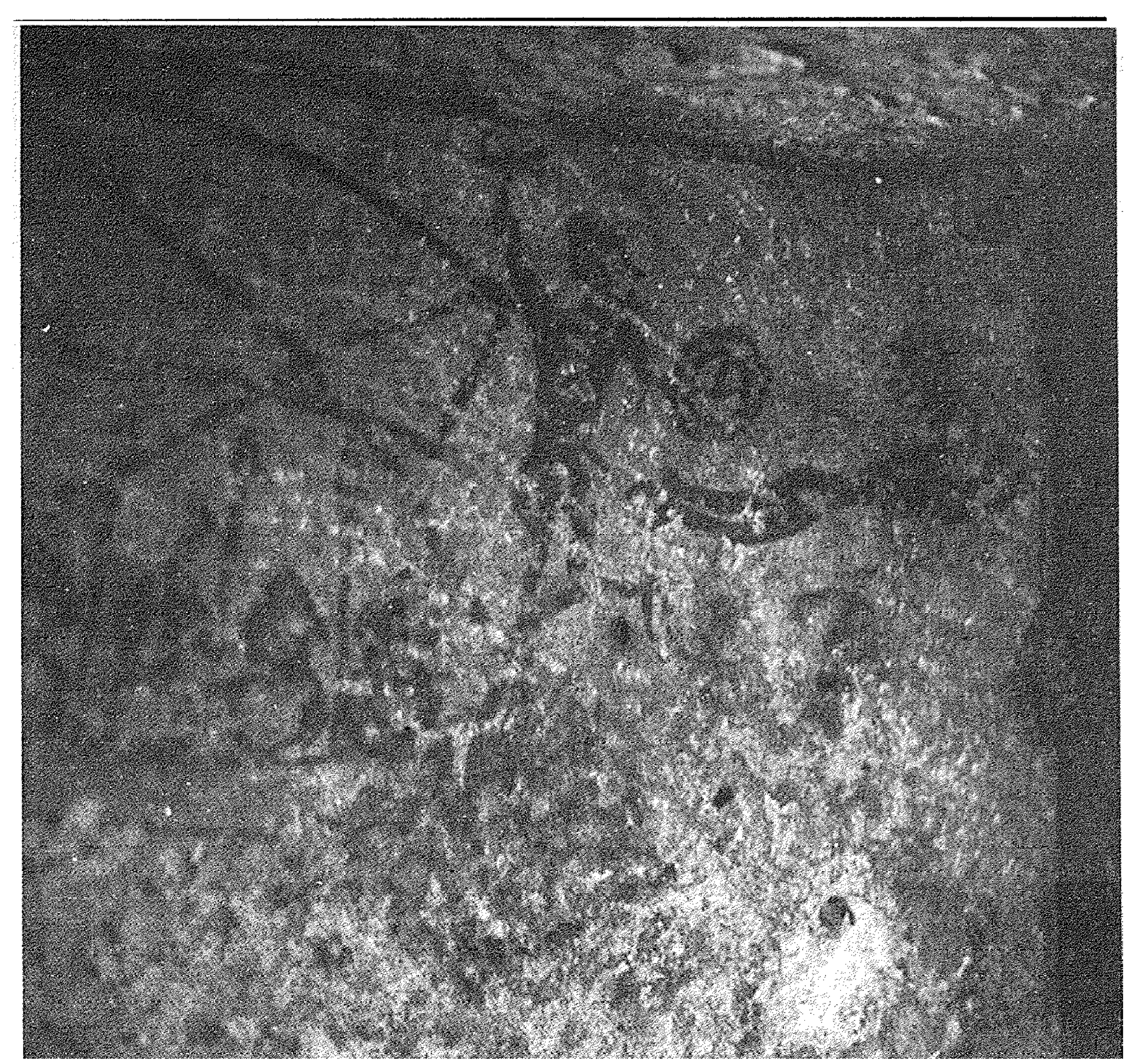
أما الشخص الذي يبدو رافعا يده، فيعتقد أنه يلوح بيده لراقص يقابله. الواقع أنه يستند على الساق اليمنى المنحنية قليلا، بينما اليسرى مرتدة إلى الوراء. أما باقي الرسم فغير واضح.

وثمة خربشات غير واضحـة، يبدو وكـأنها كتابة!.

مقبرة غريفات

وتدعى حاليا شيخة الحمران. اكتشفت عام ١٩٠٦. وقد سماها بعض المنقبين: سوق الاثنين. لقد حفرت في كتلة كبيرة من الحجر الرملي غرف للموتى، مداخلها المستطيلة، يعلو بعضها بعضا، على عدة طبقات متوالية. هي تسع. ولكن ثمة اثنتـين كل غـرفة منهمـا مؤلفـة من غرفتـين متلاصقتين واحدة موازية، وأخرى فوق أختها. والغرف مكعبة، وأصغر حجما من الآنف ذكرها.

وثمة سقفان، وكـوتان، وأفـاريز من طبقـة أو طبقتين. وليس فيها تزيين أو رسوم. على أن المنقبـين غفلوا عن نواتـىء قـرب بعض أعلى الأبواب، مدرجة، عليها بعض النقوش، الملونة بالخضاب الحديدي. منها شبه منحرف، يعلوه



□ حانوت كج وبليدا، رسم سفينة وشراع على شكل شبه منحرف، تحمل سبعة محاربين اعتمروا قبعات مروسة.

هلال مقلوب، ودائرة تعلوها ثلاثة أهلة، يحيط بها ريشتان (أو سعفتا نخيل). وعلى الجدار الداخلي لأحد الحوانيت، كتابة هي عبارة عن أربعة أحرف ليبية، لم يكشف معناها حتى اليوم.

جبل شوشا

في حوانيت جبل شوشا معالم خاصة أكثر دلالة. فثمة رسوم هندسية، ورسوم أشياء وأشخاص. منها ثلاثة صفوف من المربعات، بعضها صغير مصبوغ باللون الأحمر. وبعضها دون لون، وكأنها في مجموعها «الداما». الكوة المربعة الداخلية، مؤطرة باللون الأحمر، ومتصلة «بالدماء» بثلاثة خطوط حمراء.

وثمة ما يشبه قاعدة التمثال، تزين الزوايا العليا لاطار الكوة. وتحت الداما تزيين يشبه أسنان المنشار.

وفي حانوت آخر شخص وهيكل، مكون من عمود قصير متسع عند قاعدته. ويرى فوقه صحن واسع قليلا. أما الشخص الواقف أمام الهيكل فمجلل بثوب طويل واسع. ويبدو كأنه راكع، أما ذراعاه فممدودتان نصف امتداد، وقد فتحت إحدى كفيه، وتباعدت أصابعهما، وارتد الابهام إلى الوراء، وانقبضت الكف الأخرى.

يحيط بالهيكل إشارات تزينه، محفورة في الجوانب، وحول الكوة سعف بلح، وجد مثلها في



□ حانوت كج وبليدا عليه لوحة الرقص.

عدة حوانيت. وفي أعلى التزيين نخلة امحى نصف جذعها.

في الحانوت نفسه ثلمان متوازيان، عمقهما من ٣ ـ ٥ مم، متصلان بخطوط عمودية متوازية في ما بينها.

وادي ماغسبايا

في هذا الوادي حوانيت معينية الشكل، لها افاريز زينت بنقوش عرضها عشرة سنتيمترات. على أحد الجوانب ثلوم متوازية متعامدة، كأنما لم ينته النقاش من نقشها، أو كأنها مخطط لتزيين.

أعلى الكوة المحفورة على شكل مثلث، رسوم أوراق شجر، غصنها واضح. وعلى الجدار الأيمن، مركب طوله خمسون سم، على جانبيه مجاذيف، مرسومة بخطوط متماثلة، وله مقدمة، ودفة، وشراع على شكل (T).

على كل حال، يتوقع الآثاريون العثور على أدلة جديدة، من رسوم ونقوش، قد تكشف في المستقبل القريب، عن حقيقة هذه الآثار، وتاريخها، ومعنى بعض الأحرف التي لم يعرف معناها حتى اليوم.

●

فنانة من السعودية

صفية بن زقر:

الطهارة الفنية والحنين الى الأصول

حلمي التوني

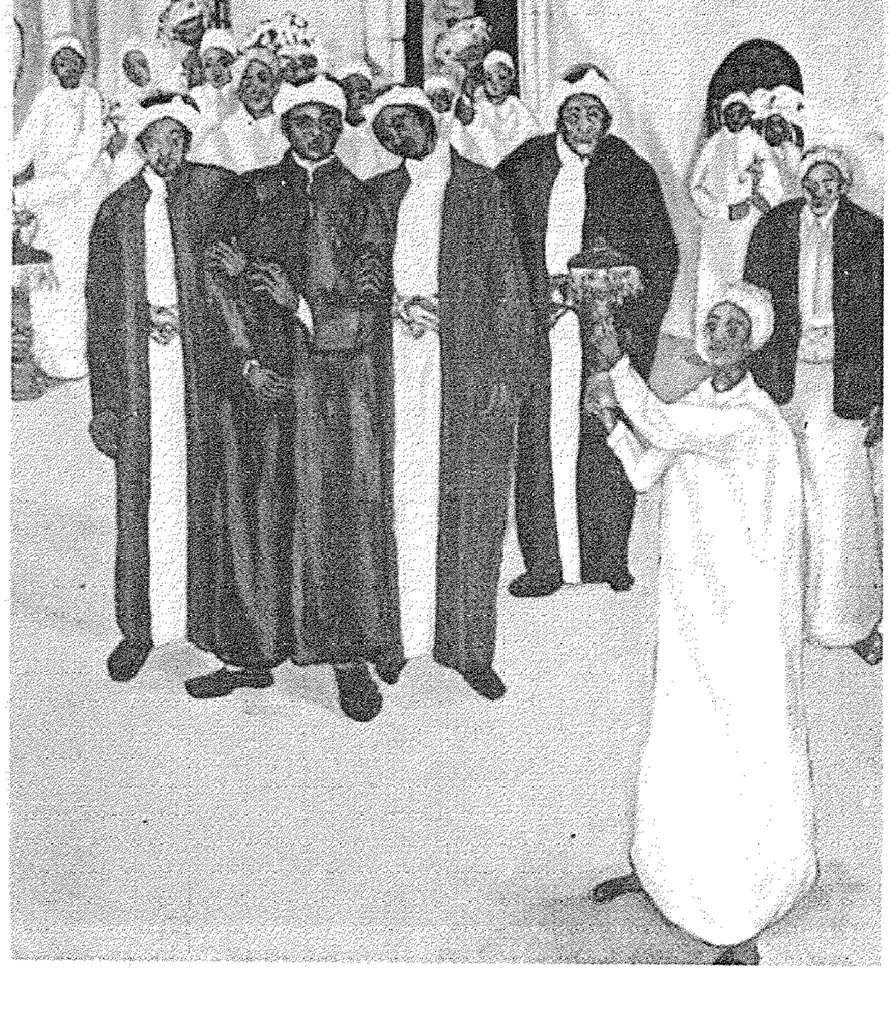
لعل أكثر الناس التفاتاً إلى الهوية القومية الخاصة، وسعياً إلى الحفاظ عليها هو الفنان، ومن هنا نرى اهتمام بعض الفنانين البالغ بالتراث، ومن هنا أيضاً يبرز ويحتدم، من حين إلى آخر، الخلاف والجدل حول قضية «الأصالة والمعاصرة» والمحاولات الدائمة من قبل الفنانين الجادين للوصول إلى حل لهذه المعادلة الصعبة: «كيف نكون معاصرين وعصريين مع الحفاظ على الهوية والأصالة؟».

لقد أدرك وآمن بعض الفنانين بأن «التراث»، أو الميراث الحضاري المستمر والمتراكم، هو الرصيد أو الغطاء الذهبي الضامن للأصالة والخصوصية القومية.

من هؤلاء الفنانين، الفنانة السعودية صفية بن زقر، فهي رغم تعرضها لرياح التغريب أثناء دراستها الفنية في مصر، حيث الدراسة الفنية تسير حسب أصول مدارس الفن الغربية، ثم دراستها للفن بكلية سانت مارتن في لندن، رغم تعرضها هذا، إلا أنها حافظت على أصالتها، أو أصالة رؤيتها وفهمها للفن ودوره، فاختارت أن تكرس موهبتها وجهدها لرصد بيئتها الخاصة وإحياء تراثها الوطني متمثلاً في عادات وتقاليد وحياة مواطنيها اليومية.

□ **حلمي التوني: فنان تشكيلي مصري، يعيش في لبنان منذ ١٩٧٤ درس الفن وتخرج من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ١٩٥٨. بالاضافة إلى فن اللوحة، اشتهر بتخصصه في فنون تصميم الكتاب والرسم والغرافيك عامة. معروف باهتمامه بأشكال التعبير الفني النابعة من التراث والبحث عن الهوية الفنية الخاصة.**





□ الفنانة صفية بن زقر وتفصيلية من لوحة «المنشد»، وهي من مجموعة لوحات «الزواج»، ويظهر فيها العريس بين أصدقائه في طريقه إلى بيت العروس.

إن أعمال هذه الفنانة تكاد تشكل متحفاً حضارياً صغيراً للحياة في السعودية. والأمر الملفت في أعمال صفية بن زقر هو أسلوبها الفني الخاص الذي يتجلى فيه مدى مناعتها وحصانتها ضد المؤثرات الغربية وعدم خضوعها للتقليد والتبعية الفنية. ومن هنا تختلف أعمالها في تصوير البيئة العربية عن أعمال الكثيرين من الفنانات والفنانين الأوروبيين الذين يهبطون تباعاً على أرض الجزيرة العربية لتصوير البيئة والحياة فيها بأساليب ميكانيكية غريبة فتأتي أعمالهم وقد غلبت عليها التسجيلية السطحية، وخالية من إحساس صادق بالموضوع الذي يتعرضون له. لقد شاهدت أثناء زيارات لبعض دول الخليج العربي مثل هذه الأعمال في معارض مقامة في النوادي والفنادق وكنت أرى فيها دائماً ما يشبه شراب ورد مصطنع وزائف مصبوب في أكواب من البلاستيك الرخيص.

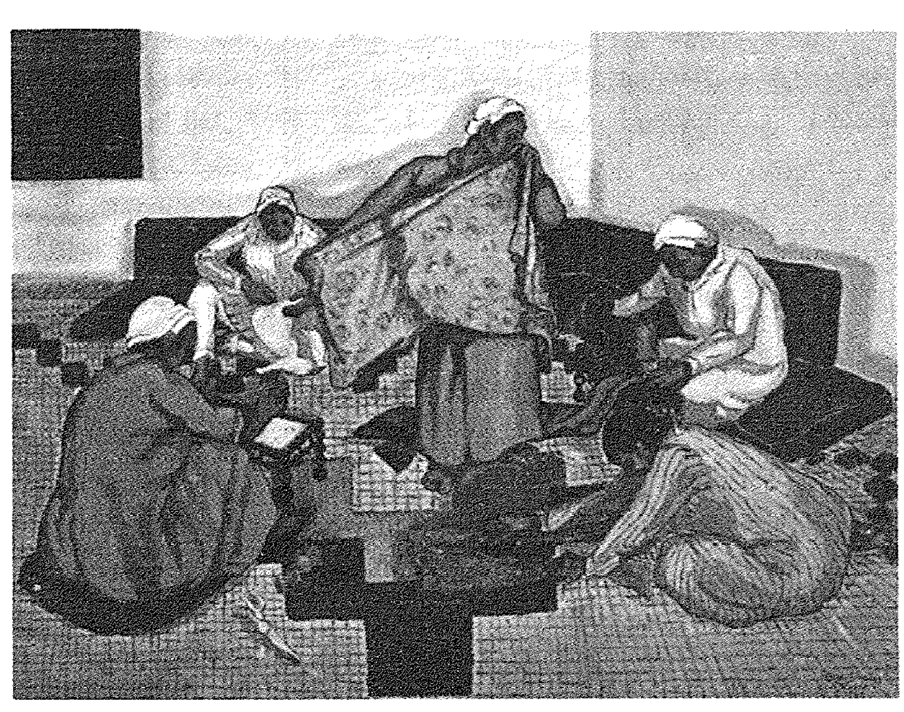
قد يرى بعض النقاد في أسلوب صفية بن زقر سذاجة، وقد يدرجون أعمالها تحت مصطلح «الفن الساذج» أو «الفطري» (ناييف آرت)، أو حتى الفن الفولكلوري.. ولكني أعتقد أن هذه «السذاجة» هي في الحقيقة براءة وطهارة فنية، يفتقدها كثير من الفنانين «البارعين» و«المهرة».. وهل الفن «براعة» و«مهارة»؟.

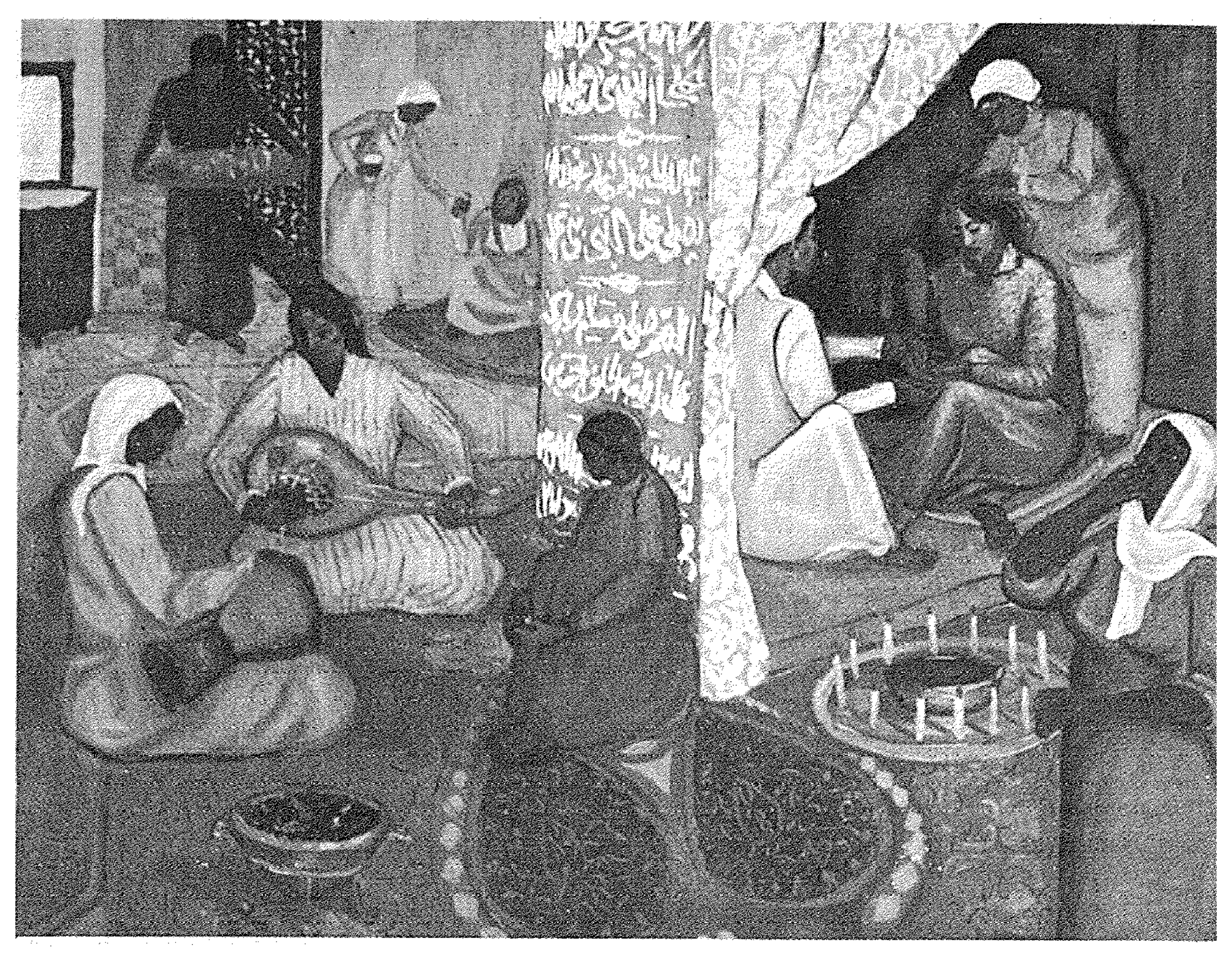
إن أسلوب صفية بن زقر الفني، أسلوبها الفطري الذي يتزاوج بنجاح مع المواضيع التي اختارت تصويرها، يشبه إناء مطعماً بالصدف والفضة مصنوع كله بيد الانسان ويضم طعاماً شرقياً وبخوراً وورود.

ولنلق نظرة على متحف صفية بن زقر وقد اخترت من بين أعمالها بعض لوحاتها التي تتناول موضوعي «الزقاق» و«الحياة اليومية».

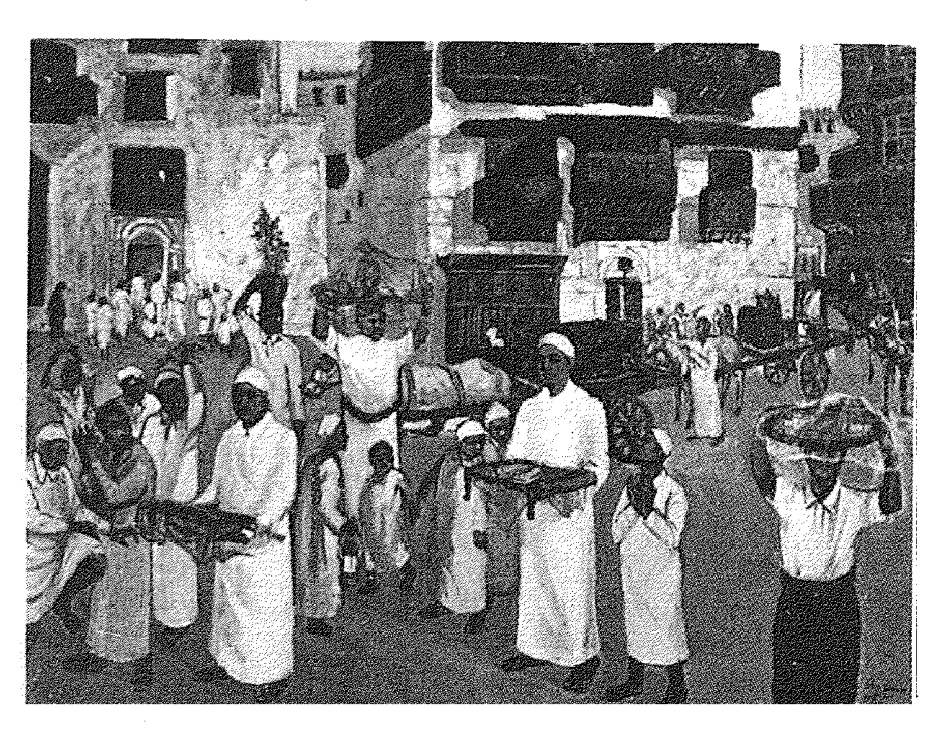
□ «حلاقة العريس».. كان الحلاق يذهب إلى منزل العريس، وليس العكس، ليقص له شعره على دقات دفوف عازفات العرس، وكانت العادة تقضي بان تلصق أم العريس قطعة نقود ذهبية على جبين الحلاق.

□ «الجهاز».. بعد إتمام الخطبة كان أهل العروس وأصدقاؤها يحضرون يومياً إلى منزلها للمساعدة في إعداد الجهاز ولتقديم الهدايا التي كانت تتكون من القماش والمطرزات والدقيق والحلوى، وكانت الهدايا ترد بالمثل عند زواج بنات الصديقات وفي المناسبات الشبيهة.



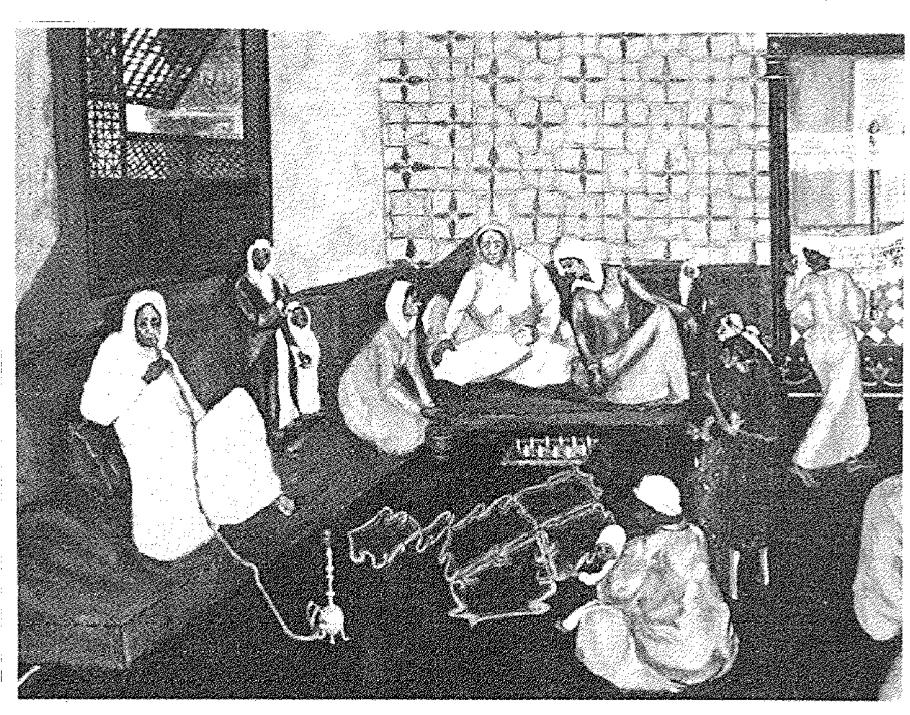


□ «الحنة».. كانت احتفالات العرس، في الماضي، تستمر لمدة أسبوعين أو ثلاثة، وفي ليلة الزفاف كانت العروس تحتجب خلف ستار مزوق وتقوم صديقاتها بوضع الحنة على كفيها وقدميها وشعرها، وكانت الحنة الطازجة او الخضراء ترمز إلى الخصوبة وحسن الطالع والسعادة، وبينما تعزف وتنشد المغنيات يقدم شراب اللوز إلى جميع الحاضرات.



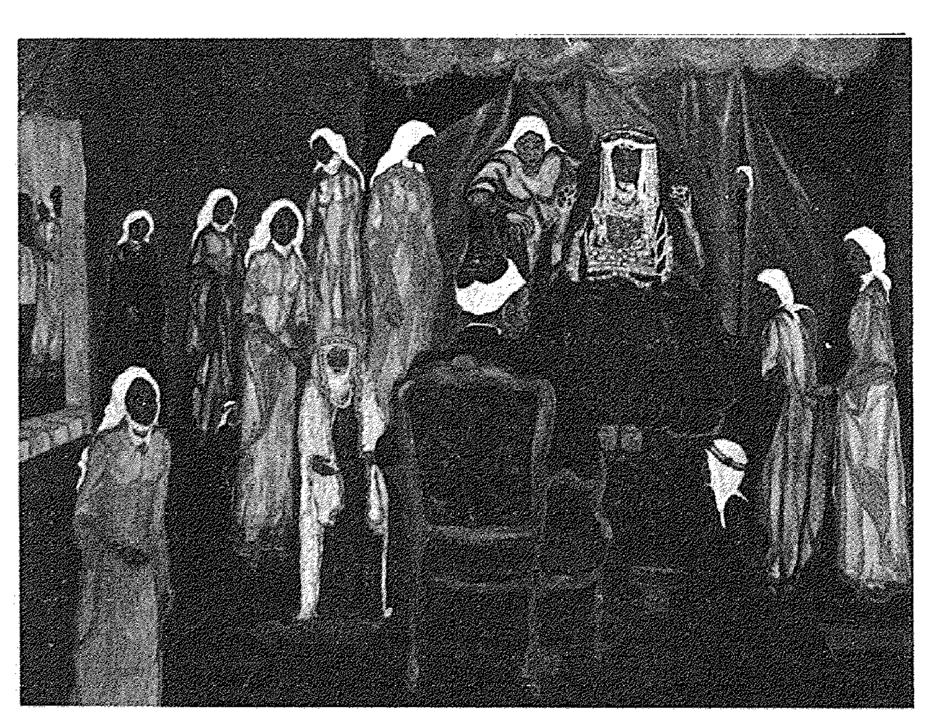
□ «حامل القبقاب».. حتى عهد قريب كانت هدايا العريس القيمة والثمينة، خاصة المطعّم منها بالفضة يحتفل بها احتفالاً خاصاً حيث كانت تنقل في موكب صغير من بيت العريس إلى بيت العروس، ومن أهم تلك الهدايا قبقاب العروس الخشبي المطعم بالفضة، ويتقدم تلك الموكب دائماً شخص يحمل مصحفاً كريماً على وسادة يعلوه سيف كرمز إلى القوة.

□ «سك الخلخال».. بعد الحمام تخرج العروس حيث يستقبلها المدعوون بالغناء والعزف. ويتقدم منها أحد أخواتها او أحد اقاربها من المحارم ليضع في قدميها الخلاخل الذهبية. وهذا الاحتفال يسمى سك الخلخال. وفي اللوحة إحدى المدعوات ترقص للعروس وقد حملت في يدها إناء يضع فيه الحضور قطع النقود (النقوط) التي تقدم لمغنية العرس.



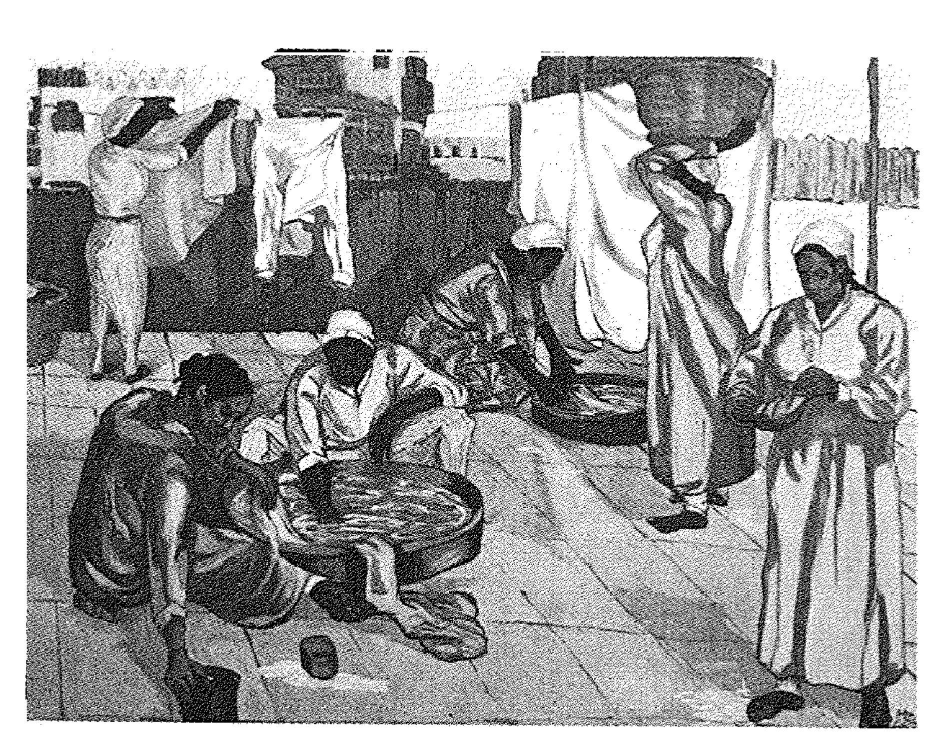
□ «الرحماني».. أو «سبوع المولود» من المناسبات العائلية الهامة. وكان الاحتفال بها يتم عادة بعد الظهر ويحضره أطفال الأسرة والأصدقاء ويقدم خلال الاحتفال الكعك والحلوى بينما يقرأ والد الطفل والأقارب آيات من القرآن الكريم في أذن الطفل، ثم ينتقل الطفل إلى مجلس النساء حيث يدقون بالهاون والصنوج قرب أذنه لتعويده على ضجيج الحياة.

□ «النصبة»... من ضروريات الاحتفال وجود مغنية مشهورة مع فرقتها الموسيقية، وكان اهل البيت يحرصون على إرضاء المغنية ليعتدل مزاجها فيعدون لها الشاي حسب الطريقة التي تفضلها، ويقدمون لها كل ما تشتهي من الحلوى وأطايب الطعام.

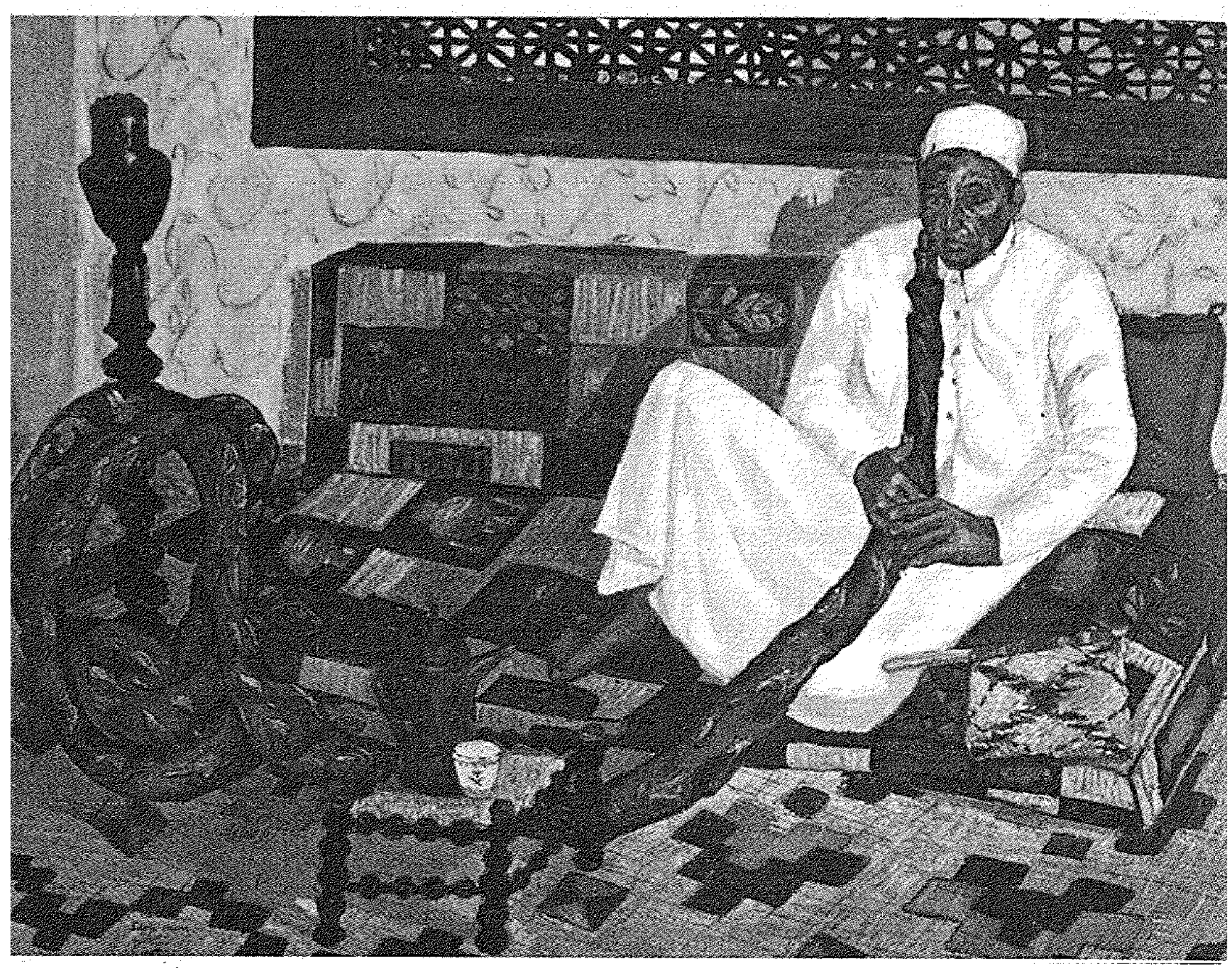


□ «النصاح»... أهم مراسم احتفال الزواج، حيث تظهر العروس في ثوب من الحرير وعلى صدرها وسادة مطرزة بالأحجار الكريمة، وتجلس العروس على منصة بينما يجلس العريس مقابلها وهو يتلو آيات من القرآن الكريم، ثم يقوم العريس ويفرغ جيوبه من قطع النقود فيتسابق الأطفال إلى التقاطها، وبعدها يكشف النقاب عن وجه عروسه ويضع على جيديها قطعة نقود ذهبية.

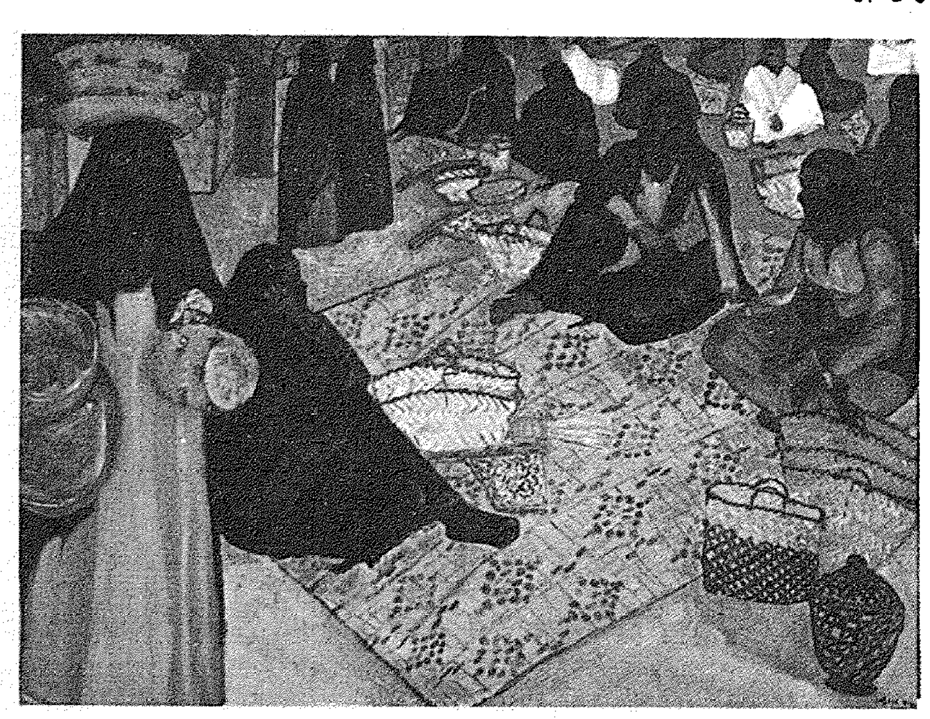
□ «الزينة».. بينما تحمل خادمة، المرآة تأخذ السيدة زينتها وتمشط شعرها، وقد بدا خلفها صندوق مزخرف حيث تحتفظ بملابسها وحاجياتها، وأمام السيدة الطست والأبريق.



□ «يوم الغسيل».. في يوم معلوم من أيام الأسبوع تجتمع نساء الأسرة فوق سطح المنزل ليغسلن الملابس.. بعض النساء في اللوحة يرتدين المحرمة وهي وشاح طويل يضفر مع الشعر ثم تثبت الضفيرة أعلى الرأس، وعند الخروج من المنزل يوضع فوق الرأس منديل كبير ويسمى رداء الرأس عندئذ «محرمة ومدورة».. كانت النساء إلى عهد قريب يستخدمن هذا الزي خاصة في اللبادية.



□ «لحظة انسجام»... في المساء وعندما تنكسر حدة حرارة الجو، يجلس رب البيت في هدوء مستمتعاً بفنجان القهوة العربية وتدخين الشيشة، يخلط تبغ الشيشة عادة ببعض الفواكه لأعطائه نكهة زكية، يبلغ طول خرطوم الشيشة خمسة أمتار ويكسوه قماش مزخرف بألوان براقة.



□ «سوق السلال»... منظر من الماضي، عندما كانت نساء المدينة المنورة يصنعن السلال من زعف النخيل ويزينوها بالخيوط الملونة لبيعها في سوق المدينة. لقد كان لكل بيت من بيوت المدينة المنورة بستان عامر بالنخيل ومنه كانت تصنع السلال والحصر والمراوح.. كان ذلك في الماضي.



ماذا قدم مسلمو الأندلس الى الجنس البشري؟

في عصور الظلمة في أوروبا، كان هناك نور واحد: نور الأندلس

بقلم: بول لنـــد ترجمة: مكرم حداد

كان لدى مسيحيي القرون الوسطى اسطورة تقول إن رودريك، آخر ملوك الفيسكوت، هو المسؤول عن غزو العرب لشبه جزيرة ايبيريه. ويعود السبب في ذلك لكونه لم يفِ بوعده عندما أمَرَ بفتح أبواب قصر مذهل كان قد تعهد بعدم مسه والعبث به.

إن الغزو العربي، بالنسبة إلى الغرب، هو الذي فتح باب هذا القصر البديع. فمباشرة بعد انهيار الامبراطورية الرومانية، قام القندال والهون والفيسكوت بغزوات شرسة لشبه جزيرة ايبرية مؤسسين بذلك ممالك لهم لم يكتب لها العيش طويلاً طالما إن استمرارية البقاء لدى تلك القبائل الغازية كانت مرتبطة باستمرارية عمليات السلب والنهب وما تلبث بعد انتهاء هذه العمليات أن تنقرض واحدة تلو الأخرى. بعد ذلك، ودون أي إنذار مسبق، وتحديداً في العام ٧١١ للميلاد جاء العرب ليسكنوا شبه الجزيرة هذه ويعشقوا أرضها وترابها ويؤسسوا فيها أول حضارة عريقة عرفتها أوروبا منذ أن تقهقرت جيوش روما أمام جحافل البرابرة.



لقد ازدهرت اسبانيا، أول ما ازدهرت، في أيام حكم الأمويين لها، وهم الذين اسسوا سلالة لهم بعد زوال خلافتهم في المشرق العربي وذلك على يد العباسيين. في بداية الطريق، كانت الثقافة الأموية محصورة في قرطبة وقد شكّلت في مضمونها انعكاساً لثقافة المشرق العربي. فالمودة في الأدب والهندام كانت تقليداً واقتداءً لما هو رائج في بغداد، العاصمة المشرقية الجديدة، لدولة بني العباس. من هنا كان قدوم عالم أو باحث من المشرق هو بمثابة نعمة سماوية تستقبل بحفاوة ملحوظة في بلاط قرطبة. وكان رجال البلاط القرطبي ينصتون باهتمام وفضول إلى ما في جعبة القادم الجديد من أخبار وسير عما يجري في المشرق البعيد وعن اللباس الذي يُلبس والاغنيات التي تُغنى وأهم من هذا كله الكتب التي كانت تُقرأ.

فالثقافة الاسلامية هي بالأساس ثقافة الكتاب أو الثقافة المكتوبة. فإدخال الورق ــ الابتكار القادم من بلاد الصين ــ في العام ٧٥١، أعطى دفعاً وزخماً جديدين نحو التعلم ونحو الفكر. فقد أصبحت الكتب أكثر توفراً وتداولاً حتى من تلك التي في روما. وكذلك أرخص ثمناً. ففي الغرب

اللاتيني استمرت الكتابة على قطع الجلد الغالي الثمن إذا ما قورن بالوسيلة الجديدة ــ الورق. وعلى سبيل المثال، فقد باع رجل في القرن الثاني عشر للميلاد ماية وعشرين فداناً حتى يشتري «كتاب الساعات». وفي القرن التاسع للميلاد كانت مكتبة دير سان غال تفاخر بانها الكبرى بين زميلاتها في أوروبا، اذ انها كانت تعتز بأن لديها ستة وثلاثين كتاباً. بينما احتوت مكتبة قرطبة في ذلك الزمن بالذات على نصف مليون كتاب. فالفارق الثقافي بين الشرق والغرب في العصور الوسطى يُمكن أن يُعزى، ولو جزئياً، إلى الحقيقة الماثلة أمامنا وهي انه كان لدى العرب معرفة بالورق بينما كان الغرب اللاتيني جاهلاً له.

على كل حال، إن خلق ثقافة فكرية وعلمية كتلك التي عرفتها اسبانيا الاسلامية، يحتاج إلى عناصر ووسائل وظروف تتعدى معرفة أو استعمال الورق. فالاسلام بتسامحه وتشجيعه للعلم وحثه الناس على التعلم واكتساب المعرفة الدينية منها والدنيوية، قد ساهم في توفير المناخ المناسب والضروري لتبادل الآراء والاتصال الفكري فبلاط قرطبة، كبلاط بغداد، كان مفتوحاً على مصراعيه للمسلمين والنصارى واليهود على السواء، حتى إن أحد المطارنة المسيحيين أبدى انزعاجه وتذمره من ظاهرة إقدام فتيان النصارى على الاهتمام والتفرغ لتعلّم اللغة العربية بدلاً من اللاتينية. هذا دليل واضح على أن اللغة العربية، وخلال فترة زمنية قصيرة وبشكل ملفت للنظر، استطاعت أن تصبح لغة عالمية كما هي اللغة الانكليزية اليوم.

بدأت الثقافة الاسلامية في اسبانيا بالازدهار خلال حكم عبدالرحمن الثاني لقرطبة كما بدأت اللغة العربية بالانتشار بين الرعايا غير المسلمين وخاصة في المدن الرئيسية مما أفسح المجال أمام انتعاش الحركة الفكرية بمختلف الوانها وتفرعاتها.

فمجتمع البلاط القرطبي كان المثال الذي يحتذى في الذوق الفني والمنحى الفكري. فالبلاط يرسم الخط الفكري للمجتمع بكامله «والناس على دين ملوكهم» كما يقول المثل العربي الشائع. فعبدالرحمن الثاني كان مولعاً بالعلوم الدينية منها والدنيوية وكان يُصر ويسعى في الوقت ذاته على أن يُظهر للعالم أن بلاطه لم يكن بأيّ شكل من الأشكال أقل شأناً وعظمة من بلاط الخلفاء في بغداد. ولتحقيق طموحه هذا، فقد جند باحثين وعلماء تابعين للبلاط عن طريق منحهم تسهيلات شتى للتغلب على مصاعب الحياة التي كانوا يعانون منها في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية في بغداد. فحسن ضيافته وطرق معاملته ومحبته للعلم والعلماء كانت كلها عناصر جذب لعدد كبير من الباحثين والشعراء والفلاسفة والمؤرخين الذين وضعوا حجر الأساس للحركة الفكرية الأندلسية والنظام التعليمي في هذه البلاد الناشئة مما أدى إلى إيصال اسبانيا إلى القمة لأربعة قرون لاحقة. هذا هو الأثر الأول لسياسة عبدالرحمن.

أثر آخر يجدر ذكره هو البدء بإعداد البنى التحتية للمكتبات (الخاصة منها والعامة) والمستشفيات والمساجد ومؤسسات الأبحاث والتي سارت الأمور فيها بخطى حثيثة وبنمو مطرد. وما أن وصلت أصداء هذه السياسة الانمائية إلى المشرق العربي ولدى التيقن من التسهيلات المقدمة إلى رجال الفكر والعلم هناك حتى بدأت أعداد منهم تتوافد تباعاً إلى «الغرب». ليس هذا فحسب، بل إن رجال فكر مشرقيين استطاعوا استقطاب العديد من تلاميذهم. ففي العالم الاسلامي، لم يكن مستغرباً أن يقطع التلميذ ــ طالب العلم ــ آلاف الأميال كي يجالس ويتتلمذ على يد أستاذ شهير.

على رأس لائحة العلماء المسلمين لا بد أن نذكر اسم عباس بن فرناس المتوفي عام ٨٨٨ للميلاد، والذي لو قُدر له أن يعيش في فلورنسة أيام عزها ومجدها لاستحق عن جدارة لقب «رجل النهضة». لقد قَدِمَ ابن فرناس إلى قرطبة لتعليم فن الموسيقى في وقت كانت الموسيقى لوناً من ألوان الرياضيات. ولما لم يكن بمقدوره أن يحصر همه بحقل معين، فقد استدرجه حبه للطيران إلى دراسة ميكانيكية الطيران. وأول إنتاج له في هذا الحقل كان صنع جناحين من الريش ملصقين على إطار خشبي ومن ثم محاولته الطيران متقدماً بذلك على ليوناردو



أحد نماذج علم الفلك عند العرب.

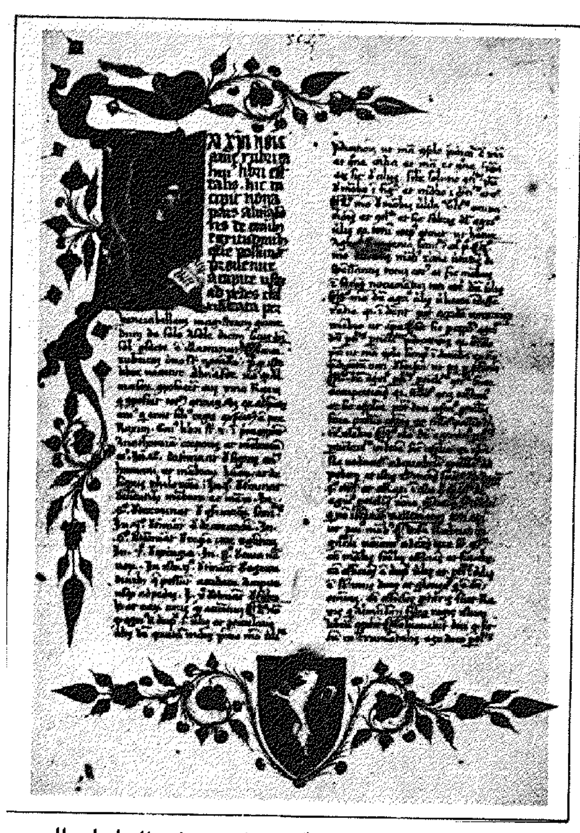
داوفنشي بما يقارب الستماية عام. ومن حسن الحظ فقد بقي «الطائر» على قيد الحياة ولم يتلق اية صدمة نفسية بل ثابر على عمله بأن بنى مركزاً لرصد حركات الشمس والقمر والكواكب السيارة والنجوم محرزاً بذلك تقدماً ونجاحاً ملحوظين. وما لبث أن اتجه نحو المسائل الرياضية المتعلقة بنظامية السُّطيحات (الوجيهات) لبعض انواع البلور (الكريستال) مستنبطاً بذلك اسلوباً جديداً لتصنيع البلور.

الجدير بالذكر أن معرفتنا بمنجزات رجل كعباس بن فرناس قد أتت إلينا عن طريق الصدفة. فالمخطوطات العربية في المكتبات الغربية والشرقية معاً تقارب في عددها الربع مليون. على ان المكتبات الخاصة في القرن العاشر للميلاد كانت تحتوي على ما يقارب النصف مليون كتاب. ومن الواضح أن ملايين الكتب قد اندثرت وزالت من الوجود ومعها دفنت انجازات الكثيرين من الباحثين والعلماء الذين لو قُدر لكتبهم أن تتحدى الزوال لكانت دون شك غيرت وجه التاريخ. فحتى الآن لم ينجز العالم دراسة كل كتب علماء العرب، ويبدو ان البشرية تحتاج إلى سنين عديدة قبل أن تتوصل إلى معرفة مدى المساهمة التي قدمها العلماء المسلمون في تاريخ الفكر الانساني.

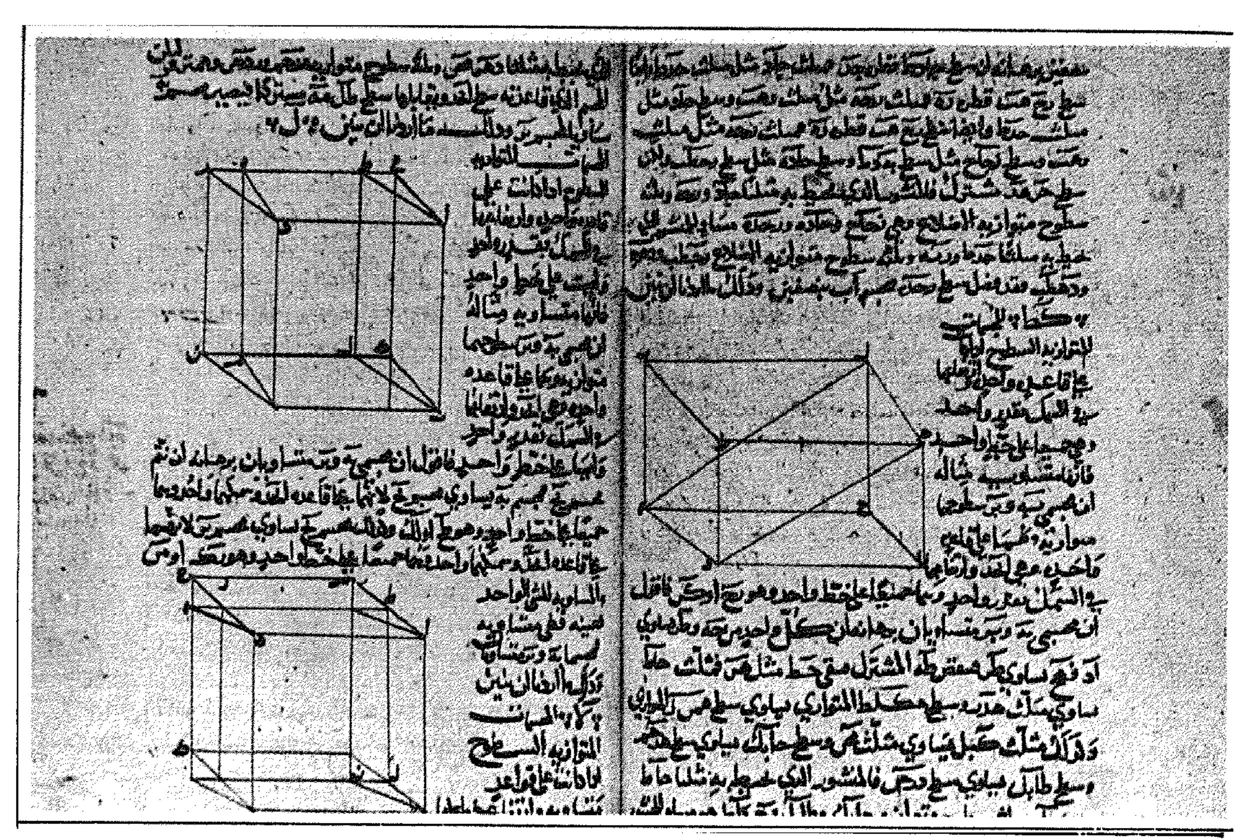
ومن الحقول التي شقت طريقها في اسبانيا على يد العلماء المسلمين نذكر العلوم الطبيعية. فمع ان علماء الأندلس لم يسهموا في هذا الحقل بالقدر الذي أسهم به إخوانهم في المشرق العربي، إلا أن ما قدموه وساهموا به قد قدَّم خدمات جلى إلى التطور العلمي والتكنولوجيا. فعبر هؤلاء الأندلسيين حيث وجد التقدم العلمي طريقه نحو الغرب الأوروبي.

لا بد لنا هنا من القول ان الفضل يعود بالدرجة الأولى إلى فن الترجمة. وبالمقارنة مع «بيت الحكمة» المزدهر ايام الخليفة المأمون، لم تنشأ في الأندلس اية مدرسة للترجمة على طراز «بيت الحكمة». لذا لم يبدأ اهتمام علماء الأندلس بالطبيعيات إلا بعد وضع أيديهم على نسخ من ترجمات «البيت».

الآن، ماذا عن الاهتمام بالرياضيات والفلك والطب؟ إن اهتمام الأندلسين بهذه العلوم كان شعلة دائمة الاشتعال في نفوسهم نظراً للفوائد الجمة والعملية لها. فالالمام بالرياضيات يخدم اهداف التجارة وينظم قوانين الارث في الاسلام ويسهل قياس المسافات. أما علم الفلك فيسهم في تحديد أوقات الصلاة وضبط التقويم الزمني. وأما الاهتمام بالطب فلا يحتاج إلى أي مبرر أو اية ذريعة. فأفكار أرسطو مثلاً، وإن دخلت بثوب عربي، فإنها ساهمت في إثارة نوع من الشكوك لدى الغرب المحافظ. وقد تطلب ذلك وقتاً لدى الرأي العام الأوروبي لتقبل المنطق الأرسطي الذي لا يتعارض مع «سفر الرؤيا» في الكتاب المقدس. جانب من هذا الشك يعزى إلى عدم توصل الغرب آنذاك إلى التمييز بين العلوم الصحيحة والعلوم الزائفة. وهذا التمييز بالذات توصل إليه المسلمون في مرحلة متقدمة جداً وقبل توصل علماء الغرب أنفسهم إلى هذا. فحتى خلال عصر النهضة، كان علماء الغرب يخلطون بين علم الفلك وعلم التنجيم، وبين علم الكيمياء وعلم الخيمياء (علم تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب). وابن حزم، أحد كبار علماء الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي، قال كلمة الفصل في



□ احتل فن الترجمة الحيّز الأهم عند العلماء العرب حيث عمدوا إلى نقل العلوم من العربية إلى اللاتينية.



□ اهتم علماء العرب في علم الرياضيات لانه يخدم اهداف التجارة ويسهل قياس المسافات.

هـذا المجال. فـالذين كرسـوا أنفسهم للسحر والشعـوذة والتعاويـذ والخيميـاء والتنجيم هم بنظره أصحاب الدجل والكذب. خلاصة القول، إن المنحى العقلاني في العلوم الطبيعية كـان الأبرز والأقدم لدى العلماء المسلمين.

بالاضافة إلى ما تقدم، فإن دراسة الرياضيات ودراسة علم الفلك سارتا جنباً إلى جنب. فكتاب الخوارزمي «حساب التكامل والمعادلة» وصل إلى الأندلس في حقبة تاريخية مبكرة، فاتحاً بذلك الباب الأول وراسماً الأساس الصحيح للتأمل والتفكير. فقـد عـالج الخـوارزمي المعـادلات الحسابية وجـداول الضرب والقسمـة وقياس المسافات ومسائل أخرى؛ كما انه كان السبّاق في حقل استعمال ما يعرف بالأرقام الهندية والأرقام العربية. وما يستعمله الغرب من أرقـام اليوم يعـود إلى ما كـان شائعـاً استعماله في بـلاد الأندلس. فنتاج الخوارزمي هذا موجود ضمن ترجمة لاتينية وضعت في اسبانيا خلال القرن الثاني عشر جنباً إلى جنب مع ترجمـة لكتاب اقليدس «العناصر». هـذان الكتابـان يشكلان الأساس الرئيسي لعلم الرياضيات وتقدمه في بلاد الأندلس.

والآن، من هم علماء الرياضيات الأندلسيين الذين قدموا الخدمات الجلى في هذا المضمار؟ أول اسم يتبادر إلى الأذهان هو مسلمة المجريتي الذي عاش في القرن العاشر للميلاد، وهو بحق أول علماء الرياضيات والفلك في الأندلس. فمع ان ابن أبـي عبيدة (القرن التاسع الميلادي) وابن تيمية (الوافد من بغداد) قد عاشا قبله، إلا أن المجريتي استطاع أن يكـون من طراز خاص. فهو واضع لعدد من الأعمال الرياضية والفلكية ودارس وشارح للترجمة العربية لكتاب بـطليمـوس «المجسـطي» ومصحـح لفلكيـات الخوارزمي. بالاضافة إلى ذلك، فقد وضع جداول التحويل بحيث ربط بين التقويم الفارسي والتقويم الهجري، فأصبح سهلاً وللمـرة الأولى تأريـخ أحداث بلاد فارس بدقة متناهية.

على اللائحة ذاتها حيث يندرج اسم المجريتي نـذكر اسم الزرقـلي وهو المعـروف في الغـرب اللاتيني تحت اسم ارزاكيل. هذا الرجل هو بحق

من مشاهير علم الرياضيات وعلم الفلك معاً وذلك في القرن الحادي عشر للميلاد. فقد جمع بين المعرفة النظرية والمهارة التقنية، كما تفوق في صنع آلات فائقة الدقة لدراسة الفلك. كما يعود الفضل إليه في صنع ساعة مائية تستطيع تحديد ساعات النهار والليل وأيام الشهر القمري. ليس هذا فحسب، فقد ساهم في جمع جداول توليدس التي تعتبر من أكثر المعلومات الفلكية دقة. اما كتابه الذي يحمل عنوان «كتاب الجداول» فقد ضمنه الزرقلي جداول تسهل معرفة أول يوم من أيام الشهر حسب التقويم القبطي والروماني والقمري والفارسي. كما ضمنه جداول أخرى تظهر أماكن تواجد الكواكب في أية مرحلة زمنية. يضاف إلى كل هذا احتواء الكتاب على جداول تسمح بالتنبوء بعمليات الخسوف والكسوف. وما يثير الاعتزاز في هذا المجال ان معظم أعماله ترجمت إلى اللغتين الاسبانية واللاتينية.

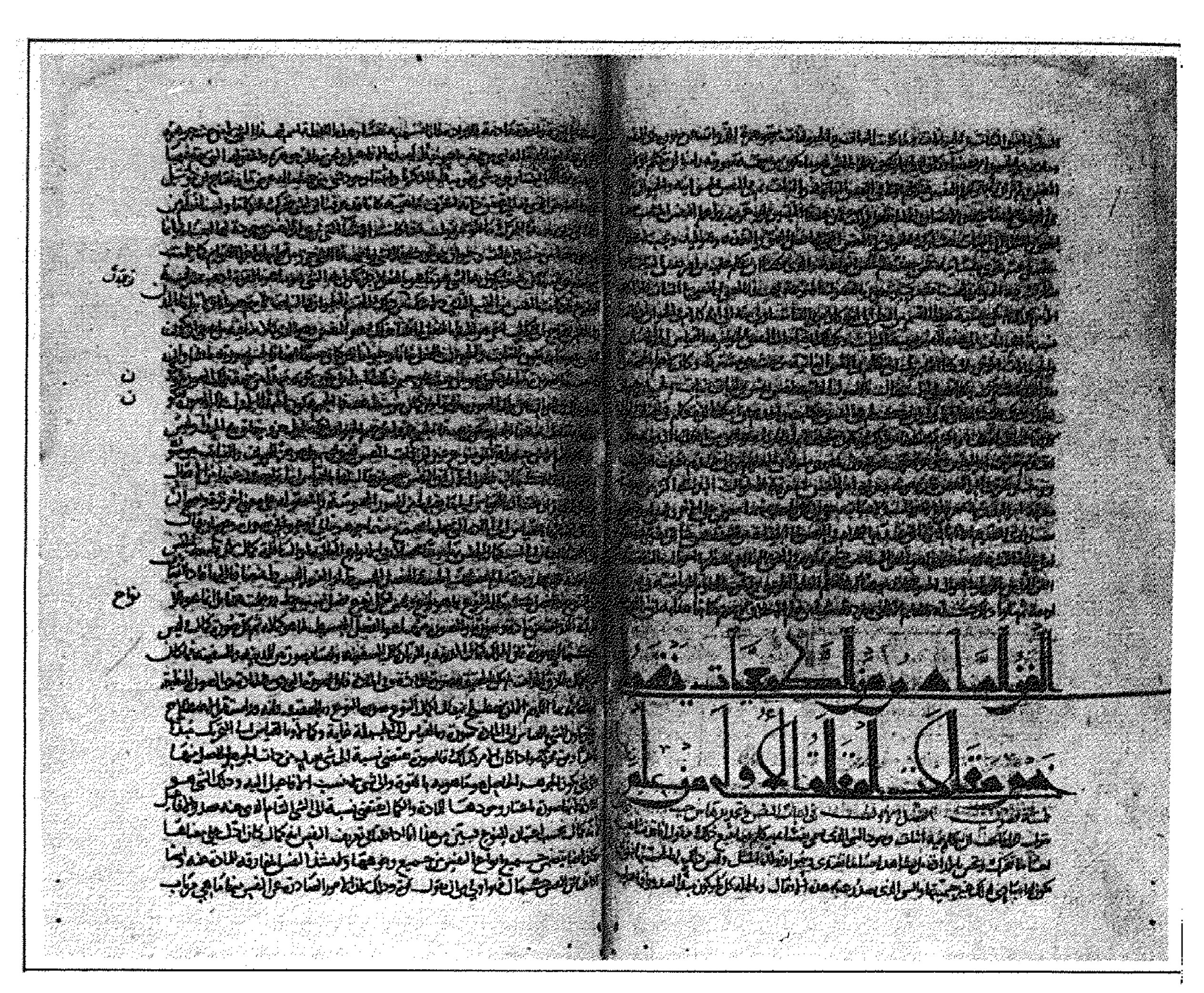
جنباً إلى جنب مع هذين العالمين يرد اسم ألمعي آخر ألا وهو البتروجي، هذا الذي عرفه علماء اللاتين في القرون الوسطى تحت اسم البتراغوس. من أهم منجزات هذا العالم العظيم وضعه نظرية جديدة حول مسيرة النجوم، هذه النظرية التي ضمنها كتابه المسمى «كتاب الشكل» وفيه شرح واف لها. والجدير بالذكر أن الكتب الفلكية في تلك الأيام كانت ذات تأثير عظيم ولا يزال أثرها حتى أيامنا هذه. فاليوم، وعلى سبيل المثال، لا بد أن نعترف بالفضل لهؤلاء العلماء الفلكين بوضعهم نظام التسميات للنجوم (العقرب — الطائر — الذّنَب — العجل... وكلها تذكرنا بعلماء الأندلس).

ويقودنا البحث، بعد أن القينا نظرة سريعة على هذا الغنى العلمي وهذه الثروة الفكرية، للاشارة إلى أن الطب العربي قد احتل الحيّز الأهم والاهتمام الأكبر. فالاهتمام بالطب ليس وليد الجهد الأندلسي، بل يعود إلى حقبة تاريخية بعيدة. فالنبي الكريم أعلن بنفسه «أن هناك دواء لكل داء»، كما ادرك أن بعض الأمراض هي من النوع المعدي. مع كل هذا، حريّ بنا القول إن المساهمة الكبرى للعربي في مجال الطب كانت في إنشاء قاعدة علمية للطب وفي التخلي كلياً عن الايمان بالخرافات وممارسات الشعوذة القبلية.

فالطب، كما هو معلوم، حقل تقني يحتاج فيما يحتاج إلى عناء وطول أناة كبيرين، بالاضافة إلى الدراسة والتمرس المستمرين. والانجاز الأندلسي في هذا المضمار لا غبار عليه. فقد نجح الأطباء الأندلسيون في وضع أنظمة تتعلق بمهنة الطب والأطباء وسلوكيتهم. فلم يكن كافياً أو مقبولاً اتقان حقل من حقول التخصص الطبي كي تسهل ممارسة المهنة. فهناك بعض الصفات الأخلاقية الواجب توفرها في شخصية كل طبيب، والتي من دونها يفقد الممارس صفة الطبيب. فابن حزم حدّد بعض هذه الصفات بقوله انه يتوجب على الطبيب أن يكون لطيفاً ومتفهماً وصدوقاً وقادراً على تحمل الاهانات والنقد الجارح بصدر رحب. عليه ايضاً أن يحتفظ بشعر قصير مقصوص وأظافر نظيفة وقصيرة ايضاً. أما الهندام فيتميز بالنظافة وباللون الأبيض. وأما التصرف فبوقار ونبل ملحوظين. والملفت للنظر في هذا الاطار هو الاذن المعطى للطبيب لممارسة مهنته. فعلى الطبيب أن يفوز أولاً بمباراة دخول وبعدها يسمح له بقسم اليمين، أي قسم ابقراط. فإن خالف القسم كان مصيره الطرد من المهنة.

إن تنظيماً دقيقاً كهذا يبقى منقوصاً إن لم يرافقه تنظيم آخر لا غنى عنه، ونقصد به تنظيم المستشفيات. فمستشفى قرطبة الكبير شاهد على عدم اهمال الأندلسيين لهذه الناحية. فقد توفرت له كل التسهيلات الضرورية: مياه جارية، حمامات ساخنة، أقسام متنوعة لمعالجة مختلف الأمراض. ولكل قسم من هذه الأقسام اختصاصي مسؤول يتولى إدارته والسهر عليه. هذا بالاضافة إلى أنه كان على المستشفيات أن تعمل على مدار الساعة ويومياً حتى تتمكن من استيعاب الحالات المستجدة والطارئة. فلا مجال لعدم استقبال أي مريض مهما كان نوع مرضه.

إن في هذه الحقائق الكثيرة دلالة واضحة على مدى المساهمة الفنية التي قدمها الأطباء المسلمون إلى عالم الطب والتي ورثوها في البداية عن قدامى الاغريق. فابن النفيس مثلاً هو الذي اكتشف بطء الدورة الدموية متقدماً مئات السنين على الباحث الكبير هارفي. كما ان فكرة الحجر الصحي (الكرنتينا) جاءت نتيجة العمل



□ نموذج من المخطوطات العربية التي تبيّن مدى المساهمة التي قدمّها العلماء المسلمون في تاريخ الفكر الانساني.

التجريبي لانتقال العدوى من شخص مريض إلى شخص سليم. مثل آخر هو ابن جلجل الذي ولد في قرطبة في العام ٩٤٣ . هذا الرجل الفذ أصبح طبيباً وهو في سن الرابعة والعشرين إذ انه بدأ دراسة الطب وهو بعد في سن الرابعة عشرة. من أهم أعماله التعليق الذي كتبه حول كتاب ديوسكوريوس والمعروف باسم «المواد الطبية»؛ كما كتب رسالة خاصة حول الأدوية التي كانت شائعة في بلاد الأندلس. يضاف إلى التعليق والرسالة الخاصة كتابه «أصناف الأطباء» الذي أعده بناء على رغبة أحد أمراء بني أمية حيث عرض فيه تاريخ مهنة الطب منذ أيام أوسكولابيوس وحتى أيامه.

في القرن العاشر للميلاد أنجبت الأندلس عدداً لا يستهان به من الأطباء الممتازين. بعضهم رحل إلى بغداد حيث درس الانتاج اليوناني في عالم الطب وذلك عن طريق الأعمال المترجمة التي قام بها الثابت بن قرة والثابت بن سنان. وعلى اثر عودة هؤلاء إلى الأندلس تمت استضافتهم في البناء الذي خصصته الحكومة لهم في مدينة الزهراء. نذكر، على سبيل المثال، أحمد بن حرّان الذي عين مسؤولاً عن المستوصف الطبي المجاني للرعاية الصحية من مرض وغذاء والمخصص للمرضى الفقراء. كذلك نذكر ابن شهيد، الطبيب المشهور، واضع الكتاب العظيم حول طرق استعمال الأدوية الطبية. فابن شهيد، كالكثيرين من معاصريه، نصح باستعمال الأدوية فقط في الحالات التي لا يستجيب فيها المريض إلى الحمية الغذائية. فتنظيم الغذاء يأتي أولاً وإن لم تحصل النتيجة المرجوة فلا بأس باعتماد الأدوية المركبة. حتى انه ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال انه إذا لم يكن بد من استعمال الدواء،

فليكن الدواء من النوع البسيط الخفيف لجميع الحالات المرضية باستثناء الخطرة منها.

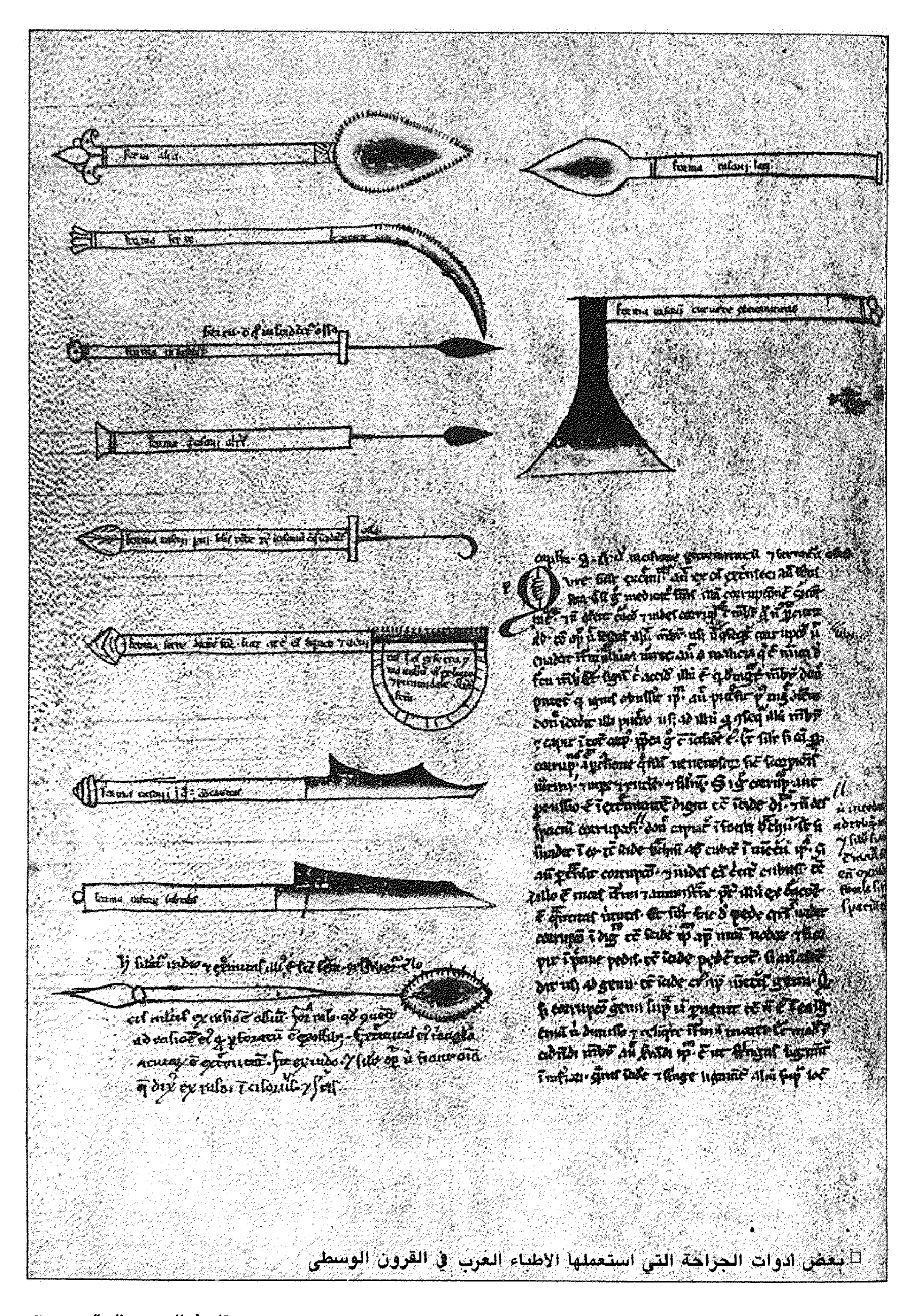
بالاضافة إلى هذا الرعيل من الأطباء، لا بد لنا من ذكر اسم الزهراوي المتوفي عام ١٠١٣ ميلادية. الزهراوي، دون شك، أعظم الجراحين ليس في الأندلس فحسب بل على امتداد القرون الوسطى في تلك البقعة من العالم. فقد كان الطبيب الخاص للخليفة الحكم الثاني وكتابه الشهير «التصريف» ترجم على يد جيرار أوف كريمونا إلى اللغة اللاتينية ليصبح الكتاب الطبي الرائد في جامعات أوروبا في أواخر القرون الوسطى. فالقسم المتعلق بالجراحة في كتاب «التصريف» يحتوي على عدد من الايضاحات حول أدوات الجراحة التي تتمتع بمستوى رفيع وتصميم حسن ودقة متناهية. هذا بالاضافة إلى الأوصاف الدقيقة لجراحة الأسنان ومعالجة الجروح والكسور.

ويقودنا البحث إلى ابن زهر المعروف لدى الغرب باسم افنزوار والمتوفي عام ١١٦٢. هذا الطبيب، المتمتع بشهرة عالية في شمال افريقيا واسبانيا، هو أول من أعطى ــ وللمرة الأولى ــ وصفاً للخراج وللورم الخبيث في المنصَف (الحيّز المشتمل على القلب وكل ما في الصدر باستثناء الرئتين). ويعود الفضل إليه أيضاً في حقل إجراء التجارب الأولى في فن الشفاء (علم المداواة). من اهم أعماله كتابه «التيسير» الذي ترجم كزميله «التصريف» إلى اللاتينية. كان ذلك في العام ١٢٨٠ حيث أصبحا معاً مقياساً ومرجعاً طبياً.

ومن ضمن الاهتمام بالطب عامة كان هناك اهتمام خاص وتركيز دقيق على علم النبات. في هذا الاطار، يرد اسم أشهر الأندلسيين العرب، الا وهو ابن بيطر مؤلف كتاب «مجموعة الأدوية البسيطة والمآكل». هذا الكتاب هو عبارة عن خلاصة وافية للنباتات الطبية على اختلاف انواعها والتي كانت معروفة لدى سكان اسبانيا وبلاد شمال افريقيا. وقد توصل ابن بيطر إلى سعة الاطلاع والمعرفة من خلال خبرته الطويلة في البحث على الطبيعة عن طريق جمع النباتات ودراستها. والنباتات التي اتى على ذكرها مصنفة في كتاب حسب الأحرف الأبجدية؛ وهذا ما يسهل امر استعماله والاستفادة من المعلومات الواردة فيه. وما يميز الكتاب أيضاً احتواؤه ليس على اللفظة العربية للنبتة فقط بل وأيضاً اللفظة أو التسمية البربرية واللاتينية مما جعل الكتاب مرجعاً لغوياً يثير فضول فقهاء اللغة بجانب كونه مرجعاً علمياً نباتياً طبياً. ميزة أخرى من ميزات هذا الكتاب هي أن كل مقالة من مقالاته تحتوي على معلومات وافية حول طريقة تحضير الدواء من النبات وطرق استعمال هذا الدواء وفوائده والكمية المقترح استعمالها أو تناولها من قبل المريض.

يبقى البحث منقوصاً إن توقفنا عند هذا الحد ودون أن نأتي على ذكر ابن الخطيب، أحد كبار الأطباء الأندلسين ممن لا يسع التاريخ ولا العلم أن ينساهم. في شخصية ابن الخطيب اجتمعت شخصيات كثيرة كل واحدة منها تثير اعتزازاً في النفس كثيراً. من محب للعلم إلى شغوف بالطب، ومن مهتم بالتاريخ إلى ناظم للشعر، وفوق كل هذا حمل صفة رجل دولة. من مؤلفاته كتاب حول نظرية انتقال العدوى حيث يقول: «إن حقيقة الاصابة لمرض تظهر جلياً أمام المتتبع لها بحيث يمكن ملاحظة كيفية انتقال العدوى إلى شخص آخر عن طريق الاتصال، وكيف أن سبل هذا الانتقال متعددة، فهي تتم عبر الألبسة والأوعية المستعملة وأقراط الأذن». في النهاية، يمكن اعتبار ابن الخطيب آخر طبيب في القافلة الأندلسية؛ فبعد وفاته وهنت عزيمة المسلمين نحو الطب والطبابة لتتجه نحو الصراع المضني والطويل مع الفتح المسيحي الأوروبي.

ماذا عن العلوم الأخرى؟ بعد علوم الرياضيات والفلك والطب احتلت الجغرافية المرتبة الأبرز بحيث أن أرفع وأعظم من أنتجه المسلمون في هذا الحقل يعود إلى الأندلسين بالذات. فالاعتبارات الاقتصادية والسياسية كان لها شأنها وقد لعبت دوراً بارزاً في إنماء الفضول العلمي نحو هذا العلم. فالاهتمام بهذا الكون وأجناس الناس فيه وعليه كان دافعاً قوياً للمضي بالبحث والتدقيق إلى أبعد من الملاحظة الحسية. من هنا بدأ الأندلسيون تكريس أوقاتهم إلى وصف الأرض وسكانها. إن أول الخطوات في هذا المجال جاءت على يد المشرقيين حيث «كتب السبل»، كما كانوا يسمونها، قد جمعت ووضعت



◻ بعض أدوات الجراحة التي استعملها الأطباء العرب في القرون الوسطى

بتصرف المسؤولين عن البريد والرسائل لدى الخلفاء العباسيين. كما وضعت كتب أخرى تحتوي على تقارير شبه مفصلة عن الأقطار البعيدة وانواع التجارة فيها وعن تكوينها الجغرافي وذلك نزولاً عند رغبة الخليفة ووزرائه. هذا وإن التقدم في حقلي الرياضيات والفلك قد سهّل كثيراً رسم الخرائط الجغرافية اللازمة، ومع مرور الزمن اصبح لرسم الخرائط نظام قائم بذاته.

الخوارزمي مثلاً الذي عمل كثيراً من اجل تقدم علم الرياضيات، كان، في الوقت ذاته، من اول علماء الجغرافية. اما اكتسابه لهذه المعلومات والمعرفة فكان استناداً إلى الترجمات المتوفرة لكتب بطليموس، مما حدا به إلى كتابة مؤلفه «شكل الأرض». هذا الكتاب بالذات يحتوي على خرائط للأرض والسماوات مع شروحات لها.

اما في بلاد الأندلس، فقد طوّر ابن محمد الرازي، المتوفي عام ٩٣٦ ميلادية، هذه المعلومات الخوارزمية وأصدر كتاباً من جغرافية الأندلس لأهداف محض إدارية. رجل آخر عاصر الرازي هو محمد بن يوسف الورق، الذي ألف كتاباً مشابهاً واصفاً السمات السطحية (الطوبوغرافيا) لأقاليم شمال افريقيا. وقد حصل على هذه المعلومات عن طريق التجار في أسفارهم والقادمين خاصة من اقطار وأقاليم شمال افريقيا. فابراهيم بن يعقوب مثلاً وهو المشهور بأسفاره في أوروبا وبلاد البلقان ساهم أيضاً في حقل الجغرافية حيث وضع يوميات لرحلاته الكثيرة. وقد اشتهر عن هذا الرحالة شجاعته ورباطة جأشه وحبه للمغامرة واكتشاف المجهول.

ومن المبرزين أيضاً في حقل علم الجغرافية الادريسي الذي كان يطلق عليه اسم «أحول العرب». ولد الادريسي في قرطبة في العام ١١٠٠ للميلاد. عرف عنه ولعه بالسفر، وقد تجول كثيراً في اسبانيا وشمال افريقيا ليحط الرحال في صقلية حيث عمل لدى الملك روجيه الثاني. فما أن كلفه الملك بكتابة جغرافية العالم حتى باشر على الفور. وكتابه لا يزال موجوداً ولكن تحت عنوان «كتاب روجيه» نسبة إلى الملك، وفيه يصف الادريسي العالم بشكل منظم متبعاً النظام الاغريقي في تقسيم العالم إلى سبعة مناخات. كل مناخ منها يتجزأ إلى عشرة أجزاء. وتسهيلاً للاطلاع والفهم فقد وضع كل مناخ من هذه المناخات على خارطة مستقلة فجاءت جميع خرائطه فائقة الدقة وسهلة التناول إذا ما قيست بمقياس العصر الذي وضعت فيه. فالخريطة الواحدة لم تكن رسماً وحسب بل ضمنها الادريسي شرحاً للمسافات المعتمدة في الفصل بين المدن الرئيسية كما زودها بوصف للعادات والتقاليد السائدة عند سكانها والمنتوجات الرائجة فيها مع المناخ المسيطر عليها. حتى انه بلغ حداً سجّل فيه أحداث رحلة قام بها بحار مغربي، هذا البحار الذي اودت به الرياح إلى المحيط الأطلسي مبحراً مدة ثلاثين يوماً ليعود ويروي قصصاً عن ارض خصبة جداً يقطنها اناس متوحشون. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كانت هذه الأرض أرض أميركا؟

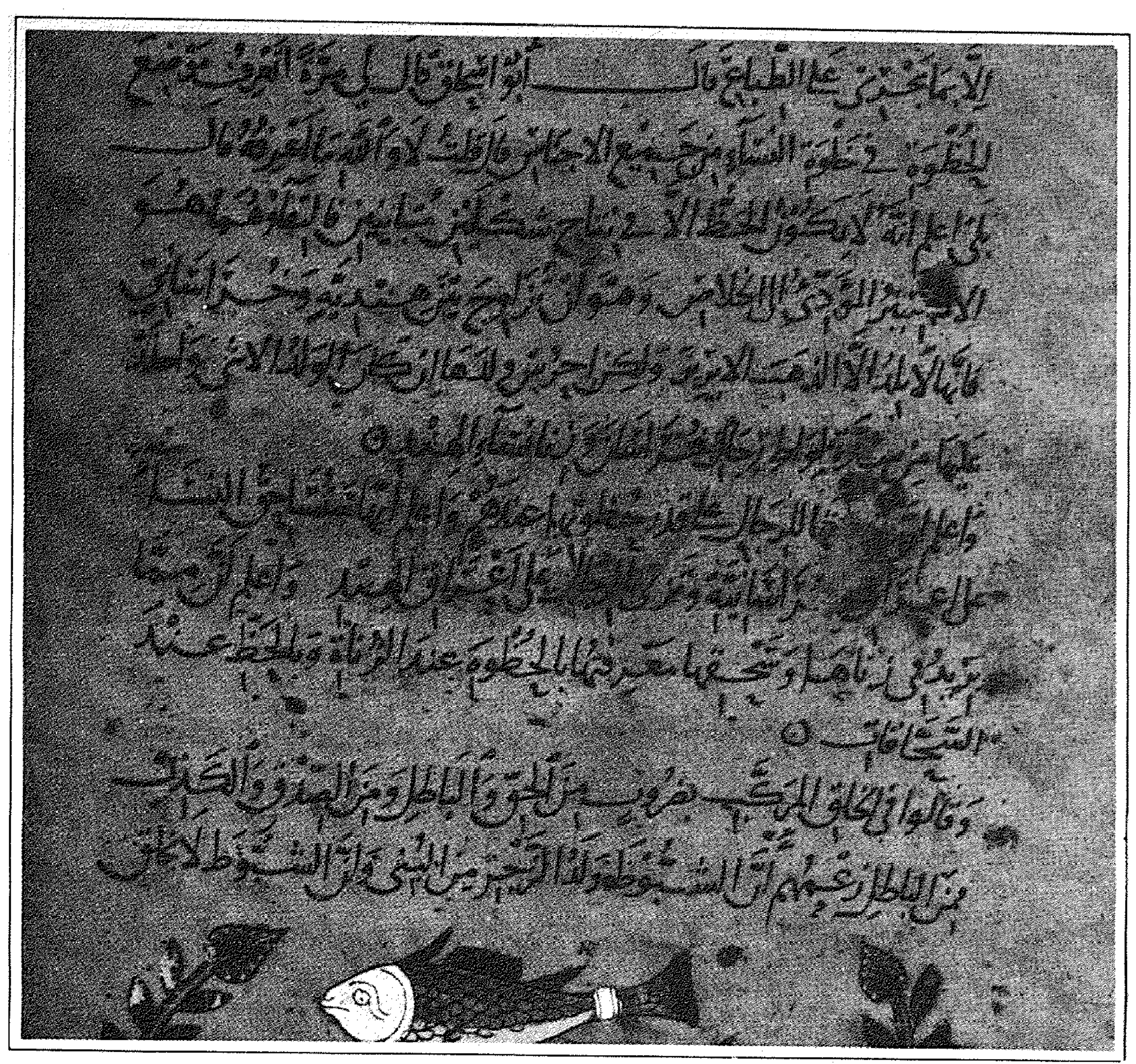
ويقودنا البحث في عالم الجغرافية إلى الحديث عن الأسفار. وأشهر اسم نتوقف عنده هو ابن بطوطة، الرحالة الكبير والسائح الأعظم في عصره وربما في غير عصره. فقد كان زائراً لشمال افريقيا وسوريا ومكة والمدينة، بالاضافة إلى العراق. كما قاده شغفه وفضوله إلى اليمن من ثم ابحر عبر النيل والبحر الأحمر وآسيا الصغرى فالبحر الأسود؛ كما عرّج على القرم والقسطنطينية، ولم يترك أفغانستان والهند والصين دون أن تدوسها قدماه لتنتهي أسفاره في غرناطة حيث توفي عن عمر ناهز السبعين.

يبدو من المستحيل ان نعدل تجاه جميع هؤلاء العلماء دون أن نأتي على ذكر الذين سطروا للأندلس مجداً عظيماً في حقلي التاريخ والعلوم الانسانية والتي تندرج تحت عنوان كبير شامل هو العلوم الاجتماعية. هذه العلوم التي طورها وشذّبها العرب، رفعها الأندلسيون إلى مرتبة عالية. فابن الخطيب، وقد أتينا على ذكره آنفاً في مجال التحدث عن نظرية الأمراض المعدية، كان مؤلفاً وواضعاً لأرفع تاريخ كُتِبَ حول وعن غرناطة،وابن الخطيب هذا هو ابن غرناطة الوفي؛ وقد ولد في العام ١٣١٣ وتتلمذ حسب الأصول التعليمية والأكاديمية السائدة آنذاك، فدرس القواعد اللغوية والفنون الشعرية والعلوم



عجيبة وداعية إلى الفكر وسببا إلى التعجب والتعجيب وكذلك لا ... في
الجعل الذي ... في الورد ... حركته وبطلت في رأي العين روحه
ومتى أعيد إلى الروث ... عادت حركته ورجعت حياته أعجب الأعجب
وإلهام الحكيم
وأي شيء أعجب من الخلد وكيف يأتيه رزقه وكيف يهيئ الله له ما يقوته وهو
أعمى لا يبصر وأصم لا يسمع وبليد لا يتصرف وأبله لا يعرف ومع ذلك انه لا
يجوز باب جحره ولا يتكلف سوى ما يجلب اليه رزقه ورازق غيره. وأي
شيء أعجب من طائر يبعث له رزق الا أن يخلل أسنان التمساح فيكون ذلك رزقا له وترويحا
من التمساح

□ مخطوطة علمية تدل على مدى اهتمام العلماء العرب بكافة العلوم



□ مخطوطة علمية تدل على مدى اهتمام العلماء العرب بكافة العلوم.

الطبيعية والقوانين الاسلامية وطبعاً القرآن الكريم. وعلى أثر مقتل والده الذي كان يشغل منصباً رسمياً هاماً في الدولة، استدعى حاكم غرناطة ابن القتيل وأسند إليه المنصب ذاته مضيفاً إلى مسؤوليات هذا المنصب مهام دائرة المراسلات. ولم يمض زمن طويل حتى جاز الموظف الجديد على ثقة حاكمه وحصل على أثر ذلك على منصب ذي شأن كبير.

ورغم مشاغل ابن الخطيب الوظيفية فقد تمكن من إيجاد الوقت اللازم لكتابة أكثر من خمسين كتاباً تناول فيها مواضيع عدة: الرحلات والطب والشعر والموسيقى والتاريخ والسياسة والدين. هذه الانجازات العلمية والأدبية الضخمة جعلت منه الرجل الأكثر شهرة في عصره. ولم يكن لينافسه على هذه الشهرة من معاصريه إلا ابن خلدون، هذا المؤرخ الكبير الذي سعى فيما سعى لتنمية وتفسير القوانين العامة التي تتحكم بنمو وانحلال الحضارات الانسانية. فمؤلفه الضخم يحتوي على أجزاء سبعة. الجزء الأول ويحمل اسم «المقدمة» يقدم تحليلاً معمقاً ومفصلاً عن المجتمع الاسلامي وبالطبع الانساني بشكل عام لسبب بسيط، وهو إقدام ابن خلدون على إجراء المقارنات بين المجتمعات المتعددة. هذا التحليل يعطي القارىء صورة واضحة عن كيفية انتقال المجتمعات الانسانية بين مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر ومن ثم

الانحدار من التحضر إلى الانحلال الكامل بالتحول تدريجياً لقمة سائغة في أفواه مجتمعات بربرية أو أقل تحضراً. ومن البديهي القول إن الأسئلة التي طرحها ابن خلدون لم تلق حتى الآن العناية اللازمة والمطلوبة من رجالات الفكر الانساني في العالم. فمن يرغب في الاطلاع على كيفية نمو وسقوط الحضارات وكيفية انحلال الحياة المدنية وصورة العلاقات المعقدة بين المجتمعات المتطورة وبين المجتمعات التقليدية، ما عليه إلا أن يطالع بإمعان «مقدمة» ابن خلدون.

في نهاية المطاف ومع كل ما تقدم نجد أنفسنا مجبرين لا مخيرين على عدم إغفال أهمية الفلسفة في دراستنا لهذه الحركة العلمية النشطة التي تميز بها المجتمع العربي الأندلسي. وقد يصعب أن نلقي أكثر من نظرة سريعة على «أم العلوم» نظراً لوعورة هذا المسلك. فمنذ القرن التاسع للميلاد والعلماء الأندلسيون، كما زملاؤهم في بغداد، وهم يجهدون في دراسة المشكلات الدينية التي فرضتها الفلسفة اليونانية في غزوها للعالم العربي والسؤال الأكبر والأبرز الذي طرح آنذاك هو كيفية إيجاد توافق بين العقل والمنطق من جهة والرؤيا الدينية من جهة اخرى.

كان ابن حزم أول من خاض غمار هذا الحقل مؤيداً بعض أفكار وآراء أرسطو بحماس ملحوظ ورافضاً ومشككاً ببعضها الآخر. ولم يواجه ابن حزم أي حرج أو صعوبة في إعطاء الأمثلة التوضيحية حول إمكانية تطبيق منطق أرسطو على بعض مسائل الشريعة الاسلامية. وفي الحقيقة أن ما من أحد استطاع أن يفلح كما فلح ابن حزم في تصويره قدرة الدين الاسلامي على فهم الأفكار الغريبة واستيعابها والتكيف معها. يقول في مقدمته «ليكن معلوماً أن من يقرأ كتابنا سيجد أن منفعة وفائدة هذا النوع من العمل لا تقتصر أو تنحصر بنظام واحد فقط، بل تشمل القرآن الكريم والحديث الشريف والقرارات الشرعية المتعلقة بما هو متسامح به وما هو غير متسامح به، وبين ما هو الزامي وما هو قانوني.

وقد اعتبر ابن حزم المنطق وسيلة نافعة، كما رأى أن الفلسفة يمكن أن تنسجم مع الرؤيا الدينية على الأقل ألا تتعارض معها. وابن حزم، دون أدنى شك، أحد عمالقة الفكر التاريخي في الاسلام. ويبقى من غير العدل أن نكوّن رأياً أو نبني حكماً على رجل كتب أكثر من ٤٠٠ كتاب معظمها اندثر أو بقي محفوظاً على شكل مخطوطات.

أما ابن باجه فهو عَلَم آخر من أعلام الفلسفة مع العلم أن ابن رشد هو الذي احتكر هذه الشهرة الواسعة. فهو أرسطي النزعة وكتاباته كان لها أثر دائم على نمو وتطور الفلسفة الأوروبية.

ويقودنا المطاف إلى النقطة الأخيرة وهي حقل التكنولوجيا فالابتكارات الأندلسية في هذا المضمار قد لعبت دورها أيضاً في الفترة الممتدة ما بين العصر الأندلسي وحتى نهاية العصور الوسطى. وقد اتينا سابقاً على ذكر الورق وأهميته الحضارية، والآن نذكر الطاحونة الهوائية وصناعة المعادن وصناعة السيراميك وفن البناء وفن النسيج وفنون الزراعة. وقد تميز الأندلسيون بعشقهم للجنائن والحدائق الغناء حيث عبروا عن حبهم للجمال بقدر ما عبروا عن اهتمامهم بحقل الطب وعلم النبات. وهناك بحثان أو رسالتان حول الزراعة، إحداهما — وقد ترجمت إلى اللغة اللاتينية في القرون الوسطى — من نتاج أندلسي وقد أعدها ابن الأعوان وفيها لائحة نباتية تضم أسماء ٥٨٤ عينة من النباتات. بالاضافة إلى هذه الأسماء يجد القارىء تعليمات دقيقة حول استعمالاتها وكيفية الاعتناء بها. ومع أن هذا الانجاز التقني الكبير لم يتم التمحيض فيه بشكل تفصيلي إلا انه امتاز بالتأثير الكبير على الثقافة الأوروبية المادية يوازي بأهميته تأثير المفكرين المسلمين على مفكري وفلاسفة أوروبا للقرون الوسطى. إن هذه الفنون الحضارية هي التي تجعل الحياة الانسانية متعة بدلاً من أن تكون عبئاً ثقيلاً، وإلا لتحول التأمل الفلسفي إلى عمل جاف لا لذة فيه. ●

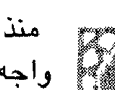
□ من مجلة: Aramco world magazine May-June 1982.



الوثائق القومية

محمد محجوب مالك

الوثائق هي الأوعية التي تحمل في طياتها أنشطة مجموعة من الناس اكتسبت لغتها وحضارتها من البيئة التي عاشت فيها. وبتقدم الحضارة البشرية وظهور المجتمعات اهتدى الانسان إلى الكتابة كأداة للتعبير فساعدته على تسجيل أفكاره وتجاربه التي استنبطها من بيئته الجغرافية، وهذه الأفكار والتجارب هي أساس التطور البشري. ومن أهم العوامل التي تؤدي إلى تكوين القرابة المعنوية التي يشعر بها الأفراد في الأمم المختلفة اللغة والتاريخ فإن الاعتقاد بوحدة الأصل إنما يكون في الدرجة الأولى من الوحدة في اللغة والاشتراك في التاريخ[١].



منذ أن عرف نظام تدوين التاريخ واجه الانسان مشكلة إدارة الوثائق. ومن الشعوب القديمة خلف الأشوريون أكبر مجموعة من الوثائق في شكل ألواح مادتها من الطين الصلصال الذي لا يفنى، وشملت هذه اللوحات خطاباتهم الخاصة، عقود العمل، الأعمال الدينية، معادلات رياضية وعلمية، قصص. أما الوثائق العامة فشملت القوانين واللوائح[٢].

واهتم الاغريق بحفظ وثائقهم في معبد أم الآلهة (المترون) وتحوي تلك الوثائق المعاهدات والقوانين ومحاضر الجمعية، بعض الروايات التمثيلية ومرافعة سقراط. واهتم الاغريق بعلم التاريخ فكلمة (Istoria) الاغريقية كان يقصد منها البحث عن الأشياء الجديدة بالمعرفة ثم اقتصرت الكلمة على معرفة الأحداث وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع[٣].

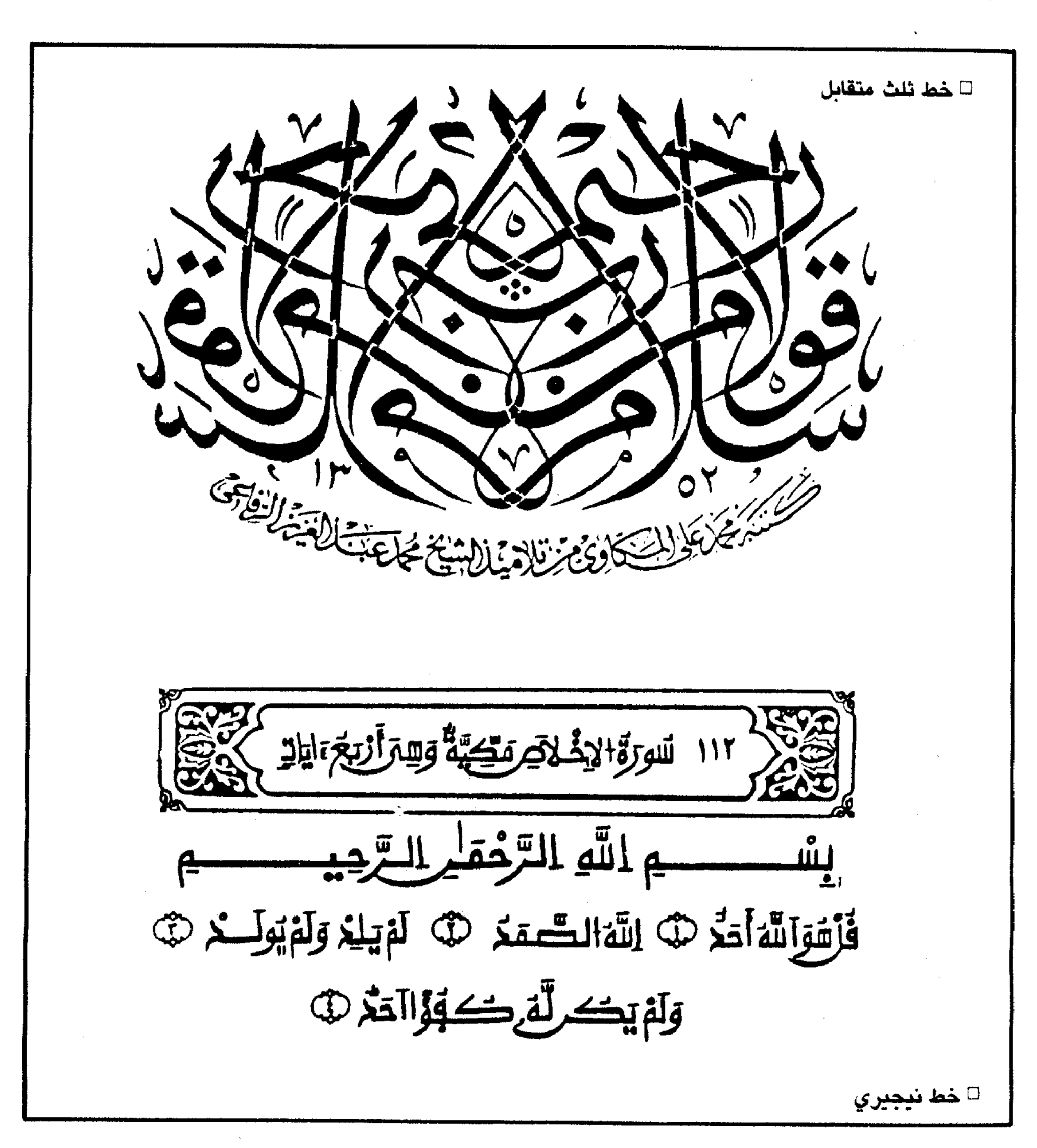
أما الرومان فقد اهتموا بحفظ السجلات، ولعل أقدم نوع لنظام السجلات عرف في روما حيث كان القضاة يسجلون ملاحظاتهم اليومية، وتطورت هذه المذكرات إلى ما يعرف بجرنال المحكمة وتسجل الوثائق في تسلسل تاريخي بالاضافة إلى وقائع الاجراءات القانونية والاثبات المقدم من المتخاصمين.

إن عملية حفظ دفاتر الخطابات عند الرومان أثرت بدورها على الكنيسة التي تعتبر القنطرة الموصلة بين العصور القديمة والعصور الوسطى. كانت الكنيسة في مأمن من الاضطرابات فصار الأباطرة والفرسان يودعون مقتنياتهم الثمينة فيها خوفاً من الضياع بسبب الحروب. إلى جانب

ذلك كانت الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة التي يوجد فيها النساخ ولديهم الوقت الكافي للقيام بنسخ الوثائق. وبهذه الطريقة استولت الكنيسة على كميات كبيرة من وثائق الامبراطورية الرومانية[٤].

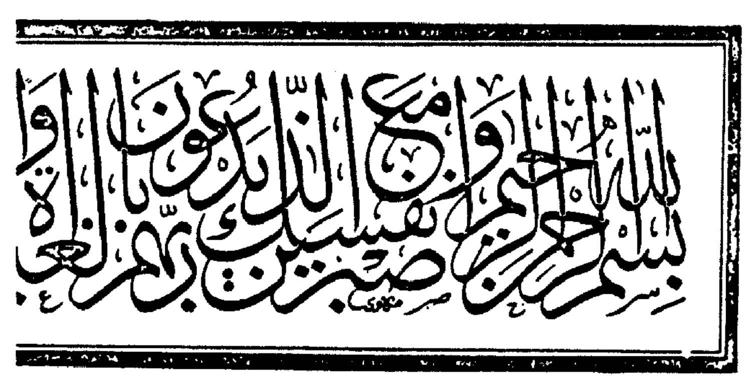
اهتم العرب بالشعر وكانت تُعلّق القصائد الجيدة في الكعبة والتي عرفت بالمعلقات وبقيت منها سبع معلقات مشهورة. ومنذ العام الأول للهجرة أنشئت الدواوين لادارة الدولة ومن أشهرها ديوان الانشاء وديوان الجند، ولم تحفظ أصول وثائق الدواوين في الدولة الاسلامية ولكن نسخت بعضها في المخطوطات ونقلت إلى كتب عند ظهور الطباعة. واهتم العرب بالكتب والمكتبات ومن أقدم المكتبات مكتبة سنحاريب ودار الكتب بقرطاجنة والتي أسست في القرن السادس قبل الميلاد.

ومنذ ظهور الاسلام ظهرت المكتبات بدار الخلافة وقل أن يخلو مسجد أو رباط من مكتبة،



□ خط ثلث متقابل

□ خط نيجيري



□ خط ثلث مركب ثلاث طبقات.
محمد علي المكاوي.

□ (لا إله إلا هو ربـي ورب العالمين)
خط ثلث تركيب متقابل
الخطاط التركي «محمد شفيق».

كما كانت توجد مكتبات متخصصة يطلق عليها بيت الحكمة، ومن أشهر هذه البيوت بيت الحكمة ببغداد والقيروان.

وفي القارة الأوروبية أسهمت الثورة الفرنسية في أمر الاهتمام بالوثائق القومية إسهاماً كبيراً، وأصدرت الجمعية الوطنية تشريعاً لحفظ مستندات الثورة وبرز السؤال الكبير، ماذا يفعل بالوثائق السابقة للثورة والتي يرجع عمر بعضها للقرن الثاني عشر؟ أصر الثوريون على إبادة هذه الوثائق لما تحويه من حقوق وامتيازات للعهد القديم ولكن معارضيهم في الرأي رأوا أن هذه الوثائق أصبحت ملكية عامة ومن الخير الاحتفاظ بها لفائدة الشعب الذي يجب أن يعطى الفرصة للاطلاع على هذه الوثائق الرسمية لحماية مصالحه التي نتجت من تصفية الاقطاع.

وبعد ذلك بسنوات أنشئت دور الوثائق في البلاد الأوروبية الأخرى لعوامل وأسباب تختلف عن العوامل والأسباب التي أدت إلى إنشاء دار الوثائق القومية بباريس. ومن الدول الأوروبية تسربت الفكرة إلى دول آسيا وافريقيا.

وخلاصة القول إن معظم دول العالم تهتم بأمر وثائقها القومية كتراث قومي، للاستفادة من هذا التراث في الميدان الثقافي، ووضعت هذه الوثائق تحت تصرف العلماء من المؤرخين وغيرهم ليسهموا بجهدهم الفكري لصالح المجتمع الانساني، وعكف المؤرخون على دراسة هذه الوثائق لكتابة التاريخ بطريقة علمية مبنية على الواقع. وقبل اهتداء المؤرخين إلى أهمية الوثائق في كتابة التاريخ كانت أعمالهم عبارة عن روايات وسرد للحوادث فوقعوا في كثير من الأخطاء ثم تقدم التأليف في علم التاريخ وأصبح المؤلف يفسر الحوادث بعد أن كان يعتمد على مجرد سردها أو وصفها ــ إلا أنه في تفسيره للحوادث اقتصر على ناحية واحدة وكان يفسرها من الناحية السياسية أو الدينية فقط. وتلى ذلك تقدم آخر في التفسير لم يقتصر على الأسباب الدينية أو السياسية بل شمل دراسة التاريخ وأسبابه في كافة نواحي الحياة المثالية، وتلى ذلك مرتبة أخرى، وهي نسبة التاريخ كله إلى سبب أو علة أخرى.

ولم يعد المؤرخ يعتمد على الوثائق الرسمية فحسب وإنما بدأ يهتم بالوثائق الخاصة كمستندات الأرض والأدب الشعبي والمذكرات والصحف والمجلات وغير ذلك من المصادر التي تحرص دور الوثائق القومية على جمعها.

واهتم المؤرخون أكثر من غيرهم بأمر الوثائق لأنها في نظرهم هي المادة الحية لموضوع بحوثهم ولكن هذا لا يعني أن المؤرخين وحدهم هم الذين يستفيدون من الوثائق فالواقع أن كل من ينشد المعرفة لا بد له من الرجوع إلى الوثائق لمعرفة أعمال من سبقوه وبعبارة مختصرة فإن جميع العاملين بالعلوم الانسانية لا بد لهم من دراسة المجتمعات التي يكتبون عنها سواء في النواحي الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية.

إن الدور الهام الذي تلعبه دور الوثائق القومية في الميدان الأكاديمي لا يقل أهمية عن الدور الذي تلعبه في الجانب السياسي والاداري. فالادارة الناجحة لا بد لها من أن تستفيد من السوابق الادارية والسياسية. ويستطيع علماء العلوم السياسية من دراسة الوثائق وحصر المعلومات التي بها في مقالة أو كتاب. وتهتم الحكومات بدور وثائقها فتهيىء لها المكان المناسب وتصدر لها القوانين واللوائح لحمايتها والمحافظة عليها ووسائل الاطلاع عليها. إن سلامة الوثائق والمحافظة عليها أمر اهتمت به هيئة اليونسكو وأنشأت مجلساً عالمياً لمساعدة الدول في المحافظة على الوثائق وتنظيمها وتيسير سبل الاطلاع عليها.

●

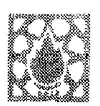
المراجع

(١) الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية ص ٤٢.

(٢) T.R. Schellenberg, Modern Archives. p. 3.

(٣) فرانز روزنتال ــ علم التاريخ عند المسلمين ترجمة صالح أحمد علي ص ١٦.

(٤) T.R. Schellenberg, Modern Archives.





ميشال الطفال

في الجمهورية العربية السورية





بدأ البريد يَعمل في سورية في عهد السلطنة العثمانية التي حكمت البلاد من سنة ١٥١٦ إلى ١٨٣٢م، ثم حكمها السلطان محمد علي الكبير وأسرته من سنة ١٨٣٢ إلى ١٨٤٠، والعثمانيون ثانية من سنة ١٨٤٠ إلى ١٩١٨.

كان البريد في سورية خلال العهود السابقة لظهور أول مجموعة تركية سنة ١٨٦٣ يخلص بالوسائل المتبعة قديما، ولكن منذ صدرت المجموعة التركية المشار إليها وضعت للاستعمال في سورية وكانت تُعطَّل بأختام مربعة في بادىء الأمر.

ثم بأختام مختلفة تحمل اسم المصدر والتاريخ. (مجموعة رقم ١، ١أ)

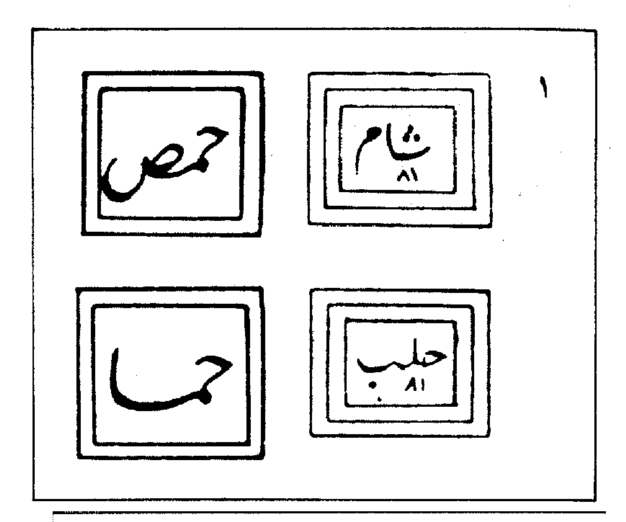
انتشرت هذه الطوابع التركية في سورية كانتشارها في جميع الأراضي المشمولة بحماية الدولة العثمانية إلى جانب طوابع المكاتب الأجنبية (الأوروبية)، التي سنأتي على ذكرها لاحقا، وذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨. ففي ذلك التاريخ، وهو تاريخ دخول جيوش الحلفاء، توقف استعمال الطابع العثماني أولا، ثم طوابع المكاتب الأجنبية التي اقفلت سنة ١٩٢٣ على إثر معاهدة لوزان.

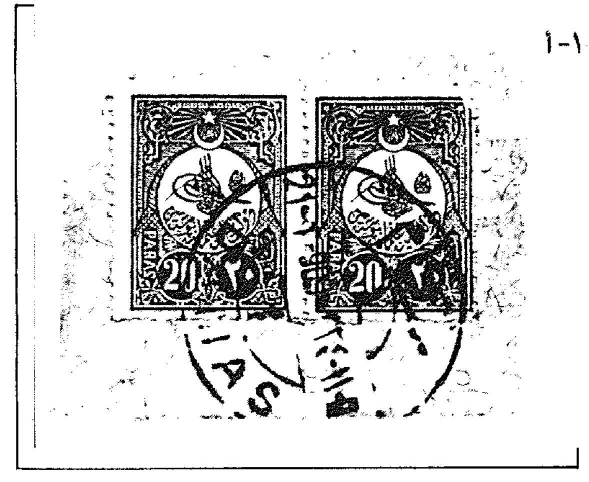
عندما دخل الجيش البريطاني فلسطين ثم الأردن فسورية، وضع في التداول ابتداء من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ مجموعة مؤلفة من ١١ طابعا كتب عليها «خالص الأجرة» وبالانكليزية «E.E.F. POSTAGE PAID» (قوات استطلاعية مصرية ـ أجور البريد مدفوعة). (مجموعة رقم ٢)

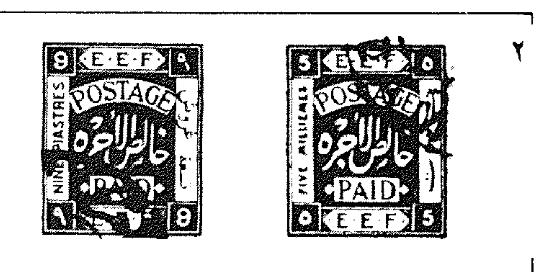
هذه المجموعة الأولى التي استعملت في فلسطين منذ ١٦ تموز (يوليو) سنة ١٩١٨، وهي الأولى في مجموعة الطوابع الفلسطينية. ومع دخول قوات الحلفاء سورية من الجنوب كان الأمير فيصل الابن الأكبر للشريف حسين بن علي ملك الحجاز قد دخل في أول تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨ سورية من الشرق مع قوات عسكرية عربية، ثم أعلنها مملكة في ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠؛ ولقد أصدرت هذه المملكة خلال سنة ١٩٢٠، ٩٣ طابعا بريديا وخمسة طوابع أجور مستحقة، واستولت على الطوابع التركية المتبقية وكانت من إصدارات سنة ١٩٠٩ ــ ١٩١٩، ووشحت باليد ٨٥ فئة من الطوابع المختلفة بخاتم نحاسي يحمل اسم «الحكومة العربية»، ثم ٧ طوابع بخاتم آخر مثلث يحمل اسم «الحكومة السورية العربية» (مجموعة رقم ٣)

وبعد ذلك أصدرت مجموعة مؤلفة من ٨ طوابع بريدية وشح منها طابع واحد لذكرى الاستقلال استعمل في دمشق فقط، وطابع آخر أجور مستحقة يشبه طابع فئة القرش الواحد ولكن باللون الأسود بدلا من الأزرق.

وهناك طابع آخر هو عبارة عن ختم مستطيل كتب عليه «كليس بوسته بولي» طبع على ورق عادي وورق شفاف. ولقد طبعت جميع هذه الفئات محليا وصمغت يدويا بالفرشاة بصورة

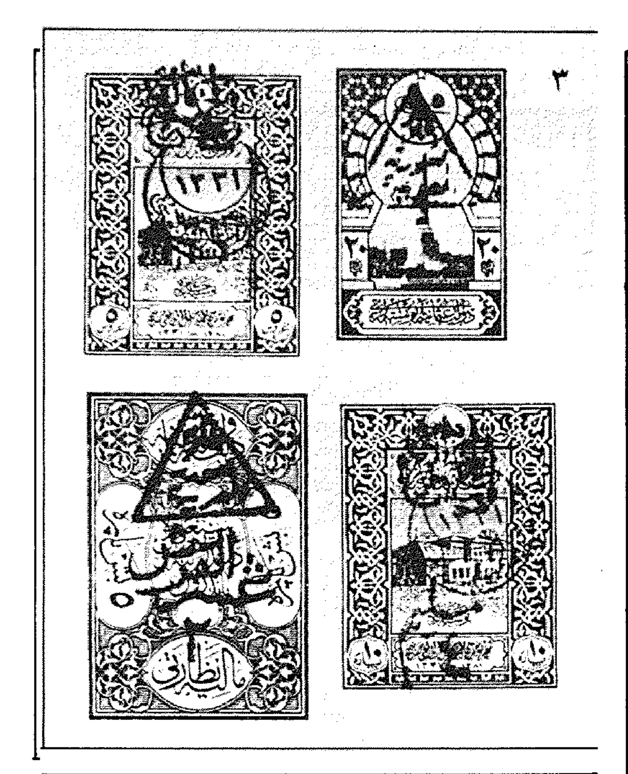


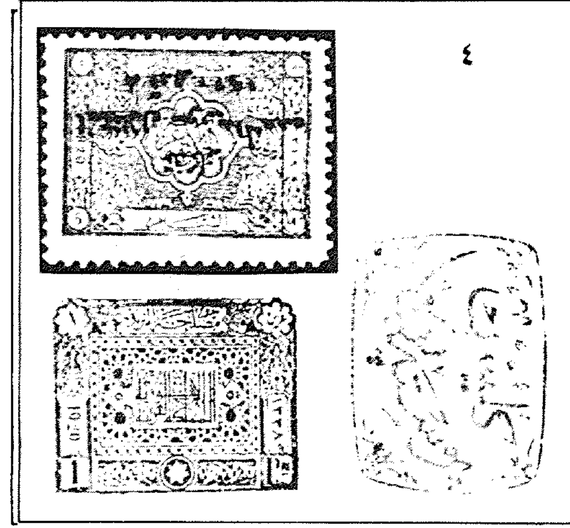




بدائية. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩ انسحب الجيش البريطاني من حلب وفي ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ دخلت القوات الفرنسية حلب ثم دخلت دمشق في ٢٤ منه بعد معركة ميسلون المشهورة التي أودت بحكومة الملك فيصل.(مجموعة رقم ٤)

ومع دخول جيوش الحلفاء إلى سورية، دخل معها الطابع الفرنسي الذي جرى توشيحه في مطبعة جدعون في بيروت «T.E.O.» أي «أراضي الأعداء المحتلة» والذي وضع في الاستعمال البريدي في لبنان ابتداء من ٢١ تشرين الثاني

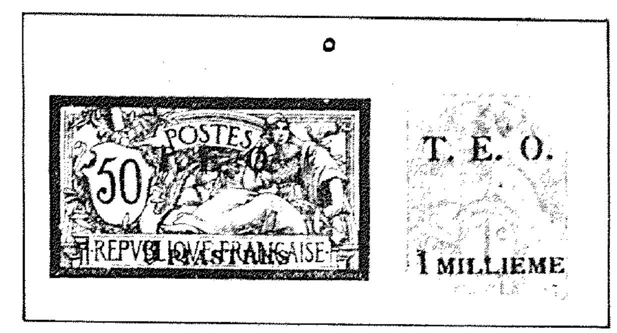




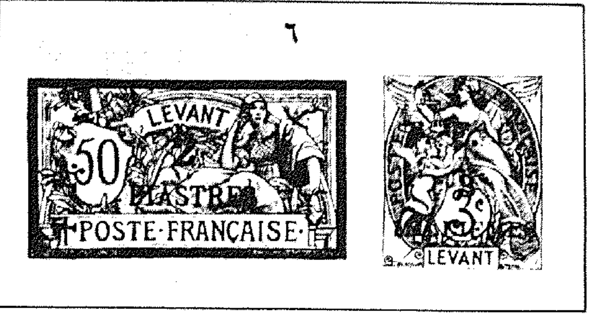
١٩١٩. وكانت المجموعة الأولى مؤلفة من عشرة طوابع هي التالية: ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ مليم — ١ و ٢ و ٥ و ٩ و ١٠ قروش موشحة بالترتيب على طوابع فرنسية فئة ١ و ٢ و ٣ و ١٥ و ٥ و ١٠ و ٢٥ و ٤٠ و ٥٠ سنتيم وفرنك واحد.

وهناك خمس مجموعات لاحقة تؤلف ٧١ طابعا صدرت على التوالي ما بين ١٩١٩ — ١٩٢٣، أولاها تحمل توشيح: «T.E.O.»، وثلاث تحمل توشيح «O.M.F.» أي (احتلال فرنسي عسكري) والأخيرة تحمل توشيح «Syrie-Grand Liban» وكانت تستعمل في سورية

٥

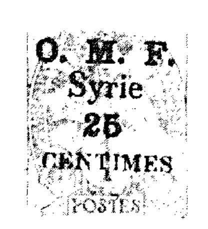


٦



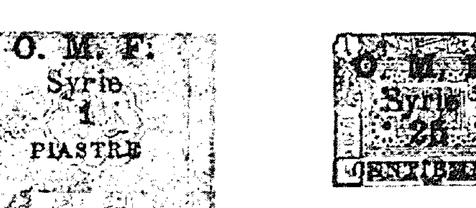
٧



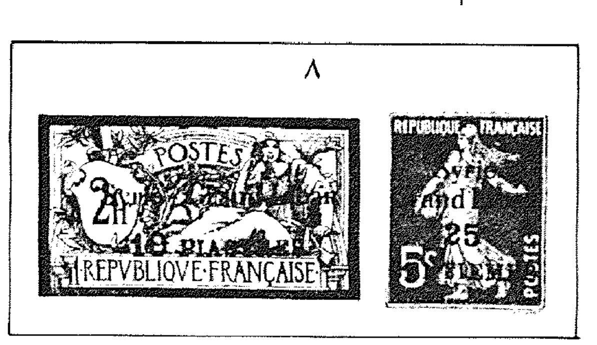








٨



ولبنان على التوالي، وقد صنفت كلها مع مجموعة الطوابع السورية. (مجموعة ٥، ٦، ٧، ٨)

ويلاحظ أن العملة المستعملة على المجموعات الثلاث الأولى هي المليم والقرش المصريان لأن نظام العملة المحلي كان مرتبطا بالاسترليني على أساس الذهب، بينما في عام ١٩٢٠ استعمل السنتيم والقرش السوريان كما سنشرح ذلك لاحقا.

بقيت طوابع الانتداب الفرنسي قيد الاستعمال؛ فبعد المجموعات الموشحة «T.E.O.» و «O.M.F.» المذكورة آنفا، صدرت مجموعتان أخريان موشحتان من الطوابع الفرنسية، الأولى موشحة «SYRIE» صدرت في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٤، مؤلفة من ١٤ طابعا للبريد العادي وثلاثة طوابع لذكرى باستور «Pasteur» وأربعة طوابع لذكرى الألعاب الأولمبية وأربعة طوابع للبريد الجوي وخمسة طوابع للأجور المستحقة؛ والثانية موشحة «سوريا Syrie». صدرت في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٢٤، مؤلفة من ١٧ طابعا للبريد العادي وستة طوابع لذكرى باستور وأربعة طوابع لذكرى الألعاب الأولمبية وطابع لذكرى رونسار «Ronsard»، وأربعة طوابع للبريد الجوي وخمسة طوابع للأجور المستحقة. (مجموعة ٩، ١٠)

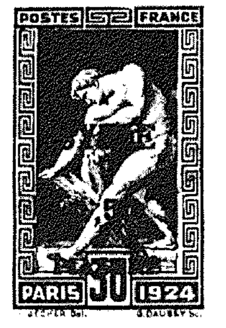
وفي أول آذار (مارس) سنة ١٩٢٥ صدرت أول مجموعة مصورة عليها مناظر البلاد مؤلفة من ١٣ طابعا للبريد العادي وأربعة طوابع للبريد الجوي موشحة بكلمتي «طيارة» و «AVION» باللون الأخضر، وخمسة طوابع للأجور المستحقة. ولقد تميزت هذه المجموعة عن المجموعة الثانية المصورة التي صدرت في شهر

أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٠ بكلمة «SYRIE» باللغة الفرنسية، فوق كلمة «بريد سورية» بعكس الأخيرة التي ظهرت فيها كلمة «سورية» بأعلى كل طابع، وعددها ٢٤ طابعا بريديا و ١١ طابعا للبريد الجوي وطابعان أجور مستحقة.(١١، ١٢)

٩ ١٠



















١١

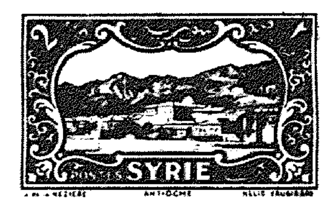
١٢









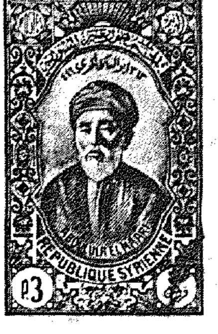




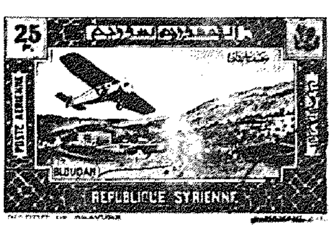
١٣



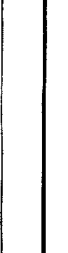




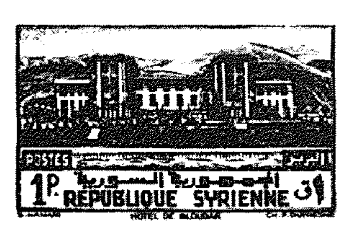


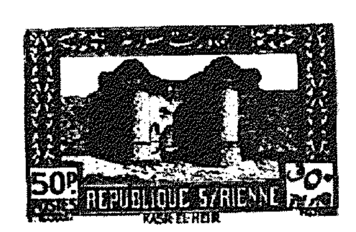


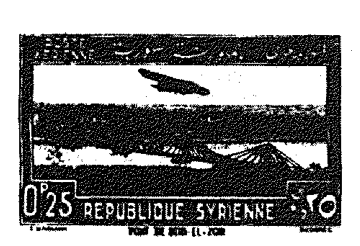












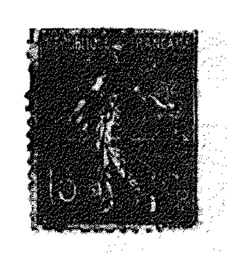
١٤

وما بين سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٤٠ صدرت المجموعات المختلفة العادية والجوية والتذكارية للمناسبات ذات الأهمية الخاصة مثل إعانات اللاجئين الأرمن سنة ١٩٢٦ ومعرض دمشق الزراعي سنة ١٩٢٩ ومعرض دمشق سنة ١٩٣٦ ومعرض باريس ١٩٣٧ وذكرى عشر سنوات لأول رحلة جوية بين فرنسا وسورية، وخصوصا مجموعة تأسيس الجمهورية السورية. ولقد تألفت تلك المجموعة من ١٩ طابعا للبريد وعشرة طوابع للبريد الجوي حملت صورة دار البرلمان وأبي العلاء المعري والرئيس العابد وصلاح الدين الأيوبي، وعلى طوابع الطيارة صورة طائرة فوق بلودان كما في نماذج الصور (مجموعة ١٣).

وكانت آخر مجموعة خلال الانتداب هي التي صدرت في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٠ وتتألف من عشرة طوابع للبريد العادي وسبعة طوابع للبريد الجوي تحمل صور متحف دمشق وفندق بلودان وقصر الحير، وللبريد الجوي صورة طائرة فوق جسر دير الزور كما في نماذج (مجموعة ١٤).

وثمة توشيحات مختلفة جديدة بالمعرفة مثل زهرة حلب والعلويين وسنجق الاسكندرون واللاذقية وعينتاب وجزيرة أرواد وهي التالية:

١٥






زهرة حلب:

عندما تركت القوات الانكليزية سورية سنة ١٩٢٠ توقف التعامل بالعملة المصرية الموازية بقيمتها للنقد الذهبي الذي يزيد ثلاث مرات عن قيمة النقد السوري ـــ اللبناني، باستثناء حلب، فإن التعامل بالذهب بقي رائجا فيها، مما حمل السلطة هناك على وضع شارة مميزة على الطوابع وبيعها بالعملة الذهبية وفق تعرفة جديدة للتخليص. فاستقدمت من فرنسا الكليشهات الأم وعددها ٢٥ تحمل كل منها شارة تشبه الزهرة، ووشحت الطوابع الموجودة في الاستعمال، باللون الأسود فقط، وهي مجموعة سوريا لسنة ١٩٢٠، (توشيح مطبعة جدعون الطبعة الأولى فقط، بُعد الأرقام مليمتر واحد)، وفئاتها: ٢٥ و ٥٠ سنتيم و ١ و ٢ و ٥ و ١٠ و ٢٥ و ٥٠ و ١٠٠ قرش.

جاءت الطباعة سيئة جدا فأخذت الادارة توشح الطوابع باليد توشيحا متقنا وباللون الأحمر، وعلى طوابع مطبعة جدعون الأولى فقط، مما أتاح لبعضهم الحصول على مجموعات كاملة من الطوابع العادية المستعملة في ساحل سورية وتوشيحها بطريقة سرية، فوجدت بهذه الطريقة مجموعات من طبعة جدعون الثانية (بُعد الأرقام ٢ مليمتر)؛ وبما أنها تحمل توشيحا أصليا غير مزور، وإن كان غير رسمي، فإنه معترف بها من قبل الهواة وهذه المجموعة على اختلاف ألوان توشيحها واختلاف طبعاتها تُعد من المجموعات النادرة الغالية الثمن(مجموعة١٥)

بلاد العلويين ونيات الانتداب:

عندما انتدبت الدولة الفرنسية لحكم سورية وفقا لقرار عصبة الأمم، اعتمدت سياسة تقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة لتسهل السيطرة عليها ولتنفيذ الغايات الخلفية التي كانت ترمي إليها من وراء الانتداب. فجعلت ساحل سورية الواقع شمالي لبنان والممتد ما بين النهر الكبير الجنوبي، والنهر الكبير الشمالي وتشمل سلسلة الجبال الممتدة شمالا حتى الاسكندرون، جعلت هذه المنطقة مستقلة استقلالا إداريا، وذلك في ٣١ آب (أغسطس) سنة ١٩٢١؛ وبتاريخ ١٢ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٢، وبموجب القرار رقم (١٧٠) الصادر عن المفوض السامي الجنرال غورو، أعلنت حكومة «مستقلة».

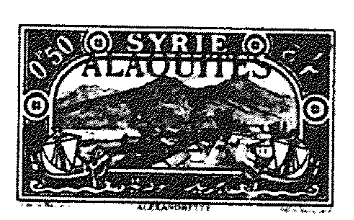
كانت البلاد تستعمل الطوابع الموجودة في سورية، أي الطوابع الفرنسية الموشحة، إلى أن صدر القرار رقم (٣٠٠٥) بتاريخ ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٢٤، الذي أوجب في مادته الثانية أن تحمل الطوابع البريدية المستعملة هناك اسم «العلويين»؛ وبالفعل ظهرت أول مجموعة مؤلفة من ١٥ طابعا فرنسيا من فئة ١/١٠ القرش حتى ٢٥ قرشا موشحة بالعربية والفرنسية ومحدد فيها السعر الجديد كما ظهرت مجموعة تذكارية أخرى من ستة طوابع تحمل صورة باستور من فئة نصف قرش إلى ٤ قروش، ومجموعة للبريد الجوي مؤلفة من أربعة طوابع عليها، بالاضافة إلى التوشيح السابق، كلمة «طيارة» بالعربية والفرنسية، ومجموعة أخرى للأجور المستحقة مؤلفة من خمسة طوابع موشحة أيضا.

ومنذ سنة ١٩٢٥ وضعت في الاستعمال الطوابع السورية الموشحة (إصدار سنة ١٩٢٥ المصورة). فصدرت منها ثلاث مجموعات للبريد العادي، وخمس مجموعات للبريد الجوي، ومجموعة واحدة للأجور المستحقة. وتشاهدون نماذج لجميعها بالترتيب الأولوي.(مجموعة ١٦)

١٦





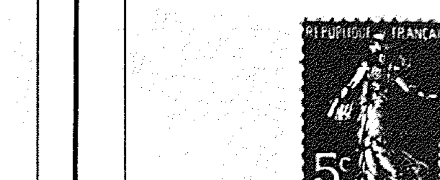




اللاذقيـــة:

بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) سنة ١٩٢٥ بموجب قرار من المفوض السامي أطلق على هذه المنطقة من سوريا اسم حكومة اللاذقية. وبتاريخ ٢٢ أيار (مايو) ١٩٣٠، أعلنت جمهورية، وأعطيت اسم «اللاذقيـة» بتاريـخ ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٠. وبقرار آخر من المفوض السامي بتاريخ ١٥ نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١ قرر أن تستعمل هذه المنطقـة طوابع سـورية مـوشحة بكلمـة «اللاذقية» بالعربية والفرنسية. وبـالفعل فقـد صدرت ما بين ١٩٣١ و ١٩٣٣ مجموعة عادية مؤلفة من ٢٢ طابعا، ومجموعة للبريد الجوي مؤلفة من ١١ طابعا ومجموعة للأجور المستحقة مؤلفة من طابعين فقط.(مجموعة ١٧)

١٧









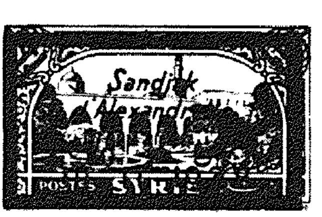
سنجق الاسكندرون:

الاسكندرون منطقة زراعية خصبة وهي جزء من سورية وتعد الميناء الطبيعي لحلب وشمال سورية، ولقد دخلت هذه المنطقة تحت النفوذ الفرنسي كما دخلت سورية منذ سنة ١٩١٩. وكان على الدولة الفرنسية أن تحـافظ عليهـا بوصفها جزءا من منطقة ائتمنت عليها عمـلا بشرعة عصبة الأمم التي وضعت صك الانتداب. ولكن فرنسا وهبتها دون حق إلى تركيا في أعقاب صفقة سياسيـة عقدتهـا معها. وعنـدما عـلا الاحتجاج وقامت قيامة سورية والعرب على ذلك، أجـري استفتاء صـوري لعب فيـه الترهيب والترغيب والتزوير دورا فعالا، فإذا بهذه البلاد الغنيـة بشتى مواردهـا الواسعة بمسـاحاتهـا

١٨









وخصب أراضيها تضم إلى تركيا سنة ١٩٣٩.

وكانت هذه المنطقة من سورية تستعمل الطوابع المستعملة في سورية. إلا أن السلطة المنتدبة الفرنسية، مقدمة لالحاق هذه المنطقة بتركيا، ولكي يكون التنفيذ تدريجيا فيمتص النقمة التي تتجزأ مع الوقت وتتلاشى، أمرت بأن تستعمل هناك الطوابع السورية الموشحة «سنجق الاسكندرون» بالحرف اللاتيني دون العربي. فصدرت مجموعة مؤلفة من ١٢ طابعا للبريد العادي ومجموعة مكللة بالسواد حدادا على اتاتورك (وما شأن سورية أو فرنسا بالحداد على أتاتورك لولا النيات المبيتة)، ومجموعة للبريد الجوي من ٨ طوابع ومجموعة للأجور المستحقة من ستة طوابع، كما في الصورة:

وأخيرا عندما أعلن الالحاق بتركيا صدر عدد من الطوابع التركية تحمل توشيح «هاتاي دولتي» بالحرف اللاتيني استعملت في تلك المنطقة. (١٨)

جزيرة أرواد:

أرادوس باليونانية ومعناها موئل التائهين أو الهاربين هي جزيرة صخرية في المتوسط تقع على بعد ثلاثة أميال في البحر من طرطوس السورية. طولها نحو ٨٥٠ مترا وعرضها ٤٥٠ مترا بناها المهاجرون الصيدونيون منذ القدم فجاء ذكرها في سفر التكوين وسفر الأيام وسفر حزقيال وسفر المكابين على أنها مملكة فينيقية بعيدة الذكر والقوة والنفوذ.

ازدهرت الجزيرة فضاقت بسكانها الذين ذهبوا في البناء صعدا فكانوا الرواد في بناء ناطحات السحاب وكانوا ملاحين أشداء مغامرين جالوا المتوسط وجاوزوه، وأقاموا لهم مراكز لأعمالهم في كل ثغر. أما في البر فقد اتخذوا لهم متنفسا بعد أن ضاقت بهم الجزيرة، فوسعوا مملكتهم حتى حماه وتفساح على الفرات، كما أقاموا على الشواطىء والسفوح سلسلة من المدن سميت بنات أرواد من أشهرها ماراتوس أو عمريت وبالانة أو بانياس وغبالة أو جبلة وبالتوس وكرنة، وانهيدرا وغيرها مما أصبح معظمه اليوم أطلالا دارسة.

ومرت الأجيال والسنون على هذه المملكة فأتت عليها الحروب المتعددة إلى أن حاصرها الجيش الاسلامي في عهد معاوية بعد غزوة قبرص فحال فصل الشتاء دون فتحها. فعاد إليها بعد سنة فاستسلم أهلها بشرط أن يعطوا حرية التنقل والسفر. فدخلتها الجيوش وأحرقتها ودكت أسوارها وعطلت ميناءها وذلك سنة ٥٤ هجرية، وكان على رأس الحملة جنادة بن أبي أمية. ثم تملكها الصليبيون الذين خرجوا منها عند خروجهم من سورية سنة ١٣٠٢م.

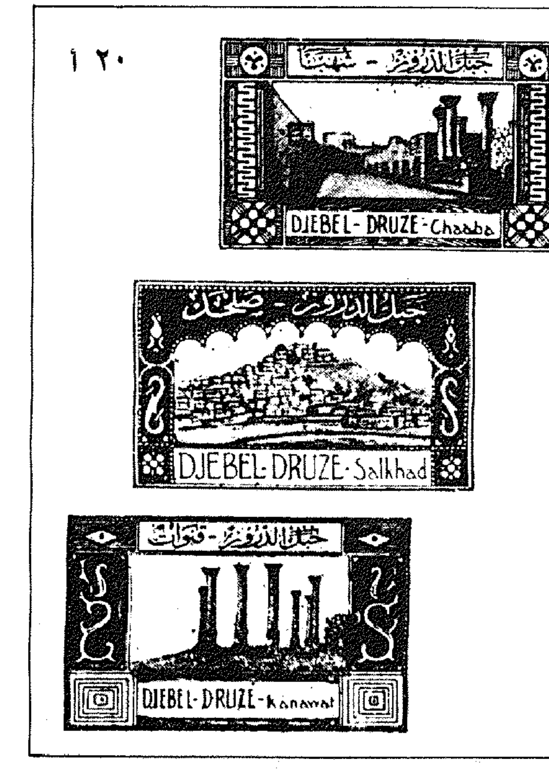
دخلت هذه الجزيرة بعدئذ في الممتلكات العثمانية، فاستعملت طوابعها عند صدورها إلى أن صدرت مجموعة خاصة بها وهي كناية عن ثلاثة طوابع «Levant» الفرنسية موشحة «ILE ROUAD»، صدرت سنة ١٩١٦. ثم صدرت بعدئذ مجموعة أخرى مؤلفة من ١٣ طابعا من ١ سنتيم إلى ٢٠ قرشا وشحت أيضا

٩ شباط (فبراير) سنة ١٩٢١، وانتهى الأمر بمعاهدة أنقرة في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢١ التي انسحب الفرنسيون على أثرها من البلد والحقت عينتاب ومرعش وأورفة ومردين بتركيا.

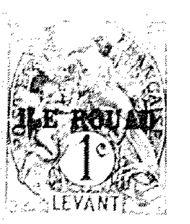
اما الطوابع المعروفة التي استعملت في هذا البلد أثناء احتلال الفرنسيين، فكانت أربع فئات من الطوابع التركية لسنتي ١٩١٦ و ١٩١٧ التي وجدت بالبريد آنذاك بعد احتلال البلدة. وهي من فئة ١٠ بارة موشحة على ٢٠ بارة، و ٢٠ بارة من طابع آخر وقرش واحد، وقرش واحد من طابع آخر. توشحت بالتسلسل قرش واحد مكرر وقرشان مكرر، مرة باللون الأحمر ومرة أخرى باللون الأسود، (مجموعة ٢٠) . وكان عددها محدودا جدا واستعملت من تموز (يوليو) إلى ٢٧ آب (اغسطس) سنة ١٩٢١. ولندرة هذه المجموعة أصبحت قيمتها التجارية اليوم تزيد على ثمانية آلاف ليرة سورية. ووجدت طوابع ثلاثة تحمل اسم حكومة جبل الدروز لم تصدر رسميا ولا تحمل قيمة للتخليص وهي التالية: ٢٠أ

هذا ولا بد من تفصيل الطوابع الأوروبية التي استعملت في سوريا في مكاتب البريد الأجنبية التي افتتحت أعمالها في جميع البلدان

٢٠ أ



١٩





٢٠







على الطوابع الفرنسية نفسها الخاصة بالشرق بكلمتي «ILE ROUAD» أحرف مزخرفة، كما في الصورة، وقد صدرت ما بين سنتي ١٩١٦ و ١٩٢٠، ثم أصبحت هذه الجزيرة بعدئذ تستعمل الطابع السوري. (مجموعة ١٩)

عينتاب:

بلد في جنوب تركيا احتلته القوات البريطانية سنة ١٩١٩ ثم القوات الفرنسية في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩ بوجود القوات البريطانية التي انسحبت تدريجيا بعدئذ سنة ١٩٢٠. ولكن الأتراك حاصروا البلد في أعقاب ذلك في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٢٠، ثم وقعت هدنة لمدة عشرين يوما، لكن الأتراك حاصروها مجددا من ١١ آب (اغسطس) سنة ١٩٢٠ إلى

العربية وبعض البلدان الأوروبية بسبب تدخل النفوذ الأجنبي بحجة ضرورة وجود بريد دبلوماسي خاص بالسفارات، ويستعمله الجمهور الذي كان يفضل خدمة تلك المكاتب لدقتها في العمل.

والمكاتب التي عملت في سوريا هي: المكتب الروسي الذي عمل في الاسكندرونة واللاذقية من سنة ١٨٥٧ إلى ١٩١٤ والمكتب النمساوي الذي عمل في الاسكندرونة واللاذقية أيضا من سنة ١٨٦٧ إلى ١٩١٤، والمكتب الايطالي الذي عمل في طرابلس الشام من سنة ١٨٦٩ إلى ١٩١١، والمكتب المصري الذي عمل في الاسكندرونة من سنة ١٨٧٠ إلى ١٨٧٤ وفي اللاذقية من سنة ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ وفي طرابلس الشام من سنة ١٨٧٠ إلى ١٨٨١. وعلى أثر معارضة الدولة العثمانية المتلاحقة جرت الموافقة على إلغاء المكاتب البريدية في جميع الأراضي التابعة للامبراطورية العثمانية بموجب معاهدة «لوزان» فأقفلت تباعا في عام ١٩٢٣.

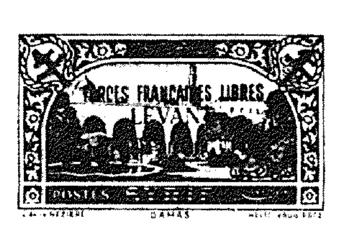
هناك طوابع فرنسا الحرة التي استعملت في الحرب العالمية الثانية عند انقسام السلطة بين ديغول وبتان.

أما طوابع فرنسا الحرة التي استعملت في سوريا ولبنان على السواء لدى دخول قوات ديغول المنطقة فهي مجموعة من ثلاثة طوابع بريد واربعة للبريد الجوي صدرت عام ١٩٤٢ موشحة بالفرنسي وبالعملة الفرنسية كما في الصورة: (مجموعة ٢١)

وفي السنة نفسها صدرت مجموعة من سبعة طوابع مصورة تحمل جيش الفرسان «MEHARISTES» أمام آثار تدمر، وطابعان للبريد الجوي، وبطاقة تحمل صورة التسع طوابع معا.

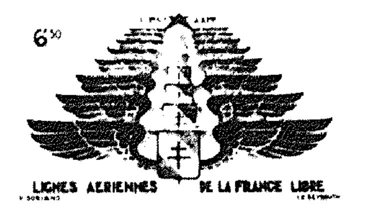
وفي سنة ١٩٤٣ صدرت مجموعة موشحة «Resistance» أي الصمود من طابعي بريد عادي وطابعي بريد وبطاقتين للبريد الجوي مخرمة ومن دون تخريم، كما في الصورة.

٢١











طوابع جمهورية سورية:

وفي يوم إعلان استقلال البلاد في ٦ نيسان (أبريل) ١٩٤٢، صدرت مجموعة من ستة طوابع تذكارية تحمل صورة الرئيس الشيخ تاج الدين الحسيني، ثم تلتها المجموعات المختلفة العادية والتذكارية على أنواعها مع بطاقات تذكارية لبعضها، وكلها تحفل بالصور المتقنة المعبرة لكل موضوع ومناسبة هامة، نذكر أهمها موضوعا وقيمة:

ــ مجموعة استئناف الحياة الدستورية مؤلفة من ستة طوابع بريد وسبعة للبريد الجوي صدرت في ١٥ آذار (مارس) ١٩٤٥ مع ١٣ بطاقة خاصة بها عليها مربع (أي ٤ طوابع من كل فئة) على كل بطاقة قيمتها اليوم عشرة آلاف ليرة سورية ونيف. وفي أول شباط فبراير ١٩٥٨ تم الاتحاد بين سوريا ومصر فأصبحت تحمل







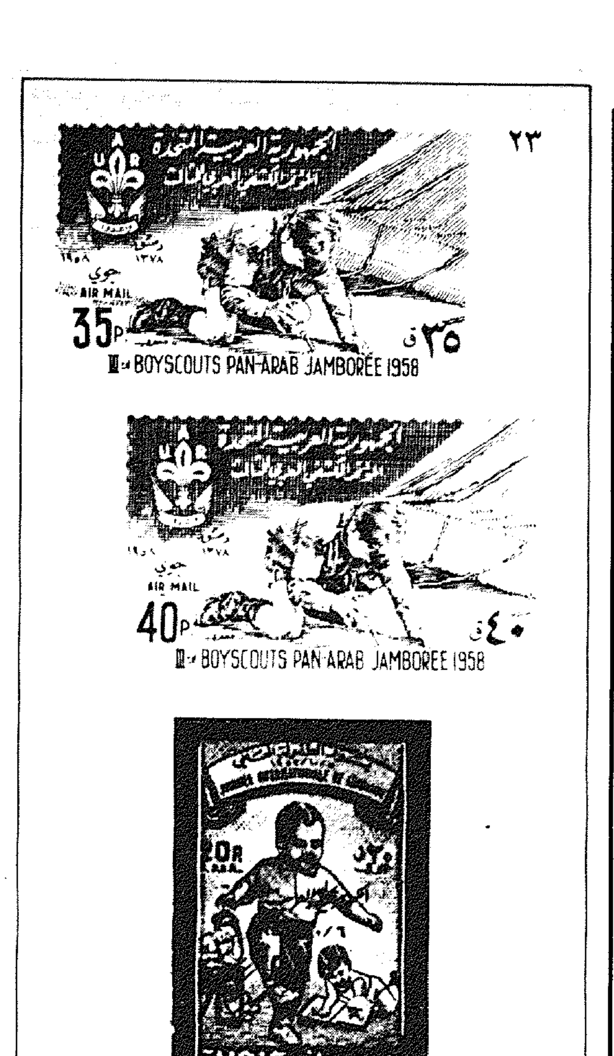






اسم الجمهورية العربية المتحدة وأصبحت الطوابع تصدر في كلتا البلدين متشابهة بما يخص المناسبات التذكارية نذكر أهمها مجموعة يوم الطفولة العالمي التي صدرت بتاريخ ٦ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٥٨ مؤلفة من ثلاثة طوابع موشحة، كما في الصورة، قيمتها اليوم ٤٠٠ ليرة سورية. وهناك بطاقتان تحمل صورة كشاف يثبت وتد الخيمة، تحمل كل منها صورة مربع (أي أربعة طوابع من كل فئة) صدرت في ٣١ آب (أغسطس) ١٩٥٨ قيمتها اليوم نحو الف ليرة سورية.(مجموعة ٢٢، ٢٣)

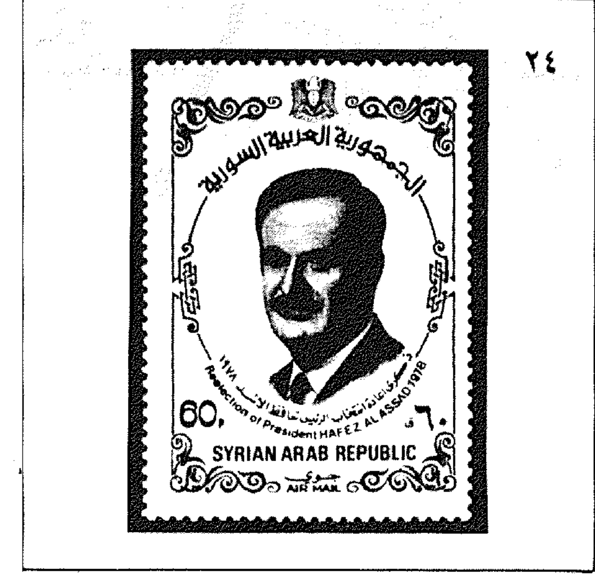
وفي ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ ثار الجيش وأعلن استقلال البلاد عن الوحدة مع مصر فاتخذت اسم الجمهورية العربية السورية وأصدرت المجموعات المختلفة العادية والتذكارية العديدة، التي أظهرت إلى العالم مآثر وإنجازات



هذا البلد العربي الصميم، وبينت في كل مناسبة تاريخ حضارته وأمجاده وعظماء رجاله من فلاسفة وعلماء وشعراء منذ القدم، فنرى في طوابع سورية الحديثة صورة حسناء تدمر وزنوبيا وفسيفساء شهبا تالاسا وعشترة وتيكة، وأيضاً صورة أبي العلاء المعري وأبي فراس الحمداني وأبي الزهراوي والراضي وابن سينا والأمير عبدالقادر وابن زهر والجاحظ وأبي الفداء ومحمد كردعلي وفارس الخوري وابن رشد وابن عساكر والرئيس حافظ الأسد. (الصورة ٢٤)

سورية جغرافيا وتاريخيا:

كانت سورية ولبنان حتى سنة ١٩١٧ تحت الاحتلال العثماني خلال أربعة قرون، وفي سنة ١٩١٧/١٩١٨ دخلت القوات البريطانية سورية



٢٤

من الجنوب بقيادة الجنرال اللنبي واحتلت فلسطين ودخلت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل ابن الملك حسين ملك الجزيرة العربية قادما من الحجاز واحتلت الأردن وسورية. ثم تقدمت القوات العربية ولحقتها القوات البريطانية ودخلت دمشق في أول تشرين أول (أكتوبر) وحلب في ٢٦ منه سنة ١٩١٨. وفي ٨ تشرين أول (اكتوبر) ١٩١٨ كانت القوات الفرنسية قد احتلت بيروت وجميع سواحل سورية وانقسمت البلاد إلى ثلاثة أقاليم:

(أ) الاقليم الغربي الساحلي بطوله على الأراضي السورية الذي يضم لبنان واللاذقية والاسكندرونة وكان يحكمه قائد القوات الفرنسية.

(ب) الاقليم الشرقي الذي يضم أراضي سوريا الداخلية والأردن وكان يحكمه الأمير فيصل.

(ج) الاقليم الجنوبي، فلسطين، وكان يحكمه قائد القوات البريطانية.

في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ انسحبت القوات البريطانية من حلب.

في ٩ آذار (مارس) ١٩٢٠ أعلنت المملكة السورية وسمي الأمير فيصل ملكا على سوريا.

في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٢٠ دخلت القوات الفرنسية حلب.

في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠ دخلت القوات الفرنسية دمشق بعد معركة ميسلون التي أودت بحكومة الملك فيصل.

في ٣١ آب (اغسطس) ١٩٢١ أعلن عن لبنان الكبير وتقسمت سورية إلى أربع ولايات:

١ ـــ ولاية دمشق التي تضم سناجق حمص وحماه ودمشق.

٢ ـــ ولاية حلب التي تضم سناجق دير الزور وحلب واسكندرونه.

٣ ـــ ولاية العلويين بعاصمتها اللاذقية وسميت بحكومة اللاذقية في شهر أيار (مايو) ١٩٣٠.

٤ ـــ ولاية جبل الدروز ملحقة بحكومة دمشق وبإدارة ذاتية.

في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ انضمت ولاية دمشق وحلب والعلويين إلى اتحاد فدرالي سوري الذي يبقي الادارة ذاتية لكل من الولايات، إنما بقانون نقدي واحد للمناطق الثلاث.

في ٥ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٢٣ اعلن انتداب فرنسا على سورية ولبنان.

في ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٢٤ تمت الوحدة بين ولايتي دمشق وحلب بعد إعلان اتحاد حكومتي دمشق وحلب.

في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٢٦ أعلن لبنان الكبير جمهورية.

في ٢٢ أيار (مايو) ١٩٣٠ أعلنت جمهورية سورية.

في ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٦ وقعت المعاهدة السورية ـــ الفرنسية والحقت حكومة العلويين وحكومة جبل الدروز بالجمهورية السورية.

في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ أعلنت فرنسا استقلال سنجق الاسكندرونه الذي وقع تحت نفوذ تركيا وسمي هاتاي فيما بعد.

في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٩ الحق سنجق الاسكندرونه بتركيا.

في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٤١، انتهى عهد انتداب فرنسا وأعلن استقلال جمهورية سورية.

في ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٦، أجليت القوات الفرنسية عن جمهورية سورية.

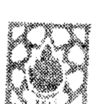
●



المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين: ١٨٤١ - ١٨٩٨

نشاطات المؤسسات الدينية والتأثيرات الاقتصادية والسياسية»

قسم التوثيق والأبحاث



صدر في برلين الغربية عام ١٩٨٢، عن دار النشر «بعلبك» كتاب للدكتور عبدالرؤوف سنّو بعنوان: «المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين خلال القرن التاسع عشر». (٤٦٢ صفحة). الكتاب هو أصلاً أطروحة الدكتوراه التي قدّمها الدكتور سنّو لدى جامعة برلين الحرة، ونال على أساسها درجة الدكتوراه بتقدير «ممتاز».

والدراسة هي محاولة لتحليل المصالح الألمانية الدينية والسياسية والاقتصادية في سوريا وفلسطين في إطار السياسة الألمانية في الشرق الأدنى.

وتحتل نشاطات الألمان ذات الطابع التبشيري الصدارة في هذا البحث. فعلى الرغم من أن بداية تلك النشاطات الدينية جاءت بمبادرة رسمية، إلا أن المبشرين الألمان كانوا لفترة طويلة ممثلين للوجود الألماني في تلك المنطقة.

ومنذ الثمانينات من القرن الماضي أخذت المصالح الاقتصادية والسياسية تحتل الصدارة في العلاقات الألمانية مع سوريا وفلسطين.

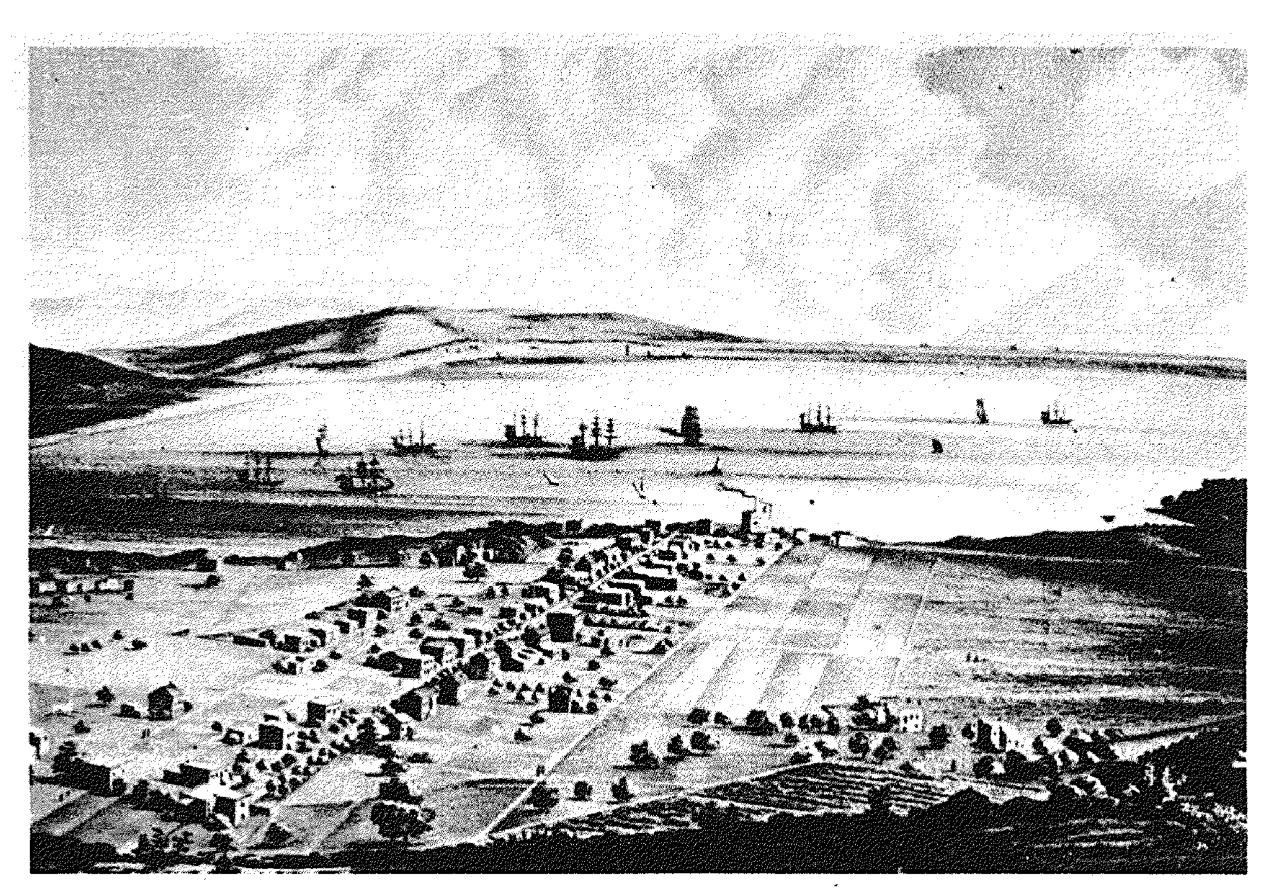
تعالج المقدمة باختصار نقاط الالتقاء بين سوريا وفلسطين من جهة والدول الأوروبية من جهة أخرى على مدى القرون الماضية.

وفي الفصل الأول تتطرق الدراسة إلى المشروع البروسي ــ الانكليزي لتأسيس مطرانية القدس البروتستانتية (Jerusalem Bistum) التي كانت الأساس لنشاطات الارساليات الانجيلية في الشرق الأدنى.

وفي الفصول (٢ ــ ٨) تحلل الدراسة أعمال الجمعيات والهيئات والمبادرات الفردية للمبشرين الذين قاموا بأعمال تبشيرية وخيرية في سوريا وفلسطين، وكذلك السياسة الاستعمارية الألمانية وموقف الدولة منها.

ويتخصص الفصلان (٩ و ١٠) في العلاقات الاقتصادية الألمانية مع سوريا وفلسطين (الفصل ٩ يتطرق إلى تلك العلاقات حتى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ والفصل التالي حتى انغلاق القرن الماضي).

وفي الفصل ١١ تم بحث أهمية سوريا وفلسطين للسياسة الألمانية خلال عملية تدخلها



□ أولى المستعمرات الألمانية في حيفا نقلاً عن كتاب «Alex Carmil» حول المستعمرات الألمانية في فلسطين.

المباشر في المسألة الشرقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

نظرة عامة على الكتاب

يبحث الكتاب المصالح البروسية/ الألمانية في سوريا وفلسطين منذ انتهاء الحملة المصرية على سوريا وفلسطين في عام ١٨٤٠ وحتى زيارة الامبراطور الألماني فيلهلم الثاني إلى سوريا وفلسطين عام ١٨٩٨.

فالأزمة المصرية (١٨٣١ ــ ١٨٤٠) تمثل نقطة هامة في التغلغل الأوروبي في تلك المنطقة العربية «إقامة أول قنصلية أوروبية (إنكليزية) في القدس ومعاهدة بلطاليمان مع الدولة العثمانية وما تبعها من معاهدات مماثلة بين الدول الأوروبية الأخرى والدولة العثمانية».

فبالنسبة لبروسيا فقد مهدت مشاركتها في مؤتمر لندن ١٨٤٠ لحل المشكلة الشرقية بداية تدخلها في شؤون الشرق وفلسطين خاصة.

ولقد سارت تلك الاهتمامات في اتجاهين، سياسي وديني ثقافي، فالاتجاه الأول مارسته الدولة والثاني حمل على أكتاف المبشرين البروتستانت والكاثوليك فيما بعد. وكلا الاتجاهين قصد به تقوية النفوذ الألماني في نهاية الأمر.

إن إنشاء مطرانية القدس عام ١٨٤١ من قبل بروسيا وإنكلترا جاء من جانب بروسيا لأسباب دينية وسياسية داخلية ونتيجة للتناقضات الدينية والاجتماعية والاقتصادية الحادة بين اليهود والألمان في دويلات ألمانيا المتعددة.

كان هدف إقامة المطرانية هو التخلص من اليهود الألمان: تنصيرهم وإرسالهم إلى فلسطين واستخدامهم كأداة في تقوية النفوذ الألماني هناك. وإذا استثنينا محاولة نابليون خلال حملته المصرية إعادة اليهود إلى فلسطين وتوطينهم هناك فإن المشروع البروسي ــ الانكليزي كان أول مشروع أوروبي وضع موضع التنفيذ لاقامة «دولة إسرائيل» تحت النفوذ الغربي.

وعلى الرغم من فشل ذلك المشروع وحل الاتفاق البروسي/ الألماني ــ الانكليزي في ١٨٨٦ إلا أنها مهدت إلى اعتراف الدولة

العثمانية بالطائفة البروتستانتية وكانت الأساس لبروسيا وألمانيا في بناء نشاطهما التبشيري في الشرق، فعقب تأسيس المطرانية استقرت الارساليات الألمانية في فلسطين وسوريا (جمعية سان كريشونا — Pilgermission auf St. Chrischona شماسات القيصر -Kaisers werther Diakonissin يوحنا شنلر مؤسس دار الأيتام السورية في فلسطين — Schneller Waisenhaus فرسان يوحنا وجمعية القدس البرلينية (Jerusalemsverein).

وكما هو الحال بالنسبة للبروتستانت الألمان فقد ارتبطت بداية نشاط الكاثوليك الألمان التبشيري في فلسطين بمبادرة رسمية وذلك عندما اسس ملك بافاريا لودفيغ الأول جمعية كاثوليكية ألمانية للعمل في فلسطين. ومع ذلك فقد ظل تأثير الكاثوليك الألمان في فلسطين وسوريا حتى الثمانينات من القرن الماضي محدوداً، وذلك بسبب صراعهم السياسي مع الدولة خلال عصر المستشار الألماني بسمارك.

وعلى الرغم من تلك المبادرات الرسمية ذات الطابع الديني السياسي فإنه لا يمكن التحدث عن سياسة ألمانية لوضع سوريا وفلسطين تحت النفوذ الألماني. فالذين عملوا على تقوية المصالح الألمانية في تلك المنطقة وبأسلوبهم الخاص كانوا المبشرين الألمان وجماعة الهيكل (Tempelgesellschaft) الذين استقروا في فلسطين بعد ١٨٦٨ وأسسوا العديد من المستعمرات.

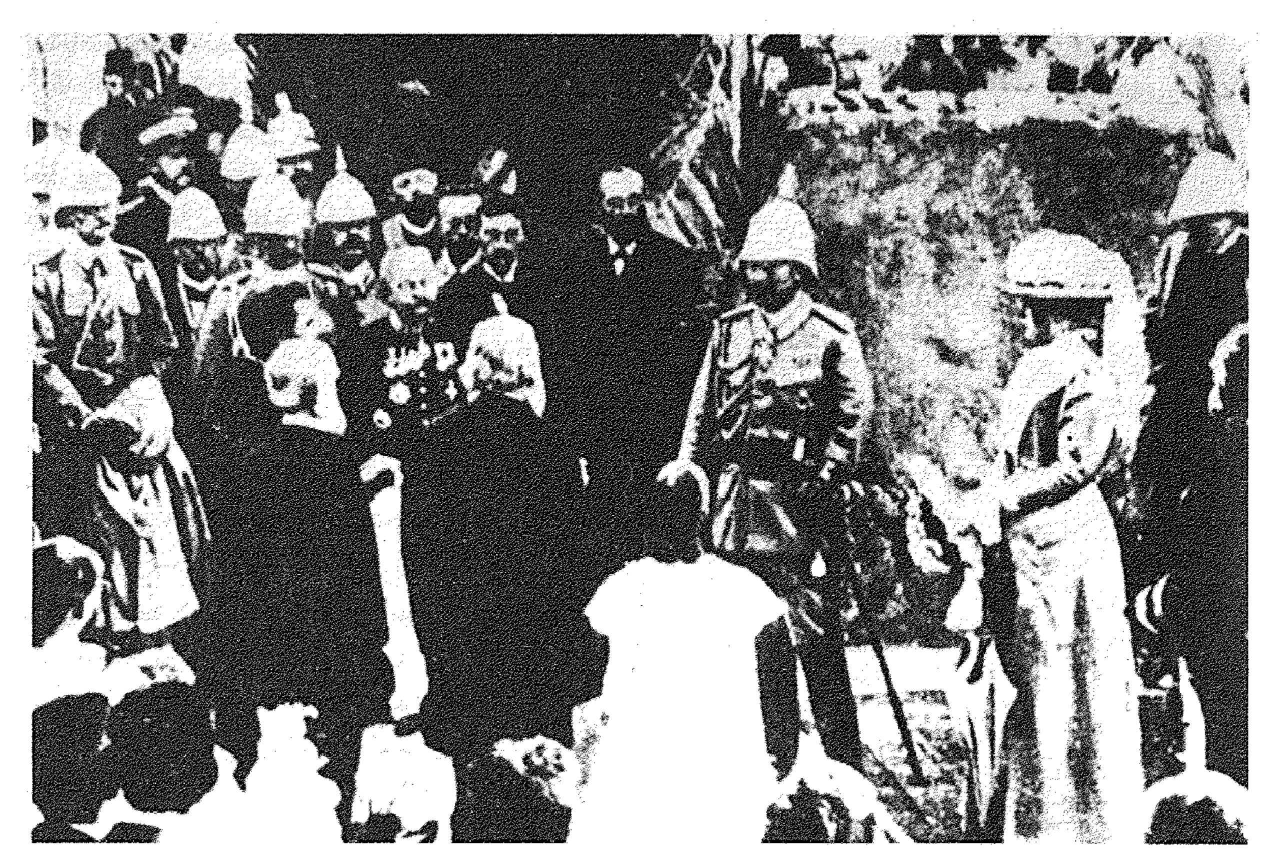
ولم يكن قدوم الارساليات التبشيرية الألمانية إلى المنطقة العربية بمحض الصدفة، بل كان حبهم للأراضي المقدسة وسعيهم لتحريرها من سيطرة المسلمين وتنصير سكان الشرق ونشر المسيحية هناك من الأهداف الكبار التي حركت تلك الجماعات. ففي قدومهم إلى الشرق رأوا استمراراً للحروب الصليبية ولكن هذه المرة بطرق سلمية. جاؤوا إلى الشرق وهم يرون في المجتمع الاسلامي «مجتمعاً فاسداً» وفي الدين الاسلامي «ديناً خاطئاً»، فأرادوا عن طريق نشر تعاليمهم وثقافتهم الدينية إصلاح «مجتمع فاسد» وإعطاءه «حياة جديدة».

ولتحقيق تلك الأهداف سارت الارساليات الألمانية في طريقين: الابتعاد عن التبشير المباشر ومحاولة كسب مودة الجماعات والطوائف المسيحية الأخرى وكذلك المسلمين وتسهيل إقناعهم بالمعتقدات البروتستانتينية المسيحية عن طريق تقديم خدمات اجتماعية وثقافية وصحية لهم، في وقت كان تقصير الدولة العثمانية في هذه المجالات كبيراً. أما الطريق الآخر — كما سنرى بعد قليل — فكان الاستعمار الديني في فلسطين، أي شراء الأراضي وإقامة المستعمرات وتوطين المستعمرين الألمان عليها وفي حالات قليلة توطين جماعات فلسطينية انتقلت إلى الدين المسيحي.

ولكن بعد مرور سنوات طويلة على بدء العمل الارسالي الألماني في سوريا وفلسطين نجد أن تلك السياسة لم تؤد إلى النجاح، فمحاولة تنصير اليهود اقتصرت على أعداد هزيلة كما أن محاولة استقطاب اتباع الكنائس الأخرى جعل تلك الكنائس الشرقية تدافع عن مواقعها بعناد وتزيد من نشاطاتها الاجتماعية والثقافية والصحية بين اتباعها. أما من ناحية الدولة العثمانية فعلى الرغم من إصدارها — تحت ضغط الدول الأوروبية — المراسيم التي تلغي عقوبة القتل للمسلمين المرتدين (قانوني ١٨٤٣، ١٨٥٦)، إلا أن هذا لم يؤد إلى شيء من الناحية العملية، فالدولة العثمانية كانت تعد نفسها «خلافة إسلامية» وأن من واجباتها الدفاع عن الدين الاسلامي. ومن جهة المسلمين فإنهم لم يشعروا أبداً بحاجتهم إلى استبدال دينهم بدين «أفضل»، نعم فقد دافعوا عن دينهم ضد معتقدات رأوا فيها بدعة وتحريفاً، وعلاوة على ذلك فقد كان ارتداد المسلم وحتى المسيحي من أتباع الكنائس الأخرى معناه ليس فقط الحصول على دين جديد، بل قطع علاقاته وانفصاله عن مجتمعه الذي كان يعيش فيه.

ولهذه الأسباب كانت أعداد الذين انتقلوا إلى المسيحية من المسلمين زهيدة جداً.

وعلى الرغم من تلك العقبات وخيبة الأمل فقد استمر المبشرون الألمان في نشاطهم «الخيري» في مجالات اجتماعية وتربوية، وكلما كانت نشاطاتهم بعيدة عن التبشير وجدوا استحساناً أكبر من السكان. ولهذا حاول الألمان الذين جاؤوا إلى



□ الامبراطور فلهلم الثاني وزوجته يصلان مرفأ حيفا ١٨٩٨.

سوريا وفلسطين متأخرين عن غيرهم من مبشري الدول الأوروبية الأخرى أن يتقربوا إلى المجتمع الشرقي عن طريق استحداث نشاطات جديدة لا يعرفها السوريون، فركزوا عملهم على المرأة العربية وافتتحوا المياتم ومصحات البرص، كما أعطوا التعليم الحرفي والمهني عناية فائقة، وفي مجال تدريس اللغة العربية فقد كان اهتمامهم بها أكثر من المؤسسات الأجنبية الأخرى وكذلك من اهتمام الدولة العثمانية.

ولكن هذه السياسة التربوية القائمة على التبشير أخذت مع الوقت ــ عندما أخذ نفوذ ألمانيا العالمي يكبر ويتعاظم ــ تتحول إلى سياسة دعائية هدفها تقوية النفوذين السياسي والاقتصادي لألمانيا في سوريا وفلسطين. فأصبح على المؤسسات الثقافية الألمانية أن تخدم المصالح العليا للدولة لضرب نفوذ الدول الأوروبية الأخرى وخاصة فرنسا، ففي البداية لم يع المبشرون هذا ولكن قبل نهاية القرن الماضي كانوا أكثر وعياً لدورهم وهو خدمة المصالح العليا لألمانيا، فقد وجدوا أنفسهم جزءاً من السياسة الألمانية التوسعية في الشرق مرتبطين بشكل كبير مع المصالح التجارية والاستعمارية والسياسية لدولتهم مع الشرق، فعن طريق معرفتهم للغة وعادات السكان المحليين في سوريا وفلسطين استطاعوا أن يلعبوا دور الجسر بين هؤلاء والاقتصاد الألماني.

إن الارتباط المباشر والحميم بين الأهداف التبشيرية والاقتصادية يظهر بوضوح في الجهود التي بذلت لاستعمار فلسطين، فإن أول مشروع للاستيطان قامت به مطرانية القدس لتوطين اليهود المتنصرين، ولكنه باء بالفشل لأن أعداد اليهود الذين تنصروا لم يكن يوازي الجهد لانشاء المطرانية، كما أن وقوف الجماعات اليهودية المتنفدة الأوروبية في وجه هذا المشروع جعله فاشلاً منذ البداية. فهذه الجماعات اليهودية كانت تريد عودة اليهود إلى فلسطين كيهود وليس كنصرانيين. ولكن مشروع مطرانية القدس قد فتّح أعين الرأسماليين اليهود على إمكانية استغلال التناقضات الدولية الأوروبية لاستعمار فلسطين، وهذا ما سيؤدي فيما بعد إلى

إنشاء الحركة الصهيونية.

وبالنسبة للارساليات وجماعة الهيكل الألمانية (Templer) فقد كان إنشاء المستعمرات أيضاً لضرورات اقتصادية، ليس فقط لحاجات خاصة، بل أيضاً لمحاربة نفوذ الأديرة التابعة للكنائس الأخرى التي كانت تستغل الفلاحين المسيحيين في أراضيها الزراعية. ولهذا فقد ربط المستعمرون الألمان بين «استصلاح أراضي مقدسة في فلسطين» عن طريق شراء الأراضي وإقامة المستعمرات بأن هذا سوف يؤدي إلى تحريرها من سيطرة المسلمين «الكفرة»، كما أنهم رأوا أن الدولة العثمانية كممثلة للقوى الاسلامية تجاه الغرب على وشك الانهيار وأن هذا دليل على قرابة اندحار الاسلام، ولهذا أخذوا يتسابقون مع غيرهم من الارساليات الأوروبية الأخرى في عملية شراء الأراضي وإقامة المستعمرات. إلا أن هذه الأهداف من وراء الاستعمار لم تتحقق، فالدولة العثمانية انهارت بعد الحرب العالمية الأولى كقوة سياسية دون أن يصاب الدين الاسلامي بتضعضع، كما أن استصلاح أراضي مقدسة في فلسطين اقتصر على المناطق التي سكنها الألمان وكان تأثيره على السكان المحليين ضعيفاً.

وقد أعطى الاستعمار الألماني الديني رغم ذلك نتائج حسنة إلى السكان المحليين بنسبة ضئيلة، فمستعمرات دار الأيتام السورية الزراعية والمهنية والتي كان مستوطنوها من العرب الفلسطينيين والسوريين قد أدت إلى نواحي إيجابية بأن علّمت آلاف المتخرجين نظريات جديدة في التقنية والزراعة.

وإذا كانت النشاطات الكنسية السياسية والدينية الألمانية قد أعطيت هذه الأهمية فإن الجهود الاقتصادية والسياسية ظلت حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر في المؤخرة. وهذا يعود إلى تخلف الصناعة الألمانية نسبياً عن تلك التي كانت في إنكلترا وفرنسا وإلى عدم وجود دولة ألمانية موحدة تأخذ على عاتقها تأمين أسواق خارجية عبر البحار.

ولا شك أن إقامة الاتحاد الجمركي في ألمانيا (Zollverein) وتطور الصناعة الألمانية منذ الخمسينات من القرن التاسع عشر وإقامة



□ بسمارك يعتزل السياسة «ويغادر السفينة».

شبكات السكك الحديدية والبنوك الضخمة وتطور أعداد السكان قد دفع ألمانيا إلى اتباع سياسة أمبريالية خارجية للبحث عن أسواق لمنتجاتها وتأمين المواد الخام لصناعاتها وإقامة المستعمرات. وفي هذا الاطار جاءت السياسة الألمانية نحو الشرق (Drang nach Osten).

وحتى ١٨٧٠ أي حتى تأسيس الدولة الألمانية الموحدة فإنه لا يمكن التحدث عن سياسة ألمانية تجارية متماسكة مع الشرق أو عن سياسة استعمارية في سوريا وفلسطين. فالتشرذم السياسي الداخلي منع تأمين أسواق خارجية عبر البحار، كما أن المعاهدات التجارية التي عقدتها الدويلات الألمانية مع الدولة العثمانية منذ ١٨٣٩ لم تؤد إلى توسيع التبادل التجاري بين ألمانيا وسوريا وفلسطين، فلقد اقتصرت التجارة بين الفريقين على صادرات ألمانية من المصنوعات النسيجية والخردوات، وبالمقابل صدرت سوريا مواد أولية للصناعة الألمانية وكذلك الحبوب والفاكهة.

وظل حجم التجارة الألمانية مع سوريا وفلسطين حتى ١٨٧٠ اقل من ١/١٠٠٠، ولكن

إقامة قنصليات بروسية/ ألمانية في مدن سوريا وفلسطين الرئيسية كان له أكبر الأثر في تطوير التبادل التجاري بين ألمانيا من جهة وسوريا وفلسطين من جهة أخرى فيما بعد.

على أن الربع الأخير من القرن الماضي وبالتحديد منذ افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩ حمل معه تطويراً للنفوذ السياسي الألماني في الدولة العثمانية وبالتالي تقوية العلاقات التجارية مع سوريا وفلسطين. وقد كان هذا مرتبطاً باتصال بحري ألماني مباشر مع الموانىء السورية، وليس عن طريق إرسال البضائع الألمانية بواسطة السفن الأوروبية وبالتالي تحميل البضائع مصاريف باهظة (لحماية المصنوعات المحلية الأوروبية من المنافسة في الأسواق الخارجية كانت تفرض تعريفات نقل باهظة على مصنوعات الدول الأخرى المارة في أراضي تلك الدول أو المستخدمة لنفسها) مما يؤدي إلى ارتفاع أسعارها في الأسواق الشرقية ويفقدها القدرة على المنافسة مع البضائع الأوروبية الأخرى. ولهذا جاء إنشاء خطوط الملاحة الألمانية الشرقية ١٨٨٩ (Deutsche Levante — Linie). وما إن حل عام ١٨٩٧ حتى تم تأسيس بنك فلسطين الألماني في فلسطين ومدن سورية أخرى من قبل جمعيات دينية تبشيرية ألمانية بروتستانتية وكاثوليكية عاملة في فلسطين.

ويمثل الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى ذروة النفوذ الألماني في الدولة العثمانية وفي فلسطين وسوريا، فكما هو معروف فإن المستشار الألماني بسمارك رأى الابتعاد عن المسألة الشرقية خشية أن يؤدي ذلك إلى إخلال في التوازن الأوروبي الذي كان حيوياً لألمانيا.

ولكن عند نهاية عصر بسمارك واعتلاء الامبراطور فيلهلم الثاني عرش ألمانيا أخذت سياسة الزحف نحو الشرق (Drang nach Osten) بأبعادها السياسية والاقتصادية والقومية تصبح محور السياسة الألمانية الجديدة. وفي هذا المضمار سارت السياسة الألمانية للتدخل في شؤون الشرق وخاصة سوريا وفلسطين بالعطف على الحركة الصهيونية وفرض حماية ألمانيا الرسمية رعاياها في المنطقة ومناهضة النفوذ الفرنسي المتين في سوريا.

وتمثل رحلة الامبراطور فيلهلم الثاني إلى فلسطين وسوريا عام ١٨٩٨ قمة النفوذ الألماني في المنطقة والصراع مع فرنسا على حماية كاثوليك الشرق. وبينما اتبعت إنكلترا منذ التسعينات من القرن التاسع عشر سياسة جديدة تجاه تركيا بتقسيمها بين الدول الكبرى وبحل المسألة الشرقية قامت السياسة الألمانية على المحافظة على سلامة واستقلال الدولة العثمانية. وقد كان يحركها في ذلك مصالحها الاقتصادية الضخمة في الدولة العثمانية وفوق كل شيء مشاريع بناء خطوط سكك حديدية في آسيا الصغرى.

وفي هذا السبيل اتبعت ألمانيا سياسة إسلامية وهو إعلان نفسها حامية لمسلمي العالم (خطاب الامبراطور الألماني في دمشق ١٨٩٨). وكان معنى هذا أن ألمانيا قد أخذت الدور الذي اتبعته بريطانيا في سياستها الاسلامية.

وفي النهاية فإن رحلة العاهل الألماني إلى الشرق قد أدت إلى نتائج اقتصادية هامة. فقد استطاع الألمان أن يحصلوا على عدد كبير من الامتيازات والمشاريع في تركيا، وأهم المشاريع امتياز مد خط سكك حديد بغداد. ولكن تحقيق مثل هذا المشروع الباهظ التكاليف كان فوق قدرة البنك الألماني ويصطدم بمصالح الدول الكبرى الأخرى في المنطقة ولهذا اضطرت ألمانيا إلى قبول تسويات مع روسيا وإنكلترا وفرنسا. وفيما يتعلق بالنفوذ الألماني في سوريا وفلسطين اضطرت ألمانيا إلى الاعتراف لفرنسا بمركزها في سوريا وإلى حد ما في فلسطين، وبالمقابل مارست التحفظ في تلك المنطقة.

وأخيراً فإن هذه الدراسة قد اعتمدت بشكل أساسي على:

— وثائق الخارجية الألمانية، بون، برلين، كوبلنز.

— وثائق الخارجية البريطانية، لندن.

— وثائق الجمعيات والارساليات التبشيرية الألمانية العاملة في سوريا وفلسطين، برلين، دوسلدورف... إلخ.

إلى جانب العديد من المصادر المعاصرة والدوريات.



□ احتفال تقليدي في احد الأعياد.

القيم الاجتماعية في المجتمعات العشائريـــة



محمد الفاكياني

إن هذا البحث الذي استأثر دراستي خلال زيارتي للجزيرة العربية ولقائي بشيوخ وأفراد بعض من القبائل العشائرية، فقد عملت حول هذه الزيارة دراسة تامة عن نظم المجتمع العشائري وقيمه وتقاليده، وإني ألخص هذا الموضوع لأضعه لقارىء مجلة «تاريخ العرب والعالم»، ولتعرّف القارىء العربي على ما جهل من عاداته وتقاليده العربية، من إكرام الضيف وإغاثة الملهوف والحمي والذود عن العرض والأرض وشرف القبيلة، التي لا زالت هي الأساس لمجموع القيم السائدة في مجتمعنا المعاصر وإن تلقت تعديلات عميقة الجذور في قواعدها، والتي لا زالت بحاجة إلى المعالجة والدراسة بالتغيرات والتبدلات المتسارعة.

القيـم الاجتماعيـة



إن القيم الاجتماعية في المجتمعات العشائرية تبدو بالعلاقات التي تكونت لصيانتها ورفع مستواها والمحافظة على كيانها متأثرة بالعوامل الطبيعية المحيطة بها حتى أصبحت قواعد مرعية ودساتير مقدسة تتصل بالمستويات الخلقية التي يقدسها المجتمع ويفرض على الفرد بروز أفعاله على ضوئها ويتخذها هادياً في عمل ما يحل له وما لا يحل له.. في النظم السائدة فيه... ولئن يبدو لأول وهلة أن القيم الاجتماعية في المجتمعات المستقرة هي نفسها في المجتمعات الرعوية المتنقلة على اختلاف الظواهر الاجتماعية في كل منها. فذلك لأن البادية هي الأصل الغالب لسكان المجتمعات المستقرة في الأرياف والمدن، فمنها مصدرها وإليها انتسابها، وكان للتشابك والارتباط والتمازج معها قروناً عديدة، حتى ان استقرت في دروب حياتها وان اختلف أثرها قوة وضعفاً... ومع ذلك فيجب أن لا يلتبس علينا أمرها، لأن ثبات الصيغة المعبرة عن القيم نفسها لا تدل بحال من الأحوال على ثبوت مضمونها كما أن مطابقة الفرد بين سلوكه وبين ما تقضي عليه الالتزامات والنواحي والأعراف في البادية يختلف عنه في المجتمعات المستقرة بمدى تطورها نحو التحضر والثقافة والاستقرار...

فالقيم الاجتماعية في البادية والتي تبدو على هيئة فكرة مثالية للسلوك العملي والمستويات الخلقية التي تستمر في البقاء ما دامت تلبي مطاليب البادية الاجتماعية على نحو مباشر أو غير مباشر. وما دام المجتمع البدوي متحفظ بشروط وجوده وبقائه.

الواقع الاجتماعي البدوي

تشترك المجتمعات العشائرية على اختلاف مراحلها في بعض الخصائص الاجتماعية، منها: الاعتزاز في النسب والعصبية القبلية والتفاوت الطبقي.

إن المجتمعات العشائرية تنقسم إلى قسمين:

أولاً — المجتمعات الرعوية المتنقلة.

ثانياً — المجتمعات الزراعية المستقرة.

وبين هذين القسمين مراحل عديدة لجماعات عديدة تختلف في المدى الذي يقربها من الاستقرار ويبعدها عنه، كما أن لكل منها مظهراً لمرحلة معينة تؤلف مختلف مظاهرها وحدة شاملة وهي كما يلي:

البدو الرحل

البدو الرحل هم الذين يعتمدون على الابل في معيشتهم، فمنها طعامهم وشرابهم ومأواهم وراحلتهم، ويعتقدون أنها هبة الله لهم ونعمته عليهم. وهم يحبونها ويعتزون بها شديد الاعتزاز، كما يحلفون بها ويتغنون باسمها في أشعارهم، ويكرهون من يقسوا عليها، وهي في الجملة مصدر غنائهم ومبعث عنائهم.. وقد لا يبكي البدوي إذا قتل أخاه أو أباه، ولكنه يبكي إذا ماتت ناقته الوحيدة ولا ضير عليه فهو يحس بأن الموت أصبح قريباً له ولعائلته.

والابل عندهم هي المال الذي يقايض عليه في المبايعات ويفصل فيه بالديات ويدفع به مهور الزوجات، ونحرها عندهم أعظم مظاهر التكريم للضيوف. وهي الوحدة القياسية التي تعطي لكل فرد قيمته بين أبناء مجتمعه بما يملكه منها.

ويعتني البدوي بإبله كلها ويتخذ من الوراثة عنصراً هاماً في تأكيد صفاتها، كما هو طبيب بعللها وأمراضها ويسميها في كل مرحلة من حياتها باسم خاص، ولكل قبيلة علامة تكوى على كل جمل وناقة، وتعرف بالوشم. وإلى جانب العلامة الأساسية الخاصة بالقبيلة تضيف كل جماعة أو أسرة علامات أخرى خاصة بها.. مثل يستعمل الجمل لحمل الأثقال، بينما تتخذ الناقة للركوب.. ويعرف البدوي إبله مهما اختلطت بغيرها وبوسعه أن يتذكر آثار كل جمل مر به، ويعرف أيضاً إذا كان الجمل مركوباً أو حراً وباستقصائه أثره يتعرف الوجهة التي أتى منها والقبيلة التي ينتمي إليها، حيث أن لكل قبيلة أنواع مختلفة من الابل تعرف بأثارها فضلاً عن أشكالها وألوانها.. والصحراء هي منازل البدو ومسارهم، يضربون في أرجائها سعياً وراء الكلأ والماء، قد صبغتهم الصحراء بصبغتها القاسية وتمرسوا بها حتى أصبحوا جزءاً منها وتحملوا الشدائد وشظف العيش. يجتزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة.. ولكل عشيرة فيها منازلها ومراعيها الخاصة بها وتتحاشى العشيرة النزول في مرابع العشائر مع بعضها في سنين المحل والجدب للرعي في مناطق تكون مشاعة بينهم.. وأعظم ما يطرب إليه البدوي من جمال الطبيعة هو رؤية المراعي الخصبة الفواحة الشذى ومنظر (الخيرات).. وهي البحيرات التي تحصل في القيعان والوهدات حيث تجتمع فيها المياه من الأمطار السائلة ومن المنحدرات المحيطة بها — فيجتمع حولها البدو ويرقصون ويغنون.. ويندر أن يرعى البدو إبلهم في منطقة واحدة سنتين متتاليتين. وقد تمضي بضعة سنين قبل أن يعودوا إليها..

ومنهم من يقيمون في معظم فصول السنة في تخوم الأرياف الزراعية ويعملون على نقل حاصلاتهم الزراعية بواسطة إبلهم. ولما حل شيوع السيارات السريعة فقد قضي على قوافل الابل وسفن الصحراء العظيمة التي كانت تنقل الحاصلات بين البلاد. وبدت لم تعد تربية الابل تجارة رابحة. وتخلى تجارها عنها يلتمسون عملاً آخر.. كما لجأ بعض البدو للاستعانة بتربية الأغنام بينما رحل آخرون للعمل في الحراسة والانخراط في مسالك الجيش، ومال شيوخهم إلى اقتناء الأراضي الزراعية والحصول على الأراضي الأميرية لاسكان عشائرهم فيها، وقد اهتمت بهم الحكومات بحفر الآبار لهم وإيجاد المراعي والعمل على توطينهم واستقرارهم.

الشاوية

أطلق اسم الشاوية على رعاة الأغنام والماعز.. والرعي هو الحرفة الأساسية لهم وإن تعددت

وجوه نشاطهم بين الرعي والزراعة إلا أن اهتمامهم ونظام حياتهم يتركز حول تربية الأغنام والعناية بها والمحافظة عليها، وإذا أقبل بعضهم على الزراعة، فإنه سرعان بعد بزرة الزرع الشتوية أن يرحل إلى البادية للرعي بعد هطول الأمطار. والحفاظ على ماشيته خوفاً من أن يقضي الجرب والمرض على أغنامه.

المجتمعات الريفية

المجتمعات الريفية هي تألف الأغلبية الساحقة تقريباً من العشائر القاطنة في البلاد، ويمتهن افرادها الزراعة ومنهم من يجمع إليها تربية الحيوانات، ويعتبرون ارتباطهم في الأرض هي مرتع آمالهم ومهوى أفئدتهم. فهناك من يقتصر على الزراعة وآخرون يعنون بتربية الماشية، وكل عشيرة تكون بوحدة مستقلة عن العشيرة الأخرى.

إن هذه الأقسام بمراحلها الثلاث المختلفة يتعالى بعضها على بعض بمدى التصاقها بالبداوة وبعدها عنها وتمسكها بالقيم البدوية. وليس هذا التعالي مقتصراً على الأقسام المذكورة وإنما هو يشمل العشائر نفسها. وقد تتعالى بعض افخاذ العشيرة على سواها بما تحرص عليه من قيامها بالعادات والتقاليد البدوية وتمسكها بقيمها..

لقد تكونت هذه القيم الاجتماعية للفرد في البادية من حاجاته الأولية الأصيلة إلى ضمان عيشه وحماية نفسه من تقلبات الطبيعة وآفاتها والعمل على الافادة من مواردها والتعاون مع الغير لدفع أخطارها. فترى البدوي يتعرف على مسالك البادية وطرقها ومراعيها ومواقع آبارها ووديانها كما يتطلع إلى الأفق البعيد ليرصد الغمام ويرقب السحاب ويتفرس فيه، ويعرفه إن كان ممطراً أو خلباً، كما يرصد النجوم ويهتدي بالقطب، ويتعلم الرماية والاصابة وركوب الخيل والابل ويغالب البرد والحر والعطش ومتاعب الحياة القاسية. وقد أوحى له صراعه هذا مع الطبيعة ومع الأعداء قواعد من التفكير والسلوك تجلت في اتخاذه منها مقاومة وقيماً مقدسة عبر عنها (بالحقوق). وهذه الحقوق منها ما يتعلق بمفهوم العدل والكرامة، والاثرة والايثار، ومنها ما يتعلق بمسؤوليته الشخصية عن نفسه وأسرته وعشيرته. ومنها ما يتعلق بمسؤولية الدفاع عن الغير.

مسؤولية الفرد البدوي

إن الأساس في مسؤولية الفرد البدوي بحمايته للغير والدفاع عنه والأخذ بثأره تنحصر هذه في بعض الحالات المعينة منها:

ــ إذا ارتكبت جريمة ضد من أضافه أو نزل في جواره، أو رافقه في طريقه أو قصده، أو لجأ إليه، أو سار بوجهه. بينما ليست لمسؤوليته عن أسرته وعشيرته حدود معينة. إذ يقضي العرف عليه بنصرتهم ظالمين أو مظلومين.. وإذا جاز له أن يصفح ويعفوا ويتسامح مع من أساء له ولعشيرته فليس له أن يعفو ويتسامح مع من يرتكب الجريمة ضد من هو في حمايته..

ولقد نشأت هذه الأعراف في البادية في اليوم الذي لم يكن فيها سلطة لأحد تخضع له، ولم يكن فيها من يتولى الدفاع عن حقوق المجتمع فأقرت هذه الأعراف التي خولت الفرد فيها أن يقوم مقام المجتمع بأداء ما يترتب عليه.. ولذلك فإن سمعة الفرد البدوي ومكانته الاجتماعية تتوقفان على مدى قيامه بهذه الواجبات.. ومع أن هذه الأعراف قد تضاءلت في الوقت الحاضر بعد سيادة القانون.

هذا ولقد اصطلحت العشائر البدوية في مختلف مناطقها وأقطارها في البلاد العربية على أن أعظم الحقوق مقاماً وأشدها أثراً وأقواها انفعالاً في مسؤولية الفرد بالدفاع عن الغير هو ما اصطلحت عليه بتسميته: (الثلاث البيض) ونعني بها.. (الضيف السارح والطنب السابح وخوي الجنب). وتعتبر أنه لا يوجد عار في الدنيا اكبر من المساس بها والتحدي لها. فهي مقدسة لديها قولاً وعملاً في تفكيرها وسلوكها وحربها وسلمها، والويل كل الويل لمن يمسها أو ينكص بها. وقد انزلتها منها منزلة الصلاة في فروضها وسننها، حتى قال فيها الشاعر:

يا صار ما تعطي الضيف ما كل لنا كار
تقعد مع زينات الذوايب بحنة
ترى الخوى والضيف والثالث الجار
مثل الصلاة ما بين فرض وسنة

وترى العشيرة في حمايتها والذود عنها هي رمز لكرامتها وعنواناً لمجدها وتاجاً لفخارها وضمانة لسلامتها، وعبر الشاعر بقوله:

بالبيض لا لأحد صبحه ما مشيتي
ولا مشيتي من بلاد اليا بلادي

وقد وصفوا العرب ممدوحهم كما اتصفوا بالكرم والقيم التي اصطلحت عليه البادية وهي — إكرام الضيف وحماية الجار وعز الرفيق..

الضيف السارح

تعتبر الضيافة عند العرب واجباً مقدساً في البادية لن يستطيع أي فرد فيها أن يتخلف عنها مهما كان فقيراً ولا يملك من حطام الدنيا شيئاً، وللضيف أن يقصد الحي من البدو في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل، ولا يشترط أن تكون له معرفة سابقة بمن قصده وأضافه، وكانت عند العرب ولا زالت النيران مشتعلة في البادية ليلاً ليهتدي الحائرين إليها وتقوم بواجب الضيافة إليهم وهم كما عناهم الأستاذ الجواهري في قوله:

قل إن سألت عن الجزيرة مفصحاً
ما أشبه الأحفاد بالأجداد
ما حولت تلك الخيام ولا عدت
فينا على تلك الطباع عوادي
نار القرى مرفوعة وبجنبها
نار الوغى مشبوبة الايقاد

ولقد عزز الاسلام هذا الواجب وأمر به فقال الله تعالى في كتابه العزيز: **﴿ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾** وقال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» وقال: «**الدين المروءة**» وذكروا ان من المروءة الحلم والصبر والعفو عند المقدرة، وقرى الضيف وإغاثة الملهوف، ونصرة الجار، وحماية الضعيف.. وحفلت أخبار العرب بمآثر إكرام الضيف فمن ذلك ما وصى به ذو الأصبع العدواني ولده بقوله: «واسمح بما لك، واعزز جارك، وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك».

وللضيافة عند العرب قواعد خاصة في الآداب والسلوك منها:

إذا دخل الضيف السارح حياً من أحياء العرب أو ديرة من ديارهم فالواجب أن يضيفه أول بيت يمر فيه، وله الحق الأول في ضيافته، فإذا تجاوزه إلى جاره يعدها إهانة له فيطالب الجار به. وإذا لم يطالب بهذا الحق ينظر إليه بعين الاحتقار.. وللافاة ما يحدث وحدث من نزاع حول هذا الحق فقد اصطلحت العشائر على أن تبني مضائفها في أول الحي وفي الطريق الذي يقصده الزائرون إليها. والمضيف هو بيت شيخ العشيرة وتشترك العشيرة في بنائه وتقويمه ليكون منتدى لها في الصباح والمساء، ويجلس فيه أفرادها حسب مراتبهم الاجتماعية ويحط الضيوف فيه رحالهم..

آثار الضيافة

الاطار العام للضيافة عند العرب تكون بحسب مراسمها، هو أن يفرش الفرش للقادم وتعمل له القهوة مجدداً وتذبح الذبيحة ويقدم الطعام، ولا يسأل القادم عن مهمته إلا بعد تناول الطعام.. ولا تنحر الابل إلا للضيوف الكبار أو في عيد الأضحى. ومن عادة الفقراء في عيد الأضحى أن تأتي النساء بقدرها أمام البعير المضحى فتقطع منه قدر حاجتها وتطبخه أمام بيت صاحب الأضحية ولا تحمل قدرها إلا ناضجاً. وأعظم ما يكرم به الضيف هو تقديم السنام المقطع أو رأس الخاروف فوق المنسف. والسنام بنظر البدوي هو أسنى طعام، ويعتبر لحم الابل عند العرب سيد اللحوم كلها.. وفي الضيافات الكبيرة يحضر أفراد العشيرة باعتبارهم كلهم أصحاب الدعوة. ومن عاداتهم أن يتناولوا الطعام ساخناً وفي يدهم اليمنى، وإذا قام أحدهم من المائدة فلا يتخلف بعده أحد. وإن ظل جائعاً لذلك من أجل أن يفسح مجالاً لغيره.

ومن عاداتهم يجب أن يكون اللحم ناضجاً، حيث ان انتهاء اللحم قبل الرز هذا أمر معيب، ومن عاداتهم لم يجلس صاحب الدعوة مع المدعوين للأكل لئلا يزاحمهم فيه تمثلاً بما قاله حاتم الطائي:

وإني لا أستحي أكيلي أن يرى
مكان يدي من جانب الزاد أقرعا

اكف يدي من أن تمس أكفهم
إذا نحن هوينا وحاجتنا معا

ولعل من أهم شروط الضيافة وآدابها هو استعمال اليد اليمنى في مناولة القهوة وتناولها، وأيضاً تناول الطعام بها وعدم استعمال اليد اليسرى، لأن ذلك تعد من كبائر الأمور المزرية جداً. حيث قال الشاعر ينصح ولده:

والضيف قُومْ له حين يلقاك
مما تنوشه يا فتى الجود يمناك

وللضيف حقوق تترتب على من أضافه، فهو أولاً مسؤول عن حمايته، ودفع الاعتداء عنه والأخذ بناصره طيلة أيام إقامته ضيفاً عنده. وإذا سافر فهو مسؤول أيضاً عن سلامته مسيرة يوم كامل. فإن اعترضه أحداً وسلبه ماله وجب على من أضافه الانتصار له، ورد ما أخذ منه. وإن قتل فإن لصاحب الدار أن يأخذ بثأره ممن قتله أو من عشيرة القاتل فإن عجز عن ذلك فله أن يستنصر عشيرته. وهنا تترتب للقتيل دية مضاعفة تعود إحداها لعشيرة القتيل والدية الأخرى لصاحب الدار، وإذا ما قتل قاتله لا يأخذ أحد بمأخذه فيعتبر هو الذي قتل ضيفه.

وبعد ما حلت سيادة الأمن والقانون وإخضاع العشائر لأحكام القانون، رغم من كل هذا فقد ظلت هذه الأعراف معترفاً بها في الحسم في قضايا المنازعات العشائرية بتعين التعويضات المترتبة عليها في الحسم والديات..

الطنب السابح

يعنون به أن الطنب السابح هو طنب الخيمة الممدود، وهو كناية عن الجار الملازم لجاره، وملازمة الطنب هو (حبل الخباء) للخيمة.. وللجوار حقوق مقدسة عند العشائر وتكون هذه الحقوق في ذمة العشيرة كلها، لن يستطيع أحد أفرادها أن يتخلف عن حماية جاره والدفاع عنه. فقد كان من العرف أن ينزل شخص في جوار عشيرة ويطلب حمايتها فيكون بذمتها. والغدر بالجوار عند العشائر خيانة كبرى تنكرها العشيرة وتنفر منها ومن مرتكبها، وتعترف العشائر الأخرى بحق هذا الجوار. لأن صاحبه المستمتع به قد اكتسب عصبية جديدة.. وقد رسمت البادية بما وصفت به من عرف وقواعد من الاجراء والحكم والتنفيذ وسارت على سيرها المجتمعات المستقرة. ولم يكن من اليسير على المجير أياً كانت مكانته في عشيرته أن يأخذ على نفسه مسؤولية الجوار إلا إذا آنس الكفاية والمقدرة في ذاته وفي عشيرته التي ينتسب إليها وكثيراً ما وقعت المعارك والحروب وسالت الدماء دفاعاً عن الجار وحمايته والأخذ بثأره.. وعلى الجار نفسه مسؤولية معنوية أيضاً تقضي عليه أن يرد عادية عشيرته على من نزل في جواره. فلو أحد أفرادها اعتدى على من نزل بجواره أو سلب منه شيئاً وجب عليه أن يرد الاعتداء ويسترجع المسلوب وأن يضحي بحياته. ولا تزل مسؤولية الجار تترتب على العشيرة التي نزل بجوارها.

خوي الجنب

هو الرفيق، وفي عرف البادية إن من سار مع البدوي سبع خطوات أصبح (خويه) وجب عليه أن يقاتل معه ويحميه. ولقد استغلت القوافل التجارية هذه القيم التي يؤمن التاجر على مصالحه ونفسه وبضاعته فصارت تتفق مع إحدى القبائل لقاء مال يدفعونه للعشيرة ويصطحب بعض من أفراد العشيرة للسير معها في أرض عشيرته حماية للقافلة وأرواح أفرادها، وما دام معها مسؤول من العشيرة فهو المسؤول عن حماية القافلة ودمائها وأموالها وله من عشيرته خير ساعد له في أداء واجبه.

الخلاصة

اليوم وبعد أن أصبح كل شخص يسير في البادية بحماية الله والقانون. قد انطوت تلك الحقوق وتقلصت إلا أنها لا تزال محتفظة بحرمتها ومكانتها في المجتمعات العشائرية تسري في أشعارها وقصصها وأمثالها، وشتى صنوف تعبيرها عن آلامها وآمالها، وتنقل هذه العادات من جيل إلى جيل لتعكس صورة صادقة من صور حياتها وبما تحتفظ به من مكانة لهذه القيم التي تعتز بأصالتها.

وإن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قال: بحق العرب وكرمهم قال: «**أنا عربي والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي**».



اجتماع العلماء العرب.